الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

السيرة الطائرة

أقل من عدو... أكثر من صديق



الطبعة الثالثة

THE FLYING AUTOBIOGRAPHY • IBRAHIM NASRALLAH

إبراهيم نصر الله

السيرة الطائرة

أقل من عدو... أكثر من صديق

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

السِّيرَةُ الطَّائِرَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثالثة
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0125-8

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: الفنان محمد نصر الله
صورة الغلاف: الكاتب، طفلاً، في المتصف، مع عائلته

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إلى شقيقتي سِهام
التي لم يُتِح لها الموتُ أن تحلِّق أبعد من (براري الحُمَّى)

بمثابة تقديم:

عنّا وعن روح العالم

(الصديق: آخر هو أنت)

روح العالم، كلمتان شغلتاني كثيرًا في السنوات الأخيرة، روح العالم أين تكمن هذه الأيام؟! ما الذي يوحّد هذا الخليطَ المرعبَ من الأشلاءِ والأحلام، من الموتِ والحياة، طموحِ الحياةِ في أن يحيا البشرُ بكامل إنسانيتهم، أحرارًا يمتلكون شمس نهارهم، كما يمتلكون مصيرهم.

يقف الإنسانُ اليوم على حافةِ الجنون في هذه المنطقة بالذات، يقف على حافةِ انفجاره، مُحتشِدا بغضبٍ لا حدودَ له، وهو يراقب ظلامَ الغطرسة يفترسُ روحه وجسده ويتسلى به ببطء دامٍ؛ يكفي أن يراقب المرءُ نفسَه، شاعرا كان أم فنانا أم بائع خضار، قليلا، وهو يتتبع فصولَ مأساته الزاحفة، حين يشاهدُ الأخبار، أخبارَ المذبحة المستمرةِ هنا وهناك، في فلسطين والعراق؛ يكفي ذلك، ليرى نفسه فيها بعد، ودونَ أن يدري، ذاهبا لتفقّدِ أطفاله واستدعاءِ وجوه أحبته وأصدقائه، وأسماءِ الكتبِ الجميلة التي يودُّ أن يقرأها، والشوارع التي تمنّى أن يسير فيها، والمدن التي أحبها قبل أن يراها.

روح العالم، أين تتجسد الآن؟ أين تسكن؟ وكيف تستطيع اليوم الحفاظَ على براءتها في زمنِ القتل على الهواء مباشَرة، والحفاظ على ارتفاعِها في زمن

الطائرات العمودية التي تصرُّ على أن تسوّي كلَّ شيء بالحضيض، لا بالأرض؟ أين يمكن أن تتوارى هذه الروح القابضة على سحر جمالها، جمرةً، في زمن طائرات الشبح الخفيَّة؟ وكأن العالم كان بحاجة لشياطين جددٍ بأرديتهم الفضفاضة السوداء. روح العالم، أين يمكن أن تتجولَ اليوم في زمن اصطياد الأجنّة على الحواجز العسكرية والحدود المُغلقة التي تُحوِّل حليب الأطفال إلى هدف استراتيجي لدبابات ميركافا وصواريخ توما هوك واليورانيوم المنضب وغير المنضب.

روح العالم، أين هي اليوم في زمن محاكم التفتيش الجديدة، في العصورِ التي نعيش، العصورِ التي نموت، العصورِ الأكثر حلكةً في تاريخ البشر، العصورِ العار، عصورِ القتل الجماعي على الهوية والدين ولون العيون، عصورِ العنصرية التي تتقدَّم لاقتياد شعوبٍ بأكملها، ودول بأكملها وتحويلها إلى مزارعَ عبيدٍ يعمل فيها البشرُ مقابل الحصول على رائحةِ طعامهم لا أكثر؟

***

كنت أرحل في السنوات الأخيرة بين مدينة ومدينة، وألتقي كتّابا وفنانينَ من عديد دول العالم، يجمعنا مهرجانٌ ثقافي هنا أو ندوة هناك، يجمعنا حديث عابر أو حديث طويل، وكلّما رحنا نُقَلِّبُ ذاكرتَنا باحثينَ عن شيء نبدأ به حديثنا، اكتشفنا أن الواحد منا أقرب للآخر أكثر مما كنا نتصوَّر، وأننا نعرف بعضنا أحيانا أكثر مما تصوّرنا، لأننا كنا نعرف بعضَنا بعضا بما نُحبُّ وبمن نُحِبّ.

نكتشف أننا سكان وردةٍ واحدة وحلم واحد وذائقةٍ تتلمس الضوءَ بتطلُّعها للحياة والجمال؛ نكتشف أن ما شكَّلَنا بشرًا، هو ذلك الفيض النّوراني من المبدعين الكبار، نكتشفُ قرابتَنا وأخوَّتَنا وصفاءَ أرواحنا، حين نكتشف أن هؤلاء المبدعين قد جَمَعونا طويلا، قبل أن نلتقي، ومهَّدوا لنا الدرب بجمالهم كي لا نفترق من جديد.

يبدأ الحوار فتُشرق أسماءُ جبران خليل جبران وماركيز ومارغريت دوراس وباشو وشكسبير وميشيما ونيرودا وديلان توماس وجاك بريفير وهوميروس وكزانتزاكي وويتمان ونجيب محفوظ وإدوارد سعيد وغوته وطاغور ودانتي وسواهم من آباء أرواحنا الأكثر رقّة، ونكتشف أن فانسيا ردغريف وجاك نيكلسون وإيرين باباس وأنتوني كوين، وكوبولا وفرانشيسكو روزي وفلليني وكيراساوا وتورناتوري وساتا جيت راي وسوزان ساراندون والجميل الشجاع شون بن هم رعاة جمال البشر.

نكتشف أن سينما براديسو ولاعب الشطرنج والساموراي السبعة وشبح الكلب والقطار وأسطورة 1900 وبيردي وزوربا والواشم وابنة ريان بعضٌ من أفلامٍ كثيرةٍ وحّدتنا في مشهد التمزيق الكبير لهذا العالم الصغير.

نكتشف منسوب الجمال الذي رفعه عاليا بيكاسو وموديلياني وفرانسيس بيكون وغوغان وبوتيرو في أرواحنا.

قبل أعوام قليلة كانت الشاعرة سارة ماغواير، التي ألتقيها للمرة الأولى، هنا في عمّان، وفي بيتي، حين اجتمعنا مع عدد من الأصدقاء، كانت المفاجأة الكبرى بالنسبة لنا! أن أشياء كثيرة تحبها، موجودة هنا في البيت الذي تحلّ ضيفة عليه في عمان: كانت الموسيقى الرائعة للباكستاني علي خان، وأسطوانات موسيقى الطبيعة التي تسهر الليلَ معها هناك في بيتها في لندن، كان فيلم (الرجل الإنجليزي الذي صعد تلة وهبط جبلا) وأفلام المخرج العظيم جون فرانكهايمر صاحب التحفتين السينمائيتين: (رجل الطيور في الكاتراز) و (القطار) على بُعد ذراع منها.

كل هؤلاء جعلونا نعيش في بيت واحد يتّسع لنا كلّنا، وتُغطي مساحته كوكبنا الصغير الجميل البائس.

كل شخص قابلته في هذا الدّوران بين كثير من مدن الأرض، اكتشفتُ معه بعد خمس دقائقَ الطريقة التي يمكن أن يتحوّل فيها البشر إلى أطفال

يفيضون حماسةً، واكتشفتُ أننا كم كنا مخطئين حين ظننا أننا افتقدنا براءتنا للأبد.

هؤلاء، وكثيرون مثلُهم شكّلوا أرواحنا هنا أيضا، منذ طرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى والحلاج وجلال الدين الرومي وعمر الخيّام، ومنذ ملحمة جلجامش وألف ليلة وليلة ورسالة الغفران حتى آخر روائي وشاعر وموسيقي ومبدع على هذه الأرض، أرضنا.

هؤلاء هم روح العالم، روحه التي ترفض أن يكون العالم على هيئة جلادي العالم وقوى ظلامه التي تُفرغ الحضارةَ من معنى اسمها وسموِّ هذا الاسم.

روح العالم نحن القادرين على أن نُحبَّ ما يستحقُّ الحُبَّ وما يشبهه ويسكن فيه.

**

ذات يوم سألني صديقي الروائي فاروق وادي بعد سهرة طويلة تحدثتُ فيها عن أمسيات شعرية أقمتها ولقاءات مع كثير من البشر في غير مكان في هذا العالم: لماذا لا تكتب ذلك كله؟

سنوات كثيرة مرّت على ذلك السؤال، ولكنه ظل حاضرًا وباحثا بقوة عن إجابته.

إلى أن جاءت تلك الرحلة الاستثنائية لكولومبيا، الرحلة التي عدتُ منها مبهورا وسعيدا بما رأيت.

حدّثت صديقي الدكتور فيصل درّاج كثيرا عنها، وفجأة سألني: لماذا لا تكتب عنها، ثلاثة أو أربعة مقالات. إن فيها الكثير مما يمكن أن يقال؟

ولكنني حين بدأت، كنت أعرف أنني لن أكتب مقالات عن تجربة كولومبيا، بل كتابا، وربما يعود ذلك إلى ميلي الدائم لرؤية الأشياء متّحدةً، متحاورةً، ومُكمِلا بعضُها بعضا، ومضيئا بعضُها بعضا.

وقد كنت دائما مبهورا بما تركه السفر من أثر في تجربتي الكتابية، وأكاد أقول إنه كتب معي ربع أعمالي الأدبية، من (براري الحُمّى) إلى (الأمواج البرية) إلى (مجرد 2 فقط) إلى (فضيحة الثعلب) إلى (مرايا الخريف) الذي لم يصدر بعد، إلى عشرات القصائد المتفرقة وصولا إلى هذا الكتاب نفسه!!

ولذا، فإن هذا الكتاب بقدر ما هو عن أسفار كثيرة، فإنه عن (السّفر)، وعن بشر كثيرين، إلا أنه عن (الإنسان)، وعن كتب كثيرة، إلا أنه عن (الكتابة).

إنه في النهاية جزء من سيرتي.. السيرة الطائرة!

الأشجار التي تتركها وراءك لن تتبعك

كل رحيل في البعيد
لا تكتشف به داخلا
لا يكون رحيلا

ثلاثة أيام في مدريد صحبة الكاتب العراقي الصديق عبد الهادي سعدون، كانت كافية لالتقاط الأنفاس بشكل كاف كي يستطيع المرء احتمال التّحليق عشر ساعات متواصلة فوق الأطلسي، حيث لا يبقى هنالك في الأسفل غير المياه، والعالم يتحوّل إلى رحم أزرق داكن وقد اختفى ذلك الخط الفاصل بين المحيط والسماء في ذلك السباق الغريب للطائرة مع الشمس..

وللمفارقة فإنها تسبقها.

ثلاثة أيام في مدريد لم تكن كافية لرؤية المدينة، لكنها كانت كافية لتحسّس قلبها، دافئة صبحًا، ومندفعة بحرارة طقسها الحزيرانيّ منذ الحادية عشرة حتى السابعة مساء بكامل طاقتها، محاولة منها، ربما، لبلوغ أولى نسمات المساء. لكن تلك الحرارة التي حوّلت شوارعَ المدينة إلى شاطئ! لم تترك على أجساد الصبايا سوى تلك الملابس الرقيقة المنحسرة بتقشف جمالي باهر، القطع الصغيرة الأشبه بثياب البحر.

إنها المرة الأولى في وطن لوركا وكارلوس ساورا ورفائيل البرتي وبونويل وبيكاسو.. وكل أولئك الرائعين الذين عمّروا قلبَ البشرية بأكثر من شمس. لكن دون كيشوت الذي أقصى سرفانتس - مبدعه، إلى الظلّ، وحده الأكثر حضورًا في معظم ما تقع عليه العين.

في ساحة أسبانيا (بلاثا إسبانيا) التي تصبُّ فيها أفواجُ السياح جداولَ قادمة من كل أنحاء العالم، لكي يروا دون كيشوت على حصانه يتبعه سانشو بانزا، لا تستطيع إلا أن تلمح ابتسامة سرفانتس، الذي استطاع عبر القرون أن يوقِعَنا ببراعة نادرة في ذلك الحب الذي لا ينتهي بهذا الفارس الضامر كرمح.

ثلاثة أيام في مدريد تغدو مساحة رحبة وقد تحوّلت المدينةُ إلى نقطة لقاء لكثير من الشعراء العرب والعالميين الذين كان عليهم أن يصلوا إليها وإلى غير عاصمة أوروبية للانطلاق إلى بوغوتا، ومن ثم إلى مدايين؛ ومن لم يره المرء، من هؤلاء الشعراء، في شوارع المدينة ومقاهيها، كان يمكن أن يراه في الطائرة؛ وفي رحلة طويلة كهذه لا يكون هناك ما هو أكثر من فائض الوقت..

وإلى هؤلاء، كان يمكن أن تلتقي في مدريد بعدد من المقيمين، مثل الروائي محسن الرملي والدكتور محمد الجعيدي الذين يعيشون من زمن طويل في هذه المدينة، وقد كانت فرصة رائعة أن يلتقيهم المرء ويمضي معهم كل ذلك الوقت الجميل الحافل بالأمل وطموحات إحداث فَرْقٍ جوهريّ في وضع الثقافة العربية على أرض إسبانيا.

**

يدخل معظمنا المدن خائفًا في زيارته الأولى لها، إلا أن الصديق سعدون لم يترك لهذا الخوف فرصة للتسلل إلى القلب، فقد كان دائما هناك بكرم وطيبة وأصالة استثنائية يجوبُ الشوارع معي، وكلما تحركتْ يدُهُ باتجاه شيء وتتبّعْتُ حركتَها فإنها كانت تشير إلى جمال لم يسبق لي أن رأيته. وبعد

الظهيرة كان يودّعني قاصدا عمله الذي يمتد حتى منتصف الليل. ليكون موعدنا دائما: الصباح التالي.

منذ اليوم الأول قال لي: هذه أيام (الصباح والمساء) في مدريد، لأن الشوارع في الظهيرة تغدو شبه مهجورة مع تصاعد درجات الحرارة. لكن ذلك لم يمنعني من أن أمضي الكثير من الوقت متجوّلا فيها، ودائما، كان هناك بشر، ربما، قادمون من مدن بعيدة، لا يستطيعون الامتثال لكتاب الوصايا الطبية.

كل مدينة لم أتهاوَ على مقاعدها الرَّصيفيّة متعبًا لا أستطيع القول إنني عرفتها.

تلك وصيتي لنفسي

وقد سمعت كثيرين يرددونها لأنفسهم باستمرار.

ولذلك، فإن أجمل ما يمكن أن يحدث لي أن يكون الفندق الذي سأنزل فيه واقعًا في منتصف المدينة، قلبها. وهذا ما سعيتُ إليه وظفرتُ به.

**

تحتاج صديقًا مخلصًا كي تعرف المدينة

لكنك بحاجة للتجول فيها وحيدا كي تحسّها

**

مذاقُ المدن

كمذاق الحب

دائمًا يتفتح هناك في الوحدة

**

على المقعد أجلس

بجانبي جريدة انتهى من قراءتها شخص ما

وخَلَّفها وراءه

ثمة، لم يزل فيها الكثير من العذاب
الذي لم يُقرأ جيدًا

**

الفتاة التي لم تكن ذات يوم جميلة
الفتاة التي لم يَرها من قبل أحد
وجدتْ روحَها في المهاجر الذي تتأبط ذراعه
أسمر وطويل كالرمح
ويمشي بجانبها بخجل

**

- ليتها تتركه
الفتاةُ التي تبكي
متفلّتة من بين ذراعيه
ليتها تتركه
(كانت عينا ذلك الشاب على الرصيف تهمسان)
- سأنتظرها في المنعطف هناك.
تَركَتْه
ومرَّتْ
كانت الدموع أكبر من عينيها
وهكذا، لم تره.

**

ذهبتُ إلى النومِ
كي لا أنامْ
لأحيا الحياةَ هنا بسلام.

**

في كل مدينة جديدة أحاول اكتشاف شيء جديد.

في برلين قبل أقل من عام اكتشفت الخريف، وفي مدريد اكتشفت صيف الشجر.

في كل شارع هناك أشجار مختلفة، للوهلة الأولى تظن أنك ستلقاها في شارع آخر ولكن عبثا.

على جذع شجرة ضخمة رسم العشاق سجادة الحبّ بطريقة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، كنا نسير مسرعَيْن نحو السفارة الكولومبية، تأمّلتُ الشجرة وقلت: سأراها هناك، لا بدَّ، ثانيةً، في مكان آخر، وبعد أيام اكتشفتُ أن الشجرَ كالبشر، حين تُضيِّع الفرصة الأولى للقائك بهم.. حين تترك أحدهم خلفك، قد لا تعثر عليه، ثانية، أمامك.

كان الجذع الكبير قد تحوّل إلى جدارية تغمرها الحروف الصغيرة والإشارات. أشبه ما يكون بحائط أحد الكهوف القديمة، تعطيه تدرّجات اللون البني واللون الأخضر إحساسًا بالقداسة مثل صفحة من كتاب قديم، كل شيء سُجِّل هنا، وتداخلت الأحلامُ بالوقائع، الحروفُ بالأرقام، ولوهلة بدا لي أن أيّا من تلك الرموز التي خطتها يد عاشق أو يد عاشقة لم تحاول أبدًا أن تجرحَ فضاء حرف آخرَ أو اسم مجاور، كلها تجمَّعَتْ برفق جوار بعضها بعضا مطمئنةً هادئةً حينًا وغائرة حينًا، واثقةً حينًا ومرتبكةً حينا، لكنها قابلة بهذا التجاور فوق ذلك الجذع العريض الذي بدا حارسا أبديًّا لكلمة واحدة هي الحب.

لم أكن أحمل آلة التصوير، لأنني كنت أدركُ أن ثمة أجهزة لا يُرَحَّبُ بها كثيرًا على أبواب السفارات. لكنني اكتشفتُ كم كنت مخطئًا!!

ولهذا حكاية أخرى!!

قلت: سأجدُ الشجرة، هذه الشجرة في مكان آخر، وسألتقط لها ما شئتُ من الصور. قلتُ: سأحملها معي محتضنا كل تلك الأرواح الهائمة فيها، الأرواح التي مرَّت وتركتْ وراءها أبسط وأبرأ ما يدلُّ عليها وسارت في طريقها، الأرواح التي قد لا تجد بعد سنوات سوى تلك العلامات التي تؤكد أنها كانت هنا..

(مثلي تماما، وأنا أكتب هذه الكلمات!)

لكنَّ يومًا آخر من البحث أثبت لي أيضا:

أن الأشجار التي تتركها وراءك لن تتبعك.

أن الأشجار التي تتركها وراءك لا يعيدها إليك سوى رجوعك إليها.

.. وربما تكون مثل هذه الأسباب كافية كي يعود المرء ثانية لمدينة، حتى لو كانت بعيدة إلى هذا الحدّ.

**

ذات يوم في أواسط الثمانينات وصلت (وادي الْوالَة) جنوبي مدينة مادبا، كانت المسافة التي قطعتها خمسة وسبعين كيلو مترا باحثا عن سمكات لن يبلغ طول أكبرها الخمسة عشر سنتمترًا. وفجأة التمعَ في عينيَّ وميضُ ذلك الجذع المقطوع، جذع شجرة كبيرة انهال عليه فأس وفتته، وانبثق كشمس، كما لو أن الشجرة تريد أن تقول إنها كانت أجمل من أن تُقطَع.

أصابني هذا الحس بقوة بعد سنوات طويلة حين رأيتُ صورة الطفلة الفلسطينية الشهيدة ابنة الأربعة أشهر (إيمان حجو) كانت في موتها أجمل من أن تموت أيضًا، فكتبت سيرتها المتخيلة في ديوان كامل (مرايا الملائكة).

تأملت الشجرة لحظة، وأدركتُ أن عليَّ أن أحفظ وصيتها، وهكذا عدت إلى عمان ثانية، حملتُ الكاميرا وكلي خوف من أن أعود إليها فلا أجدها هناك.

لكنني وجدتها.

وبعد سنوات، ربما عشر، كانت هذه الشجرة واحدة من حكايات ذلك المعرض الفوتوغرافي الذي أقمته في (دارة الفنون) بعمّان، وكان اسمه (مَشاهِد من سيرة عين).

لم أكن أعرف ما الذي كنت سأفتقده تماما لو لم أصوِّر تلك الشجرة في ذلك الوقت، لم أكن أعرف ما سأفتقده إلى أن رأيت هذه الشجرة وتركتها ورائي.

ذات يوم سأعود إليها
سيكون ثمة عشاقٌ قد سكنوها
سأعود إليها مطمئنا
لأن أيّا من أولئك الذين سكنوها ذاتَ يوم
لن يغادرها أبدًا

**

في مدريد انشغلت بأشجار أخرى، أشجار حدائق عملاقة مهجورة لم يدوِّن عليها فتى اسمَ حبيبته
أو تُدوِّن عليها حبيبةٌ اسمَ فتاها
أشجارٌ تَسْتَبْدِلُ لحاءها في كل موسم
كما لو أنها النسيان
أشجار لا يمكن الوثوق بها

وفي مدريد، انشغلتُ بأشجار أخرى من بقايا غابة لا تسمح للصغار بتسلُّقِها وقد تخفَّفَتْ من كل أغصانها القريبة من الأرض، كما لو أن تلك الأغصان هي السبب الوحيد الذي يحوْلُ بينها وبين الطيران!!

أشجار راحتْ تعلو وتعلو، فلم تعد قادرة على العودة ثانية إلى الأرض، أو الوصول إلى ما تريد هنالك في السماء!!

**

وحده العشب الأخضر استطاع الأخذ بثأره

وحده العشب الأخضر الذي كم راقبتْهُ الأشجارُ شامتةً

وهو يُداس بأقدام العابرين

وحده العشب الأخضر كان أكثر اخضرارًا وقد استلْقَتْ تلك الصبية فوقه تاركة ظهرها للشمس وصدرها العاري له، غير عابئة بشيء وقد توحَّدَ وهج ذلك الجسد البرونزي المشدود مع وهج الخضرة، مما جعلني أهمس صارخًا أينك رامبرانت!!

سرتُ مترنحًا وأنا أرى وهج الحديقة أمامي

الحديقة التي تحوّلت إلى رحم أبدي لتلك اللحظة الفاتنة.

ليت الإقامة في لحظة مثل هذه ممكنة كالإقامة في المكان.

**

الحياة تسير هادئة في مدريد، كلٌّ يستطيع العثور على مكانه الأقرب للقلب، كل يستطيع العثور على ضياعه الذي يريد غير عابئ بشيء سوى ما جاء من أجله، ما حلُمَ به، ويريحك كثيرا أن ملامحك تختلط بسهولة ببحر الملامح المائج الذي يعبر الشوارعَ من كل الأجناس، يحيِّرك أن شبهك بالآخرين شيء يدعو للاطمئنان، يحيرك، أنت الذي لا تكف عن تقمص النهر ووصاياه وهو يقول لك:

اختلفْ وكن أنت.

وتقول لنفسك: لا تستحم بالمدينة الواحدة مرتين.

يحيرك أن دخولك هذه الكتلة الهائلة من البشر، وتحوّلك إلى خلية فيها يجعلك تسير عبر شوارعها بحرية أكبر، تستقل قطاراتها الأرضية بحرية أكبر، وتجلس في أي مقهى تريد بحرية أكبر

في مدن أخرى يغدو اختلافكَ لعنة، حيث ملامحك العربية تتحوّل إلى لائحة اتهام بمجرد إلقاء النظرة الأولى عليك، أو تحوِّلك إلى كائن غير مرئي

أمام النادل الذي طلبتَ منه بلطف استثنائي كـوب عـصير أكثـر مـن خمـس مرات، ويكون عليك بالتالي أن تذهب وتشتريه من أي سوبرماركت قريـب وتتجرعه بمرارة على مقعد الرصيف.

كنت في مدريد، لكنني اكتشفتُ أنني في برلين!!

قاعة الصمت

المدن الجديدةُ تعلِّمني الكتابة

المدن الجديدة

حبٌّ أول

بعد شهر من زيارتي لفرانكفورت للمشاركة في نشاطات معرض الكتاب فيها بمناسبة اختيار العالم العربي ضيف شرف، كان عليَّ أن أعود ثانية إلى برلين، هذه المدينة التي تسكن الذاكرة بقوة كما لا تسكنها أي مدينة أخرى.

دخلتُ برلين مفتشًا عن بقايا ذلك الجدار الذي شطر قلبها لسنوات وسنوات، ومن المفارقة أن موعد محاضرتي كان في الذكرى الخامسة عشرة لسقوطه.

أتيت برلين لأقدم دراستين عن الروائي عبد الرحمن منيف والروائي غالب هلسا، ولستُ أدري سبب اختيارهم لي، بخاصة أنني لم أكن ناقدًا أدبيًا في أي يوم، ولكنني اعتبرتُ تلبية طلب الجهة المنظمة واجبًا أخلاقيًا وتحيّة لكاتبين كبيرين راحلين أحبهما، عرفتُ الأول منهما بصورة طيبة في حين لم تسنح لي الفرصة لمعرفة الثاني.

قبل نصف ساعة من موعد اللقاء في متحف Vorderasiatisches الذي يقع ضمن (جزيرة المتاحف) التي صنفتها اليونيسكو كواحدة من أبرز معالم الإرث الثقافي للإنسانية، انتابني ذلك الشعور بأن الأمسية لن تنجح، تأمّلتُ هذا العدد الكبير من الكراسي، تأملتُ المنصة التي هيئت أمام (بوابة عشتار) العظيمة التي يضمّها المتحف؛ بدا الأمر لي خليطا غريبا من ماض وحاضر يلتقيان هنا وسط هذا الطقس الخريفي الذي يتساقط فيه القتلى كما تتساقط فيه أوراق الشجر، وبالبساطة الباردة ذاتها.

كان أكثر ما يقلقني أن يفشل اللقاء، ولذلك انشغلتُ بأجزاء المتحف القريبة، تجوَّلت في الصين القديمة، الهند، العراق، إلى أن وجدت نفسي أمام واجهة قصر المشتّى.

لسنوات طويلة كنت أعتقدُ أنها واجهة صغيرة لا غير إلى أن رأيتها. لم يكن الأمر أقل من صدمة، وقد هالني كيف تم نقل هذه الواجهة العملاقة حجرًا حجرًا إلى هنا، حيث يبلغ طولها 33 مترا بارتفاع خمسة أمتار، هالني أن أثرا عظيمًا كهذا قد تحوّل إلى هدية كان السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين قدمها هدية للقيصر الألماني فيلهام الثاني خلال بناء سكة حديد برلين بغداد.

حينما عدتُ لموقع اللقاء كان الأمر مختلفًا، إذ رأيتُ أعدادا لا بأس بها من الناس قد حضرتْ، معظمهم من الألمان، وبعد ربع ساعة لم يعد هنالك كرسيّ فارغ..

التفتُّ إلى الصديقة الألمانية هايدي غنسمان منسقة هذا النشاط فوجدتها سعيدة ولم أكن أقلّ سعادة بسعادتها تلك.

إنه واحد من اللقاءات الرائعة التي أحسستُ فيها برغبة الناس في الإنصات والتعرّف على كاتبين عربيين وتذوّق نصوصهما التي تُرجم جزءٌ منها خصيصا.

حين انتهينا، بعد ساعتين واستراحة في منتصفها، شدَّتْ مديرة المتحف على يدي بحرارة بالغة وقالت لي: سنراك العام المقبل.

لكن الأمر لم يكن ممكنا في ذلك الموعد بسبب السفر إلى كولومبيا.

**

في برلين اختلطت الأشياء، وانتابتني تلك الأحاسيس المتضاربة دفعة واحدة، فمن جهة: جمال المدينة وأجواء خريفها. ومن جهة: إيقاع تاريخها الصاخب في داخلي. ودائما أكون أكثر رهبة وخشوعًا في المدن التي تحمل تاريخا ثقيلا. ومن جهة: تلك الدراما الكبرى التي تمثَّلت في الأيام الأخيرة لياسر عرفات وصراعه مع الموت في ذلك المستشفى الباريسي، وكل تلك التكهنات التي أحاطت بسبب مرضه واحتمالات نجاته من عدمها.

كنت أتابع أخباره ومصيره وكل تلك التقارير التي تبثّها محطاتُ التلفزيون عنه بالألمانية، وقد غدا نقطة الاهتمام الرئيسة في العالم كله وأستعيد كلمة شارون لبوش في ذلك الحوار الغريب.

بوش: دعه، إنه مريض وسيأخذ الله روحه.

شارون: ولكن الله بحاجة إلى المساعدة أحيانًا!!

**

انتهاء اللقاء الأدبي على تلك الصورة الجميلة جعلني أكثر تحرُّرًا، وعادة ما أحس بذلك فور انتهائي من تقديم ما عليَّ تقديمه، أتنفّس وأحسُّ بأن الوقت قد آنَ للعودة إلى نفسي. وهذا ما حدث.

كنت قررتُ تمديد زيارتي ثلاثة أيام أخرى، ثلاثة أيام لي أتجول في شوارع المدينة ومعالمها الثقافية والتاريخية، ورؤية القليل من الناس مثل الدكتورة أنجليكا نويفيرت في جامعة برلين الحرّة، الدكتور غونتر أورت، وميخائيل ماركس، لبلي الشمّاع والفلسطينية الألمانية سميرة هنيني التي تعدُّ رسالة ماجستير عن روايتي (طيور الحذر) في جامعة إنلكو بباريس.

كنت محظوظا بذلك الفندق البسيط الجميل (سورات) وموقعه الاستراتيجي القريب من قلب المدينة، مما أتاح لي التنقّل بجرأة أكبر. أما الحدث الأهم فهو تمكُّني من إدراك اتجاهات مدينة برلين؛ وأما الأهمُّ فهو إدراكي لحركة التنقل في المترو، وهي المرة الأولى التي أستطيع فيها ذلك!!

بمجرد أن تحررتُ، بدأت أرى ما لم أره من قبل في هذه المدينة الساحرة، المدينة التي أحسست بأنها واحدة من المدن القليلة التي أتمنى العيش فيها. ولم يكن هناك، في لحظتي الخاصة تلك، ما هو أكثر حضورًا وقوة من الخريف، الخريف في برلين، الخريف الذي أثار في داخلي خريفي الخاص، رغم ما أحاول إبداءه من ربيع! خريفي الذي كان يُعلن أنني بالغ الخمسين بعد أيام.

في الأيام الثلاثة الباقية بذلتُ الكثير من الجهد كي ألتقي كل هؤلاء خارج الخريف، بعد أن أصبحتُ فجأة أسيرًا لتلك الحالة المُسَيْطِرَة التي التقتْ فيها درجة الحرارة اللازمة للكتابة وذلك الحس الوجودي بمعنى الخريف فيَّ وفيما أراه. وهكذا وجدت نفسي غارقا في طقوس كتابة غريبة.

أقف وأكتب على أحد الأرصفة، تحت مظلتي التي تحميني من ذلك المطر الخفيف:

وحدهم الذين عاشوا ربيعهم

يتأمّلون الخريف

بابتسامة.

ولكي أعرف إن كنت من هؤلاء أم لا وجدتُ نفسي أواصل الكتابة بلا توقف، لعلي أعرف موقعي بين هؤلاء المبتسمين! بغزارة راحت القصائد تتدفق، غزارة تفوق غزارة ماء تلك السماء التي تتهيأ لدخول الشتاء بهذه الرقة الكئيبة!

الخريفُ هنا مثل سبعِ كؤوسٍ نبيذيّةٍ

يعِدُ القلبَ بالحبِّ

يمشي كطفلٍ سعيد أمام الشيوخِ

يُشيرُ إلى أولِ الغيم

يركضُ نحو المطرْ

الخريفُ سقوطٌ بريءٌ

تسلّقَ هذا الشّجر

تجولتُ في الشوارع مع الخريف، مضيت للمتاحف، عبرت بوابة (براندنبورج) مع الخريف، قرأت بعض قصائدي في جامعة برلين الحرة مع الخريف وتناقشت مع الطلبة ثلاث ساعات، وكتبت عن تلك الطالبة المصرية التي وجدتها واقعة في حب مجموعتي الشعرية (حطب أخضر):

سوف ينتهي ربيعي

قالت لي باكية

سوف ينتهي

ولم يكتب لي شاعرٌ قصيدةً

مثل واحدة من هذه القصائد الكثيرة التي أحبها

وصلتُ إلى ما تبقّى من جدار برلين التقطتُ صورة أمامه، من كان يظن أن جدارًا بهذا الهُزال سيعيش إلى هذا الحد، وسيشهد موت وعذابات عشرات الآلاف من البشر.

الجدار تساقطَ

هذا

ربيع

الأمم

إنها واحدة من المرات النادرة أيضًا التي أكتبُ فيها أثناء السفر، إنها المرة الثانية، كتبتُ في الشارع، في المترو، في المطعم في الحديقة.

كتبت صبحًا، في الظهيرة، عصرًا، مساء وفي الثالثة فجرًا: أصحو، تمتدُّ يدي للقلم والورقة وفي العتمة أدوِّن ما كتبته أثناء نومي!! أعود للنوم، وبعد دقائق أو ساعات أصحو من جديد وأدوّن ما كتبت:

رفعتُ الحياة إلى أوجها
وتبعتُ الطيورَ وطاوعتُ شمسي
وذوّبتُ قلبي بماء صباكِ
تشرّبتُ كأسي
لألقاكِ يوم غدٍ
ههناك، ولو صدفةً، في شوارع أمسي!!
ولم يُجدِ هذا.. الذي كنتُ أدعوه في السّرِّ عُرسي
وفي الجَهْر عرسي
...
كان لا بدَّ لي من خريفٍ طويل.. لأبلُغَ نفسي

وكتبتُ وقد اشتدّ المطر:

يُذَكِّرُني الماءُ بالماءِ
لا بالخريفِ ولا بالربيعِ
ولا بالسّحابِ.. ولا بالرياحْ
... ...
بوجهكِ عندَ الصباحْ!!

في برلين، بدا لي فجأة أن كلّي خريف، وإلاّ من أين تنبع هذه القصائد التي ستُشكل ديوانا كاملا في النهاية، الديوان الذي سأواصل كتابته بعد عودتي وأختتمه بهذه القصيدة:

لا تردَّ السلامَ على أحد لا يحبّ الخريفَ

ولا ينحني لنُحولِ الشجرْ
لا تردَّ السلام على أحد لا يحبّ الخريفَ
الخريفُ بشرْ

**

" إن الفكرة لوجود قاعة الصمت لجميع الناس، بدأتْ بعد الانفتاح مباشرة في برلين، ويرجع إنشاء هذه القاعة حسب رأي (جماعة التصعيد) التي أنشأتها إلى سببين:

أولهما هو حق جميع الناس مهما كانوا، ودون تمييز لشكلهم أو لونهم أو اتجاههم أو دينهم أو حالتهم البدنية أن يأتوا لهذا المكان لكي يبتعدوا عن ضجيج المدينة للاسترخاء وإعادة نشاطهم من متاعب الحياة اليومية، ولكي يستمتعوا بهذا المكان التاريخي رغم زمنه الأسود..

والسبب الثاني: هو طلب التسامح ما بين الناس والأخوة ما بين الأوطان وليكن هذا إنذارا لأعداء الأجانب والغرباء وخطوة جديدة للسلام والاتحاد ما بين الشعوب".

حين وصلتُ إلى (قاعة الصمت) صحبة ميخائيل ماركس المدرس في جامعة برلين الحرة الذي قرأ قصائدي بالألمانية في واحدة من أمسيات فرانكفورت، اكتشفتُ أنني طوال اليومين الأخيرين لم أصمت، وبعد دقائق من الصمت وجدت نفسي لم أزل أثرثر بقوة، فخلفي هناك يواصل الإسرائيليون بناء جدار سيبلغ طوله سبعمائة كيلو متر، ممزقًا الأرض والسماء وحياة البشر، قرى كثيرة ومدنا كثيرة، ممزقا بيوتا وهو يحيلها إلى نصفين وملاعب مدارس وهو يمرُّ من وسطها وطرقا تقود للمستشفيات وأخرى للمدارس والجامعات وأخرى كانت تصل الحبيب بحبيبته والأم بابنها وابنتها؛ وتذكَّرتُ تلك المرأة التي تجلس كلَّ يوم من الساعة السادسة والنصف صباحًا حتى الواحدة ظهرًا، فوق تلك التلة تحت المطر، تنتظر ابنتها على الجانب الآخر من الجدار الفاصل كي ترافقها إلى البيت بعد

خروجها من مدرستها التي أصبحت، غير آمنة، على الجانب الآخر من الجدار. المرأة التي اتخذتْ ذلك القرار الجريء (ستُكمل البنتُ تعليمها رغم كل الظروف)، المرأة التي رأت أن كثيرا من الأهل قد توقّفوا عن إرسال بناتهم للمدارس أمام ارتفاع الجدار وضيق بواباته وعجرفة الجنود وتلذذهم بإذلال الطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات في رحلة الموت اليومية تلك من أجل مواصلة التعليم.

**

خرجت من (قاعة الصمت) الصغيرة للعالم الكبير فرحا بالمبادئ الكبرى التي كُتبتْ وتُرجمتْ إلى كل اللغات بما فيها العربية، لكن وطأة الخريف على كتفي لم تكن أقل!

صباحًا، في المطعم، حيث شمسُ تشرين ثاني تجد طريقها بصعوبة نحو طرف الطاولة الملتصقة بالزجاج كان هذا المشهد:

السيدة الستينية الجالسة إلى جانبي

لم تكن قد أتتْ إلا لشيء واحد: أن تتناول الفطور.

الحاجز الخشبي الصغير الذي يعلوه بعض الزجاج الضبابي كان كافيًا لأن يفصل بيننا تمامًا. لكنها حينما انتبهت لوجودي فجأة، سحبتْ كرسيّها وراحت تلتصق بالطاولة أكثر فأكثر!! لكي أكون بعيدا عن نظرها وبعيدة عن نظري، كما لو أنها تحتمي بالزجاج!!

لكن جزءا ضئيلا من ظهرها كان يظهر ويختفي بين لحظة وأخرى.

قلتُ: هنيئًا لك بطعامك البارد والحاجز الخشبي الذي يعلوه الزجاج الضبابي وشبح العزلة الذي يذرع المكان

...

أما الصَّبِيَّةُ السمراء التي تشبهني كثيرًا

فقد أحستْ على أيّ درجة من الحماقة كانت

حين ألقتْ عليَّ تحية الصباح!!
ولذا، لم يكن هنالكَ ما تفعله
سوى أن تبحثَ بعينيها عن طاولة بعيدة
مُخَلِّفَةً وراءها تهمةَ وجود اثنين بلون واحد في مكان لا يشبههما!
التهمة التي تكفي لاقتيادهما بعيدًا
بحجة تأسيس منظمة إرهابية!!

**

في الطائرة حدثَ معي هذا أيضًا، فالرَّاكب ذو الملامح العربية واللسان العربي الجالس إلى جانبي، تجاوز بشجاعة!! كلّ الفرص المتوافرة لطرح سؤال، أو بداية حديث؛ ولكي لا أغادر الطائرة أكثر حزنا قلتُ: لعلّه واحد من رجال الأمن فيها.

إلى أن تذكّرتُ أن خمس ساعات مرّت دون أن أسمع كلاما بالعربية، رغم أن الطائرة تغصُّ بالعرب، فأجواء (الأخ الأكبر) وكاميراته، حتى وإن لم تكن موجودة في الطائرة، فإن المسافرين أتوا بها معهم وزرعوها هنالك تحت جلودهم بإتقان.

**

هاهنا يتحول شبيهك إلى (آخر)
فما الذي يمكن أن يتحوَّل إليه (الآخر) نفسه؟

**

على طرف المقعد الطويل جلستُ بانتظار المترو
حين جاء ذلك الرجل اختار الطرف البعيد المقابلَ!!
مرَّ وقت طويل
ولم يجلس بيننا أحدْ
إلى أن أتى

ذلك الأعمى!!

وتذكَّرتُ ذلك المشهد المُفزع في الفيلم القصير الذي أُنتج ضمن سلسلة أفلام عنوانها (منطقة الشفق) في الثمانينات من القرن الماضي. كان اسم الفيلم (الرجل اللامرئي) وقد كان عقابه، بسبب لا مبالاته بالآخرين، تلك العلامة التي حُفِرَتْ عميقًا في جبهته كي يتعامل معه البشر باعتباره غير مرئي، إلى أن أتى ذلك الرجل الأعمى وجلس قبالته، بدأ الحديث معه، ففرح الرجل اللامرئي لأنه وجد أخيرًا مَنْ يحدِّثه، إلى أن تقدَمتْ فتاةٌ صغيرة من بعيد وهمستْ في أذن الأعمى (إنه لا مرئي). وعند ذلك يقف الرجل الأعمى صارخًا، مبتعدًا بعصاه المتعثرة (عليك اللعنة.. عليك اللعنة).

يتخيّل المرء، وهو يكتب هذه الكلمات أن يكون في لندن هذه الأيام، في أجواء تفجيرات محطات الأنفاق. سيكون عليه أن يسير كما لو أنه الأعمى الوحيد وحوله كل تلك العيون، عيون البنادق التي يمكن أن تنبثق فجأة من الجحيم وتلصق وجهه بالأرض لتنهال عليه الطلقات، لا اللعنات، مثل ذلك الشاب ذي الملامح الشرق أوسطية، الشاب الأليف القادم من البرازيل، والذي لم يعرف ما يدور في ذلك المشهد الكافكاوي المرفوع إلى قمة الرعب بما يليق بهذا القرن الملطخ بكل أسباب الدم، الشاب البرازيلي الذي لم يُتح له أن يسأل ما الذي يحدث؟ حينما وجد رجال الأمن المدججين بالأسلحة يركضون خلفه، ويطرحونه أرضًا ويقتلونه بدم فائر في عملية إعدام عبثية أو فصل من فصول كتاب ما بعد الرعب.

**

أسير في الشوارع وحيدا

أقع في حب كل ما أتأمله

أحاول استدعاء الربيع لكنني لا أستطيع

فأكتب:

كأنه خريف السماء

لم يعد تحتها رحمة!

**

أرسلتُ لأحد الأساتذة من عمان ليلة سفري لمدريد رسالة إلكترونية، أضع فيها رقم هاتف الفندق الذي سأنزل فيه. عند الظهر أخبرني موظف الاستقبال أن هناك من اتصل بي. أهاتفه. نلتقي بعد ساعتين، يقول لي: كنت أبحث عنك في عمان وها أنا أعثر عليك في مدريد.

قلت: ليس هنالك ما هو أسهل من العثور عليّ في عمان.

قال: لا أظن ذلك.

وحين سألته مستغربا: لماذا؟

قال لي: لم أستطع الوصول إلى رقم هاتفك. لم يقل لي أحد أين أجدك.

سألته: ومن رأيتَ في عمان؟

فراح يعدد لي أسماء بعض الأصدقاء.

قلت: ها أنا أتحوّل إلى (آخر) أيضا في المكان الذي أعيش فيه، وفي الأصدقاء.

وحدثته عن زيارتي لبرلين والطائرة والمقعد في محطة القطارات وسألته هل تحوّل البشر إلى عُمْي أم إلى لا مرئيين؟ وما الدّور الذي يمكن أن نقوم به دون أن نخون أنفسنا؟!!!

الضياع العَذْب

كلما اقتفيتَ خطاك

في المدن التي تدخلها للمرة الأولى

عثرتَ على شيء فيك

لم تكن اهتديتَ إليه في المدن التي وراءك

السابعة والنصف صباحًا، وقت مثالي هذه الأيام لتحسس ضوء الشمس في مدريد وعلاقته بكل الأشياء التي يقع عليها، وقت مثالي لتأمل الظلّ والاستمتاع بهواء مختلف، هواء طيب.

تجولتُ في الشوارع المحيطة بالفندق، الكاميرا في يدي، التقطتُ عددًا من الصّور، تنقلتُ بين الأرصفة مُلاحِقًا كل مشهد تلمحه العينُ من بعيد وتحلم بامتلاكه دائمًا.

مدريد غنية في الصباح، مثلها في الظهيرة، مثلها في المساء، وهناك باستمرار ما يمكن أن يملأ العين بألفته وفيض جماله.

قبل موعدي بربع ساعة، كان عليَّ أن أنتزع نفسي بقوة من هذا الجري خلف المشاهد الجميلة التي لا تنتهي، المشاهد النّداهة التي لا تكفّ عن دعوتك للحاق بها كما لو أنها تجري أمامك وأنت تحاول إدراكها.

ذاتَ يوم حدثَ هذا في مدينة أخرى، حيث اكتشفت بأنني أوغلتُ في المشهد حتى ضعتُ فيه، وحين فقدت الأمل في العثورِ على طريق العودة، بعد محاولات كثيرة، كان أبسط الحلول أن أوقفَ سيارة تكسي وأحددَ العنوانَ للسائق.

للحظات نظرَ السائق إليَّ باستغراب، لكنني لم أفهم تلك النظرة، فما الغريب في أن توقف سيارة أجرة وتطلب من السائق أن يقلك للمكان الذي تنزل فيه؟!

بعد أقل من دقيقتين توقَّفت السيارةُ أمام الفندق، وعندها فقط، أدركتُ ما تعنيه تلك النظرة. لقد ضعتُ في المكان الذي أنا فيه، لكن من قال أننا بحاجة دائما لمكان واسع كي نضيع؟!!

أدركتُ أنني أُخِذْتُ بالمكان إلى ذلك الحد الذي أضعتُ فيه بوصلتي.

بعد سنوات كتبتُ:

متتبعًا خطى ظلِّه

وحذرًا كغريب

هكذا كانَ يسير لكنَّه فجأةً ضاع

غيمةٌ سوداء

سرقتِ الصَّبي

وربما كان عليَّ أن أكتب (غيمة بيضاء سرقت الصبي) لولا أن القصيدة كانت تستدعي ضياعا من نوع آخر..

**

والضياع مختلف دائمًا.

كم تود أن تضيع فيما لا تعرفه، وتحبه، لتكتشفه وتكتشف نفسك.

كم تخشى السير في طريق آخر تعرفه، وتعرف هدفك الصغير فيه تماما، لكنك لا تجرؤ على السير فيه وحيدًا.

تحتاج لغة روحك الخاصة كي تضيع كما تُحب
وتخشى افتقادك للغات حين تذهب لضياع تخشاه

من بعيد أقبل العزيز عبد الهادي، مشرقًا بابتسامته كعادته، ومندفعًا.

نادرون هم أولئك الذين يكون العطاء أحد متعهم الخاصة.

لم تكن السفارة الكولومبية بعيدة، محطتان لا أكثر، لكن كان علينا أن نكون أكثر اندفاعا في سيرنا كي لا نُضَيِّعَ أي دقيقة، فالوقت ضيق، وبالأمس كان على بعض الشعراء أن يُسلِّموا جوازات سفرهم في الصباح ويعودوا لها في الرابعة من بعد الظهر لاستلامها ممهورة بتأشيرات الدخول إلى كولومبيا.

في شارع هادئ تقع السفارة، أمام بوابتها مجموعة صغيرة من الناس، ورجل يُقَدِّم الخدمات الطارئة لطالبي الحصول على التأشيرات بطريقة تثير الإعجاب، فما أن يعرف أنك بحاجة لصور صفحات من جواز سفرك حتى يجرَّ لسان سحّاب حقيبته الصغيرة ويدس جواز سفرك داخلها، وبعد لحظة يناولك الجواز وصورته كما لو أنه ساحر. وحين تسترق النظر لداخل الحقيبة تكتشف أن هناك ناسخة ضوئية تعمل بالبطارية وتقوم بما تقوم به أكبر الناسخات بكفاءة نادرة.

لكن دخول السفارات أمر مربك دائمًا، كدخول أي دائرة رسمية، ويزيد من وطأة هذا الإحساس ذلك القلق الذي لا تستطيع أن تُقصيه بعيدا ما دمت طالب حاجة، في مدينة لا تعرفها، في طريقك لبلد لم يسبق لك أن كنت فيه.

لكن ذلك كله يتلاشى رويدا رويدا، فالسفارة أشبه ما تكون بفيلّا أنيقة محاطة بالأشجار والزهور، والمسافة بين قاعة الانتظار الرئيسة والشارع لا تزيد عن ثلاثة أمتار، وليس ثمة مظاهر مسلحة تزرع الخوف في قلوب الذين يقصدون السفارات عادة، وحتى رجل البوليس الوحيد الضخم، كان يتمتع بملامح طِفْلِيَّة وهو يبذل الكثير من الجهد كي يبدو عابسا وهو

ينبه أحد المراجعين إلى ضرورة قطع المكالمة الهاتفية وإقفال هاتفة الخلوي قبل الدخول لمبنى السفارة.

ها هنا، وأمام هذه البوابة، تبدأ بتلمس شيء جديد يختلف عن تلك الصورة النمطية التي يروجها الإعلام عادة عن بلدان هذا العالم، الصورة التي تبدأ بالتحوّل لحقائق لا تُدحض لفرط ترديدها. وكولومبيا كانت واحدة من أكثر البلاد عرضة لهذه النمطية، فهي (بلاد المخدرات والعصابات والاختطافات والمافيا)، إلى ذلك الحد الذي يجعلنا ننسى، وقد عُممت هذه الصورة، أن ماركيز من هناك وشاكيرا أيضًا!!

لكن الدهشة ستتسع أكثر بمجرد الوصول إلى المدخل، فهناك أمام موظفة الاستقبال مطويات أنيقة لمعرض تشكيلي، أمد يدي، أتناول إحداها، وعلى الصفحة الأولى أقرأ اسم ليليانا فيرغارا والعنوان الجميل لمعرضها (ذاكرة الأشياء الخفية).

وفي الصور الملونة الثلاث ألمح بوضوح تلك الملامس الترابية الخشنة والألوان والرموز القادمة من منمنمات ثقافة السكان الأصليين لأمريكا الجنوبية، وأولئك الشخوص الذين يحتلوّن قلب اللوحة بشفافية تتطلب تأملا غير كبير لالتقاط ملامحهم.

أهمس لعبد الهادي: جميل أن تضع سفارة مطبوعات معارض فناني البلد الذي تنتمي إليه على طاولة الاستقبال فيها!

فيهمس: ولكن المعرض في السفارة نفسها!

- في السفارة نفسها؟!

بعد خمس خطوات تجد نفسك في قاعة الانتظار وحولك الأعمال الفنية للمعرض، حيث بإمكانك أن تمضي الوقت في تأملها عن قرب بعيدا عن شبح الخوف والترقب الذي يخيم عادة في قاعات الانتظار في السفارات والدوائر الأمنية ذات هذا المستوى الرفيع!

لست أدري من هو صاحب هذه الفكرة الرائعة، ولكنه شخص مختلف بالتأكيد، ويزداد الإعجاب به أكثر حين تعرف أن المعرض مفتوح للناس، وباستطاعة أي شخص أن يأتي للسفارة، ليشاهد المعرض فقط ويمضي في طريقه، وليس ثمة ضرورة هنا للقول بأنهم يتعاملون مع القادم للحصول على التأشيرة باليسر نفسه الذي يتعاملون فيه مع القادم لمشاهدة لوحات المعرض.

ستظل مفتونا بهذه الفكرة الرائعة دون أن تجرؤ على المطالبة بتعميمها على سفارات العالم العربي في الخارج أو الداخل. وبخاصة حين تتذكر الطريقة (اللائقة) التي يفاجئك فيها بعض موظفي المطارات المدنيين الذين يتصرفون بعقلية رجل أمن غير مهذب.

حين كنتُ أغادر قبل أشهر متجها إلى روما ومنها إلى نابولي، ارتبكتْ حركة الطيران فجأة بسبب الضباب الذي خيم على مدرجات مطار عمّان، وفي القاعات تحوّل الأمر إلى كارثة، وبين حين وآخر يسمع المرء صيحات المسافرين والإعلانات المتلاحقة عن تأخر إقلاع طائرة فرانكفورت، القاهرة، روما، الرياض، مدريد، ولأنني أدركتُ أنني، لا بد، سأفقد طائرة نابولي، فقد حاولتُ العثور على هاتف في المطار لأتصل بالبيت ليتصل بدوره بمن سيستقبلني هناك، وحين يتفضل أحد الموظفين أخيرا بالسماح لي باستخدام الهاتف في مكتبه، يدخل مسؤوله وهو يصرخ بطريقة (لائقة) : وشو اللي بعملوا (هذا) هان!!

وحين أعود من السفر محاولا تناسي تلك الجملة، وأتجه للسوق الحرة كالعادة، يقطع الموظف الجالس خلف الطاولة الصغيرة الطريق عليَّ في ذلك الممرّ الضيق بسؤاله المتجهِّم كملامحه: على وين؟!!

- السوق الحرة.

- وحضرتك ما بتعرف إنه في سوق حرّة تحت؟

- حضرتي بعرف، لكن عمره ما كان في مشكلة إني أشتري من اللي تحت أو من اللي فوق.

يتأملني للحظة، ثم يقول لي: طيّب! اتفضل إذا كنت حابب تشتري من هون.

- لا. شكرًا

- ما بدي أشتري لا من هون ولا من هناك.

بالطبع، كلنا نعرف أن التعليمات تدعو لاستقبال القادمين والمغادرين بابتسامة وتوديعهم بابتسامة، لكن يبدو أن الحكومات العربية عموما، حين توزِّع هذه التعليمات تنسى أن توزع معها الابتسامات التي سيضطر رجال الأمن إلى استخدامها على بوابات هذه الأوطان.

**

نصف الساعة الذي أمضيناه في القاعة كان كافيًا لمحو ذلك الإحساس الدائم الذي ينتاب (المراجعين)، الإحساس الجاثم فوق رؤوسهم والمتمثل في أنهم تحت المراقبة وأن آلات التصوير ترصد أي حركة من حركاتهم، سواء تلك التي يمكن أن تنم عن تهديد الأمن أو تلك الخاصة!

طبعا، بدأ البشر يعتادون هذا الأمر أكثر فأكثر، والقبول بكونهم مشتَبهين دائما، حتى وهم ينفقون أموالهم في محلات التسوّق العملاقة، أو الأقل حجمًا. وقد أغوت هذه المسألة كثيرًا من أصحاب البقالات الصغيرة لوضع كاميرات مراقبة والتمتّع بأدوار مراقبة الزبائن لأكثر من سبب.

في واحد من أسواق عمّان، كنت أستمتع برؤية ذلك الشخص المنشغل بالمراقبة، الشخص الممحو، حارس الفضيلة وسادن باب الأمانة، إلى أن رأيتُ الكاميرا الصغيرة فوق رأسه تنقل صورته إلى مسؤول أكبر منه يراقبه، ولعل الآخر الذي يراقبه كان راضيًا تمامًا عن وجود كاميرا أصغر فوق رأسه، وتستمر السلسلة إلى ذلك البعد الذي لا نستطيع فيه مشاهدة

الكاميرات الأكثر خفاء، الكاميرات التي تجوب السماء وتهددنا بقدرتها على معرفة مقاس غياراتنا الداخلية.. ويمتد الأمر أكثر فأكثر إلى ما هو أبعد!

والشيء بالشيء يُذْكَر، فقد سمعتُ عن رجل عاش قبل سبعين عاما، وكانت مهمّته تتمثل في مراقبة أباريق الوضوء في أحد مساجد فلسطين، ولذلك كان باستطاعته وعلى مدى سنوات وسنوات أن يُحدد لكل شخص لون إبريق الوضوء الصالح له، فإذا امتدت يد أحدهم إلى الإبريق الأحمر صاح به، خذ الأصفر، وإذا امتدت للأصفر صاح به خذ الأخضر.

الآن يصرخون من كل مكان ولا يدعوننا نحصل على أي شيء..

**

بيسر غير عادي طلب منا أحد الموظفين الأنيقين الشباب أن نتبعه. تبعناه، وقد وفَّرت اللغةُ الإسبانية المشتركة بينه وبين سعدون مساحة طيبة لتبادل الضحكات حول أشياء كثيرة وفي أقل من عشر دقائق، وبعد تأكده من وجود كتابِ الدعوة قام بإلصاق التأشيرة على جواز السفر وتوقيعها وتوديعنا بابتسامة تتمنى لنا رحلة موفقة إلى بلده.

في الطريق إلى الخارج كان بإمكان المرء أن يشاهد عددا آخر من اللوحات التي لم يكن رآها، وأن يتوقف قليلا أمامها دون أن يحثه أحد على الإسراع في المغادرة.

**

وجود المعرض في قاعة انتظار السفارة ذكرني كثيرا بتلك اللفتة الحضارية الاستثنائية الأخرى التي عشتها ذات يوم وأنا أعبر الأجواء البريطانية باتجاه أوروبا، وعبرها، نحو دول الاتحاد السوفييتي سابقًا، ثم سماء الصين وصولا إلى (سيؤول) في كوريا، وبالعكس.

بعد إقلاع طائرة البوينغ العملاقة بقليل، والتي يمكن تحويلها إلى ملعب لكرة القدم دون جهد يُذْكَر!! اخترقتْ المضيفات الناعمات اللواتي لا

يتوقفن عن ترديد كلمة (حاضر) - بلطف شرق آسيا الرائع العذب- الممرات كأطياف يوزعن الجرائد بعد أن كنّ وزعن العصير على هذه المدينة، أو البلدة الصغيرة الطائرة، ولم يمض الكثير من الوقت حتى رأيت ذلك المشهد الذي لم أره من قبل في أي سفر: كانت العربات الصغيرة محمّلة بالكتب، وكانت المضيفات يتوقفن بجانب صفوف المقاعد ويسألن المسافرَ بلطف عن الكتاب الذي يودُّ قراءته، وغالبا، كانت الكتب روايات ودواوين شعرية، وبعض الدراسات، كما سيتبين لاحقا. حدَّقتُ في الكتب محاولًا فك حروف عناوينها، كان الأمر مستحيلا، فجميعها باللغة الكورية. لكنني لاحظت أن المضيفة تُسجّل رقم مقعد المسافر وعنوان الكتاب الذي يأخذه قبل أن تنتقل إلى المقعد التالي.

كان الفضول هو سيد الموقف، فسألتُ الرجل الذي بجانبي عما يحدث، هزّ رأسه بما يفيد أنه لا يتكلم الإنجليزية، فاحتفظتُ بسؤالي لراكب آخر سأجده بالتأكيد في رحلة طويلة كهذه ليس فيها ما هو أكثر من فائض الوقت كما أشرت! رحلة طويلة تتناول فيها ثلاث وجبات وتشاهد ثلاثة أفلام روائية وستة أفلام وثائقية وتنام خلالها أربع مرات على الأقل وتصحو سبع مرات! وتذهب للحمام أكثر من المعتاد وتتمشى بين المقاعد فينتابك الملل وتعود للمقعد فينتابك الملل وتقرأ وتكتب الكثير من الملاحظات، لكن الطائرة لم تزل في السماء بهدير محركاتها المعهود، هدير محركاتها الذي ما يلبث أن يتلاشى قليلا قليلا إلى أن تحس أنك في منطقة انعدام الصوت وانعدام الوزن .

الفتاة التي جاءت خلال واحدة من إغفاءاتي واستقرت بجانبي مكان ذلك الرجل، كانت مفاجأة غير متوقَّعَة أبدًا، حيث يفقد المسافر الأمل بوجود رفيق رحلة بهذا الجمال، بمجرد أن يصل جاره ويأخذ مكانه إلى جانبه.

**

حين اتخذت مقعدي، جلستُ أراقب وجوه القادمين نحوي متسائلا ومتمنيًا أن يكون حظي قادرًا على تخفيف وطأة الساعات التي ستتجاوز زمنها الطبيعي طولا.

أرى تلك وأندب حظي لأن مقعدها ليس بجواري، وأراقب ذاك الرجل الممتلئ جدا الذي يبث الرعب وهو يتقدم نحوي، وأحمد الله لأنه تجاوزني لمقعد خلفي، وكذلك تلك المرأة التي كان سيقتلني عطرها الذي احتل الممر حين حاذت مقعدي؛ وأخيرا أتواضع فأقبل بالقسمة والنصيب! فها رجل نحيف وصل أخيرا لن يزاحمني كثيرا على الحيز الضيق المحاصر فوق يد المقعد المشتركة، وأقبل، أخيرا بالصمت رفيقًا لي بقية الرحلة. لكنها فجأة حضرت، أثناء النوم، كما لو أن الأحلام أكثر قوة من الأمنيات! فحين فتحتُ عينيّ رأيتها تقرأ أحد الكتب التي تم توزيعها، وما إن طوت الكتابَ حتى اندفعتُ عبر هذه الفرصة الصغيرة لأقول لها: مرحبا.

كانت تتحدث الإنجليزية بصورة طيبة، فسألتها عن الكتاب الذي في يدها، فأوضحت أنها رواية لكاتب كوري، فسألتها إن كانت من الكتب التي يتم توزيعها فهزَّتْ رأسها بالنفي لأنها أحضرتْ هذه الرواية معها من البيت، وحين سألتها عن حكاية الكتب التي توزع، قالت: إنها لأدباء كوريين، حيث يختار المسافر الكتاب الذي يريد، وحين ينتهي منه أو تنتهي الرحلة، يُسَلِّمه للمضيفة ثانية فتعيده للمكتبة.

- للمكتبة؟! تساءلت باستغراب.

- مكتبة الطائرة.

- وهل هذا يحدث دائمًا في رحلات الطيران الكوري؟

- دائما، في الرحلات الطويلة.

بعد قليل عادت الجارة لكتابها، وحينها فتحتُ كتابي ورحت أقرأ طوت كتابها بسرعة وهي تحدق في الحروف العربية.

- هذه هي الكتابة العربية؟ سألتْ.

هززتُ رأسي. كانت منفعلةً فعلًا؛ ثم بعد تردد قالت: هل تسمح لي بلمْسها!!

تذكّرتُ ما قالته (ماريا كوداما) رفيقة درب بورخيس ذات يوم (كان يطلب مني أن أكتب الحروف العربية على ظهر كفِّه حتى يحسّ بها ويعيشها).

راحتْ تتحسس الحروفَ خائفةً أن تجرح الكلمات، ثم سألتني أين أول السطر، فأشرتُ لها، فابتهجت أكثر مستغربة. صمتتْ لحظة كما لو أنها تريد سماع صوت الكلمات ثم سألتْ بلطف شديد: هل يمكن أن تقرأ لي شيئًا.

قرأتُ..

- جميل، راحتْ تردد، جميل.

- هل تريدين أن أترجمها لك؟

- لا. يكفيني سماعها. سأفهم معناها كما أحسستُ صوتها.

بعد قليل عادت لكتابها، وعندها أدركتُ أن حوارات البشر في مثل هذه الحالات، لا يعود قِصَرُها دائما إلى أنهم يريدون إنهاء المحادثة، بقدر ما هي رهينة لعدد الكلمات التي يعرفونها في تلك اللغة التي حلُّوا ضيوفًا عليها..

حين رأيت استغراقها الأثيري بكتابها، تذكرتُ رحلة ماركيز بجانب الفتاة النائمة، وعذابه وهو يستعيد كتاب كواباتا الذي ظل يدور في داخل ماركيز سنوات وسنوات إلى أن حيّاه بكتاب (ذكريات غانياتي الحزينات) وتساءلت أيها أكثر تعذيبا للمرء أن تكون بجانبه فتاة جميلة نائمة أم فتاة جميلة مستغرقة إلى هذا الحد بقراءة كتاب في رحلة طويلة إلى هذا الحد؟

لكن كوريا بالنسبة لي كانت أكثر بكثير من هذه التجربة الطائرة، فقد كانت الأيام التي أمضيتها فيها محتشدة بكل ما هو جميل، بدءا من الأعمال

الفنية المتنوعة والذاهبة نحو تجريبية فاتنة، وانتهاء بذلك الدرس العظيم الذي يُقدّمه هذا البلد لدول العالم الثالث، بلد استطاع أن يحقق معجزته الخاصة في النهوض الاجتماعي والاقتصادي ليقف في الصفوف الأولى، ويعلمك في كل نظرة تلقيها على أيّ شيء فيه أنه بلد يسير على قدميه ويحلّق بأجنحته هو لا بقدمي وأجنحة سواه؛ فكل ما تراه هو صناعة كورية بدءا من الحافلات الضخمة، مرورا بالسيارات الفخمةِ التي توازي أي صناعة غربية بجمالها، وقد لاحظتُ أن ما يُصَدّر لبلادنا من السيارات مثلا يختلف كثيرا ولا يُشكّل من حيث مستوى النوعية أكثر من 15٪ من النماذج المطروحة في الشوارع الكورية، كما أن المرء لا يستطيع إلا أن يُفتن باعتزاز الكوري بلغته، إذ لا ترى أي يافطة مكتوبة بلغة أخرى غير الكورية، رغم ما يشكله هذا البلد من ثقل اقتصادي عظيم. لكن الأمر الذي يفوق كل شيء، والذي تحس بأنه مصدر هذا التجلي في الصناعة والحضارة والاعتزاز القومي، يتمثل في تلك الأخلاق الرفيعة والأدب الجم، إذ لن تجد هناك من يستغلك لكونك أجنبيا لا تعرف اللغة ولا تعرف المدينة. كان يكفي أن يكتب لي أحد الأصدقاء الكوريين عنوانا بالكورية وأناوله للسائق حتى يمضي بي إلى المكان الذي أريد، وقد أتيح لي أن أتجول في مركز المدينة مرات كثيرة، وفي كل مرة كنت ألاحظ أن السائق يمضي بي في الطريق نفسه، رغم تشعُّب الطرق التي تفصل الفندق عن المركز وبعد المسافة، وسواء كانت الرحلة تتم نهارا أم ليلا فإنني أفاجأ بأن الفرق في أجرة السيارة يكاد لا يذكر.

عدتُ من كوريا أشد اكتئابا من أيّ رحلة قمتُ بها لأيّ مكان، رغم أنني كنت أكثر سعادة!! فبعد أشهر سأمضي إلى أكثر من بلد يتوجب عليّ فور ملامسة أرضه أن أكون أكثر حذرًا وأكثر غربةً وأنا أصعد التاكسي، أدخل المطعم، أتجول في الشوارع، أجلس في المقهى، أجاور أحدًا في الطائرة، وحين أعبر غابة ما وحيدا أو حين أهم بدخول بوابة الكترونية.

ثمة سلام نادر يهبط عليك وأنت تفعل ذلك كلـه في كوريـا، سـلام لـن يتبدد حتى وأنت ترى تلك النظرة الرائعة المحتشدة بالدهشة لطفـل كـوريّ في طريقه لمدرسته وقد وجد نفسه وجهـا لوجـه مـع ملامحـك الغريبـة، إذ سرعان ما تراه يبتسم بسعادة، أما إذا كان يسير مع أمـه فإنهـا سـتلقي عليـه نظرة مُؤنِّبَة تدعوه ألا ينظر بكل هذه الغرابة لهذه الملامح الغريبـة. في كوريـا تكتشف سعادة أن تكون أنت، لأنك في قانون البراءة هـذا لـست آخـرَ بـل لونا يُشكِّل جزءا أساسـا وطيبـا مـن هـذه اللوحـة البـشرية التـي رسـمت تفاصيلها بهذا الاختلاف الرائع في الأجناس والألـوان والملامـح واللغـات والعادات وأنك خارج قانون سطوة القوة وغطرستها التي تعمـل بكـل مـا لديها من وسائل الفتك لمحو مساحة لونية هنا وتخفيف مساحة لونيـة هنـاك سعيا للوصول إلى لوحة لا لون فيها سوى لون الموت.

**

لا أذكر الكثير من الرحلات الطويلة مثلما أذكـر رحلـة كوريـا، فـالمرة السابقة عليها كانت منذ خمسة عشر عامًا إلى أمريكا، ولا أكاد أتذكر مـا تـم في رحلة الذهاب من روما إلى نيويورك، أما في طريق العودة من نيويورك إلى روما فقد نمت في أولها وصحوت على ذلك الـصوت الرقيـق الـذي يـدعو الركاب لربط الأحزمة.

كانت الطائرة قد تأخرت بسبب عاصفة مطرية كبرى لمدة أربع ساعات في المطار، ونحن بداخلها، ولأن سلطة المطار كانت تأمل أن تنقـشع الغمامـة الوحشية في أي لحظة، تركتنا في داخل الطـائرة، ومـا إن لاحـت أول بارقـة صحو حتى كان الجميع قد أُنهكوا تمامًا، فناموا، ومن بينهم أنا الذي كانـت نومته تلك هي أول وآخر مرة ينامها في طائرة.

حانـة الغراب

لونه الفاحم لا يعبأ بالضوء
عيناه المضيئتان
لا تعبآن بالعتمة
يشيح بوجهه بعيدا
كي لا يرى ذلك النهر الأزلي الأحمر
المتدفق من بين أصابعنا
وإذ نلتقي فجأة وجها لوجه أسمعه يهمس:
مساكين.. لم يفهموا حكمتي بعد!

لم تكن الرحلة باتجـاه بوغوتـا سـهلة، إنهـا العبـورُ الكبـير لهـذا الطـائر العملاق بحرَ الظلمات.

ولكني كنت على يقـين مـن أننـي سأصـعد للطـائرة هـذه المـرة بعـد أن أعادوني أمس إلى مدريد لأمضي ليلة أخرى، هكـذا، في حالـة مقتطعـة مـن مسرحية عبث.

كنت قد وصلتُ المطار الذي يعجُّ بالمسافرين إلى كل بقاع العالم، مطـارًا ذا قاعة عملاقة تخترقها الطوابير الطويلة التي تسودها الفوضى. بين أجـساد

الحقائب الكبيرة انحشر البشر باحثين عن مسافة أمان لا وجود لها؛ وحينما وصلتُ وصاحبي أول الطابور أخيرًا، بعد زمن طويل، في ذلك الجو الحار الخانق التفتَ الموظف إلي وقال قبل أن ينظر إلى الشاشة التي أمامه: لقد تم إلغاء حجزك!

- ولكني أكّدته في عمّان قبل يومين.

- أعرف.

- وأكدته أمس من مدريد نفسها.

- أعرف.

- ولماذا ألغي؟

- ألغي لأن عدد الركاب الذي أكدوا حجزهم جاؤوا جميعًا!

- ولكنني ممن أكدوا الحجز أيضًا.

- أعرف ذلك.

- ولماذا لا أكون على الطائرة إذن؟

- لأن من أكدوا حجزهم كانوا أكثر من اللازم هذه المرة.

في حوار الطرشان هذا، فسَّر لي صاحبي الأمر: تقوم شركة الطيران الإسبانية ببيع 15٪ تذاكر إضافية مقارنة بعدد الركاب الفعليين.

- ولماذا؟

- حتى يضمنوا عدم وجود أي مقعد فارغ في الطائرة؟

كنت ضحية الفائض الذي فاض إذن وجرف مقعدي.

ووسط صيحات الاحتجاج التي كانت تهبُّ من جميع الجهات، الصيحات التي تحوَّلتْ إلى بكاء فعلي اعتصر أعين بعض النسوة اللواتي لم يستوعبن ما يحدث، وصيحات الرجال التي تكاد تتحوّل إلى عراك، كان موظف المطار يشير إلى صفوف طويلة أخرى، كان علينا أن نختار واحدا منها لإيجاد فندق تلتزم شركة الطيران بتأمينه في مدريد لليلة واحدة. ولكنه

قبل أن يفعل ذلك كان قد ناولني بطاقة الصعود إلى طائرة اليوم التالي منقوشا عليها بوضوح رقم مقعدي.

- ثمة عصفور في يدي على الأقل. قلتُ لنفسي وأنا أتأمّل نصف الكوب الملآن بغيظ!! لأن حفل افتتاح مهرجان الشعر سيفوتني.

في محاولة لكسب الوقت، طلب مني صاحبي الأكثر خبرة أن أقف في طابور وأن يقف هو في طابور، فدائما هنالك طابور يتحرك بسرعة أكبر!

بعد ساعتين، تحرك طابوري. وصلت النافذة الزجاجية الصغيرة التي تفصلني عن موظفة المطار المسنة النحيفة التي لم يكن ينقصها النشاط بقدر ما كانت تنقصها اللغة الإنجليزية التي يمكن أن تكون وسيلة تفاهمنا.

لكن الحالة، كما تبين لي لم تكن بحاجة للغات، مددتُ يدي بالتذكرة، حضر صاحبي، غابتْ قليلا، ثم طلبت مني أن أوقِّعَ الورقة التي دفعتْها إلي: وقعتُها!!

وفجأة بدأت تعدُّ المال الذي في يدها وهي تقذف بالورقة النقدية تلو الأخرى باتجاهي، إلى ذلك الحد الذي خلت معه أنها لن تتوقف!!

أمامي كانت هناك اثنتا عشرة ورقة من فئة الخمسين يورو.

التفتُّ إلى صاحبي الأكثر دهشة أسأله: هل هذه لي؟

سألها، فأجابت: أجل!

وهكذا غادرنا صالة المطار أقل غيظا مما كنا نتوقع!!

يوم آخر في مدريد، يوم لا بدَّ منه، استمتعنا معا بطبق رائع لم أكن تذوقته خلال اليومين الماضيين هو (الباهيا): أرز وجمبري وأسماك مختلفة وأشياء طيبة أخرى؛ وتجولنا في المدينة حتى وصلنا تلك الحانة التي كان همينغوي يمضي جل وقته فيها.

لقد أتعبته كثيرا هذا الصديق النبيل الذي ألتقيه للمرة الأولى، وها هو يمدُّ لي يد المساعدة ويد القلب كما لا يمكن أن يمدهما أصدقاء كثر يعرفهم المرء من زمن طويل!

قلت له: أنت طليق.

إنني الآن في فندق أقرب لقلب المدينة، كنا تجولنا في اليومين الماضيين هنا، ومضيت والدكتور محسن الرملي للغابة المطلة على مدريد من الغرب، ومنها يمكن مشاهدة خط الخضرة الداكنة للمجرى الذي يقسم المدينة إلى نصفين. تجولنا في باحات القصور حتى وصلنا إلى ذلك المطعم الفخم الذي عثروا أسفله على قصر عربي قديم، وهكذا خطرت لهم فكرة أن تكون أرضية المطعم من زجاج، بحيث يمكن للزبائن أن يستمتعوا بالأكل، ويستمتعوا بمشاهدة ذلك الأثر الغابر للحضارة التي مرت من هنا ذات يوم!!

**

رغم حرارة الجو اللاهبة قررت الخروج لمشاهدة ما أريد أن أتأمله الآن ثانية ووحدي.

حيث لا يكون هناك سوانا: المدينة وأنا!!

كنت أريد أن أرى أكثر ما يمكن في أقل مدة ممكنة، لأن الشيء الوحيد الثمين الذي أملكه هو الوقت.

لكنني لم أخش ضياعا وأنا أبتعد هذه المرة كثيرًا وأتناسى الوصية التي كتبتها لنفسي (فلتلاحظ أنك تسير في الشارع نفسه أو في الشارع الموازي له، أو المتقاطع معه، ولا تنس العلامات الكبيرة التي تقود خطاك ثانية للمكان الذي غادرت).

نسيتُ ذلك كله، واندفعتُ في شوارع متقاطعة بصورة شبه عشوائية، نحو شوارع واسعة وأخرى ضيقة، حتى وجدت نفسي فجأة أطل على

باحات القصور التي زرناها أمس، صعدتُ للغابة، لكنني لم أستطع التقاط صورة واحدة، حيث الضوء ساطع على نحو مزعج ولا ظل لأي شيء تراه، ولذا، تتجاوزه، كما لو أنه غير موجود!

لكن الرحلة كانت كافية لتدلني على أشياء كثيرة يمكن أن أراها بصورة مختلفة تماما تحت شمس الصباح التالي.

حين مضيت ثالثةً إلى هناك، كان الأمر مختلفًا فعلا، الشوارع غير الشوارع، فاليوم سبت. الهدوء شبه تام والغابة لا يعكِّر صفوها أي اكتظاظ للبشر. ثمة نساء، بضع نساء وبضعة رجال يركضون بتأن أو يمشون بتأن بحيث لا تجرح أصوات خطواتهم ورياح عبورهم الممرات الهادئة بين الأشجار وطمأنينة الطيور ذات الألوان المتعددة التي هبطت تلتقط مخلفات المتنزِّهين الذين غادروا الغابة متأخرين: بقايا (سندوتشات) ورقائق بطاطا وعلب الكولا والبيرة؛ وقد فعل ذلك الغراب الأسحم الكثير لكي يحشر منقاره في علبة بيرة ملقاة أسفل سلة المهملات، وحين لم يستطع، دفَعَها برفق شديد فسقطتْ على جانبها، وعندها راح يشرب ما تبقّى فيها من قطرات، راقبته حتى آخر قطرة، وفي داخلي سؤال وحيد: أي علبة مشروبات تالية سيختار؟

طار قليلا، عشر خطوات لا أكثر، ثم حطَّ ثانية على علبة بيرة أخرى، حشر منقاره داخلها، وحين لم يستطع الوصول إلى ما يروي غليله كرر ما فعله في المرة الأولى، وبينما راح يشرب ما تبقى من قطرات فيها كان يرفع رأسه ويتلفَّتُ يمينا وشمالا بجذل، ويعود ليشرب ثانية، وقد وضع أحد رجليه فوقها ليثبتها، كجندي يحدق في آلة تصوير.

طال وقوف الغراب فوق أطلال العلبة، حتى بتُّ على قناعة أنها عامرة بما يكفي كي يواصل انتصابه كل هذا الوقت في هذه الغابة التي تحوّلت فجأة في نظري إلى حانة للغراب.

في النهاية كان علي أن أمضي، لأنني لم أكن على ثقة بأن غرابًا محترفًا كهذا سيتيح لي متعة مشاهدته ثملا يتأرجح في ذلك الصباح.

بعيدًا مضيتُ أُلاحق الضوء في مكان آخر وفي كائنات أخـرى في رحلـة التصوير التي كانت ثمرة إلغاء الحجز.

تأخذ الحياة هناك

تُعطي هنا..

ونظل نركض ما بين ذلك الهناك وهذا الهنا

إلى أن نُصابَ بما لن نشفى منه أبدًا:

اختفاء أحدهما!

أصدقاء طائرون

بجناحيه
يستطيع النسر أن يُحلِّق بعيدًا
والفراشة أيضًا

بعد دقائق من الجلوس في المقعد، مترقبًا ما ستسفر عنه بقية الرحلة من مفاجآت، في انتظار من سيحتل المقعد الثاني إلى جانبي، في رحلة الساعات العشر هذه، رأيت ذلك الشعر الفضي الأبيض اللامع يتقدم، وأمامه عدد من المسافرين الذين كان بعضهم يجاهد وهو يحاول زج حقيبته الصغيرة في خزائن الطائرة المرتفعة.

لم يكن صعبا أن أدرك فورا أنه هو، وقد كنت قرأت أنه من المدعوّين للمهرجان. وما إن انقشعت غيمة الحقائب والأذرع المرفوعة للأعلى حتى رأيتُ وجهه. إنه هو فعلا: وول سوينكا.

ظل يسير ناشرًا ابتسامة لطيفة تضيء ذلك الوجه الذي يغمره السلام إلى أن وصل مقعده. جلس. لكن شعره ظل بارزًا بصورة كبيرة فوق مستوى ظهر المقعد.

أعرف أن بعض مشكلات منظمي المهرجانات مع بعض الشعراء العرب النجوم، وربما سواهم، تتمثل في أنهم يعددون مطالبهم الكفيلة

بضمان راحتهم، بدءًا من الفندق، الذي قد يكون أحيانا غير ذلك الذي ينزل فيه (بقية) ضيوف المهرجان، إلى مقعد الدرجة الأولى على الطائرة، إلى السيارة الخاصة التي يجب أن تكون تحت تصرفهم، إلى المبلغ النقدي الذي يشترط بعضهم الحصول عليه مقابل مشاركتهم، وقد يدخلون في مفاوضات ماراثونية من أجل ذلك.

أكبرتُ في سوينكا هذا التواضع الجميل، وهذا الرضا الذي يحتل الملامح الدقيقة لوجهه الصغير. وهو واحد من أشهر من نالوا جائزة نوبل للآداب خلال ربع القرن الأخير.

عاد الترقّب من جديد وقد اندفع فوج آخر عبر الممرين الطويلين الضيقين وسط المقاعد. وما هي إلا لحظات حتى وصلت تلك الفتاة النحيلة جدًا والقصيرة، الفتاة التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها.

لم تكن ملامحها تقول شيئًا عن المكان الذي جاءت منه، أو المدى الذي ستبلغه، كانت أشبه بطائر صغير حطَّ على الكرسيّ وقال: مرحبا.

بعد لحظات بدأ التعارف، إنها قادمة من (سلوفاكيا) ووجهتها الأمازون، من بوغوتا ستستقل طائرة أخرى إلى الجنوب، ومن هناك ستسافر في واحدة من السفن النهرية عبر واحد من روافد الأمازون إلى شمال البيرو ثم إلى البرازيل، حيث ستلتقي صديقها القادم من وطنها في مدينة بليم.

- من الجميل أن يقوم المرء برحلة مثل هذه وحيدًا. هذا يعني أنكِ سترين أكثر.

وحين سألتني عما أعنيه شرحتُ لها فكرتي حول هذا الأمر. وأضفتُ: إنك فتاة شجاعة.

حدَّثتني عن عملها، صحفية. وتكتب القصص القصيرة أحيانًا. لكنها لا تستطيع أن تطلق على نفسها صفة كاتبة.

سألتني إلى أين أمضي. فقلت لها إلى مدايين لقراءة شعري هناك.

- أنت شاعر إذن. ورفّت أجنحتها فرحًا.

أشرت لها برأسي (نعم).

التقطتْ نفسًا عميقًا، ثم راحت تسألني عشرات الأسئلة عن الكتابة وما يعنيه أن تكون كاتبًا، عما أكتب، ما الذي يحدث في هذا العالم، وعن سفري، وما الذي أكتبه غير الشعر؟

كانت فَرِحَة تمامًا لكونها ترافق كاتبًا في هذه الرحلة الطويلة. وكنت فرحا لكونها تملك تلك الجرأة لتسافر وحيدة عبر الأمازون.

وفجأة، حلَّ التعب عليها، كانت الطائرة قد انطلقتْ منذ نصف ساعة، واستقرَّتْ في الفضاء كما لو أنها مُعَلَّقة بحبل سميك يتدلى من منتصف قبة السماء، حيث يسكن كل شيء ولا يعود هناك سوى هدير المحركات الذي يتحول إلى نوع آخر من الصمت لفرط انتظام تردده.

تكورَّتْ في المقعد، وللمفاجأة، استطاع المقعد أن يستوعب جسدها كله من رأسها حتى أخمص قدميها.

كانت قد قالت لي إنها أتت من براتسلافا عبر النمسا وألمانيا وفرنسا وصولا لمدريد بالقطار، وحدثتني عن مغامرة البحث عن سيارة تنقلها إلى المطار في الثالثة فجرًا، حيث المطار هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تقضي فيه ما تبقى من الوقت حتى موعد الطائرة في الواحدة من بعد الظهر.

كان نومها سببًا كافيًا للعودة لتلك الرواية التي حملتها معي من عمّان (حرفة القتل) للكاتب الألماني نوربرت غشتراين، وقد قرأت تقريظًا كبيرا لها في المقتطفات التي احتلت واحدة من صفحاتها الأولى وغلافها الخلفي.

**

ليس ثمة كتاب أكثر حياة

من مسافر يحتل المقعد الذي بجانبك

أغلق الكتاب الذي في يديك

ما إن تلمحه مُقبلا

ثمة صفحات (فيه) قد لا تستطيع قراءتها مرة أخرى

إن لم تقرأها الآن.

ثمة صفحات فيه

قد تواصل قراءتها للأبد

كلما استعدت تلك اللحظات التي لن تعود

**

قلت لها: هذا كتابي!

- المعذرة!! ما الذي تقوله؟!

- أقول هذا كتابي.

- أنتَ ترتكب خطأ الآن. لأن هذا الكتاب كتابي. ردّتْ بانفعال.

- وعلى الرغم من هذا فهو كتابي.

كنتُ قد ركبتُ الطائرة المتّجهة من نابولي إلى روما، عائدا إلى عمان. جلستُ على الطرف الآخر من صف المقاعد قرب النافذة. بيننا رجل ضخم لا يعرف الإنجليزية، أحس قليلًا بخطورة ما يدور، لكنه كان مطمئنًا، ربما، لأن جسده الضخم سيمنع وقوع أي التحام في هذه المعركة التي بدا وكأنها على وشك الاشتعال.

في نابولي، قرأتُ في أمسيتن، ووقّعْتُ نسخًا من روايتي الصادرة حديثا بالإيطالية (مجرد 2 فقط) بعنوانها الجديد (داخل الليل.. يوميات فلسطينية).

الرحلة بمجملها رائعة (كم أحبُّ إيطاليا)!

عادتْ للكتاب تقرأه من جديد، ولم يكن غير روايتي. ولذا، خطرَ ببالي أن أتواطأ مع نفسي، معلنا تلك الهدنة الصامتة، حتى يستتب الأمن بيننا ولأرى إلى أي مدى ستمضي عبر الصفحات.

رحتُ أراقبُ ملامحها، يبدو أنها كانت قد أتمت قراءة ثلاثين صفحة على الأقل قبل الصعود للطائرة.

كانت مستغرقة، تنهَّدتْ مرتين وعادتْ برأسها للوراء في لحظات تأثر واضحة. ثم واصلت القراءة بالاستغراق نفسه.

أدركتُ أن أي مقاطعة لها في هذه الحالة ستجعلها تفقد أعصابها دفعة واحدة. ثم فجأة راحت ملامحها تموج بابتسامة تتفلَّتُ من تحت بشرتها الحنطية. لا بد أنها من نابولي، حيث رأيت أجمل نساء الأرض هنا.

حين عدتُ بعد زيارتي الأولى، سألوني: كيف نابولي؟

- إنها بلا ريب مدينة النساء الجميلات، نقطة لقاء الشمال بالجنوب التي يُعمِّدُها البحر الأبيض.. واحة الجمال المقدسة. ولو صدف، أن فقدتْ السينما أجمل جميلاتها في ظاهرة غامضة! فإن نابولي تستطيع التعويض عن غيابهن في ساعة واحدة!!

لكنها لم تكن تنتمي لذلك الجمال كلّه.

حين وصلت المضيفة بأكواب العصير وبعض قطع الحلوى، كانت الجارة قد غدتْ في مزاج مختلف.

التفتُّ إليها مبتسما وقلت لها: مرحبا. كما لو أنني أراها للمرة الأولى ولم يسبق لي الحديث معها.

- مرحبا. ردّت بضيق أقل.

- هل بإمكانكِ أن تسمعيني بهدوء؟ قلتُ لها.

- سأحاول!

- هذا بالفعل كتابي.

- إنه كتابي. هل أنت مجنون، لقد اشتريته أمس من معرض الكتاب في نابولي.

- أعرف. ولكنه رغم ذلك كتابي، لأنني كتبته قبل أربعة عشر عاما.

- ما الذي تعنيه؟

امتدَّتْ يدي إلى جيبي، أخرجتُ جواز السفر، أشرعتُ الصفحة الأولى، أشرتُ إلى الاسم. كانت تراقب بارتباك. امتدتْ يدي إلى غلاف الكتاب تشير إلى الاسم. أدركتْ المصيدةَ الصغيرة التي وقعتْ فيها. راحت تصرخ وهي تخفي وجهها: إلهي. كم أنا غبية.

اعتدلتُ، بحيث حجبَ جسد الرجل الضخم جسدي عنها، وكما لو أنها تحاول استراق النظر من خلف ذلك الجسد الضخم الذي تحوّل إلى جدار. ألقتْ نظرة عليّ، ثم عادت بظهرها للوراء، وقد توزَّعتْ بين الضحك والإحراج. بعد قليل رأيتُ يدها تمتد من خلف الرجل، دون أن تتيح لي فرصة مشاهدة وجهها.

- مرحبا!

- مرحبا!

- سامحني!

- أعرف، إنه موقف غريب، نادر، لقد فكرتُ بأنه صالح لأن يكون مقالة، هل تسمحين لي بكتابته؟

: نو. قالت وقد عادت لارتباكها.

: ولكنني لا أعرف اسمك.

: ولو!

: إذن لن أكتب ما حدث. اتفقنا.

: اتفقنا.

عادت للكتاب من جديد، وبين حين وآخر كنت ألمحها تسترق النظر مما أربك قراءتها. تصرفتُ كما لو أنني لم أعد في ذلك المقعد. كما لو أنني غادرته فور انتهاء المحادثة.

جاء صوت المضيفة يدعو الركاب للتأكد من ربط أحزمتهم ووضع مقاعدهم في شكل عمودي.

لقد بدأت الطائرة بالهبوط.

وفجأة رأيتُ يدًا تمتد بالكتاب نحوي، يدا حنطية رقيقة ذات أصابع طويلة، والصوت يأتي من بين شفتي ذلك الوجه المتواري.

- هل يمكن أن توقعه لي؟

- بكل سرور. ولكن عليك أن تعترفي بأنه كتابي.

- لا. إنه كتابي الآن. إنه كتابي منذ أن بدأت بقراءته.

- تعرفين! إنك على حق.

سألتها عن اسمها. ضحكتْ: إلاّ هذا. أعرف، ذات يوم ستكتب كلَّ هذا الكلام.

وقَّعتُ لها الكتاب، أعدته لها.

وبدأت الطائرة بالهبوط.

في واحد من الممرات الطويلة بمطار روما، شدّتْ على يدي بحرارة، ومضتْ بعيدًا بصمت. راقبتها إلى أن اختفت، وسرَّني أن كل أولئك الذين كتبتُ عنهم، أولئك الذين يذرعون الرواية بلا أسماء، سيجدون مكانا يأوون إليه أخيرًا بأمان، مع فتاة مجهولة الاسم أيضًا، بعيدًا عن ساحة تلك المجزرة التي أطبقت عليهم من كل الجهات.

دمعة طائرة

الطريق الذي لا يؤدي إليك:
لن يصل
النهر الذي لا يصب فيك:
ناشف
والدمعة التي لا تُذْرف عليك:
بلا عينين

في السابع عشر من أيلول عام 1991 كنت مسافرًا إلى ليبيا، تجاوزت إجراءات الأمن والحقائب، تجوَّلت في قاعة المطار في انتظار موعد التوجه إلى بوابة الإقلاع، حيث الطائرة تنتظرنا. حان الوقت أخيرًا، وعندها فوجئت أنني أحاول، دون جدوى، الوصول إلى مقعد فارغ، في قاعة ليس فيها سوى نساء متَّشحات بالسواد وأطفال يُجلل ملامحَهم الرّعب.

بعد قليل أدركتُ و (عُمَر)، أنهم فلسطينيون مُقتَلعونَ من الكويت، وكان مجرد الحديث مع أيٍّ امرأة منهن كافيًا لتفجُّر منابع الدّمع.

– منذ أسبوع ننتظر في المطار، ننام على الرخام ونصحو على الرخام. قالت امرأة. وأضافت: لم يعد هناك مكان واحد في العالم العربي يريد استقبالنا.

- من منهم يجرؤ على ذلك. هؤلاء الزّعماء، ما دامت أمريكا هي التي طردتنا.

- وحّدي الله. قالت لها امرأة أخرى.

لم تكن تلك الهجرة الفلسطينية الأولى ولن تكون الأخيرة، كما لو أن المنفى كثير على الفلسطيني!! فستأتي حرب الخليج الثانية وتُهَجِّر أولئك الذين كانوا في بغداد، ومعظمهم من الفلسطينيين الذين حملهم الجيش العراقي معه عام 1948 حينما انسحب من قُراهم، كنوع من التعويض الرهيب عن عدم استطاعته الدفاع عنهم كما أخبرني ذات يوم الراحل العزيز بكر عباس، شقيق الدكتور إحسان عباس، الذي وجد نفسه بين ليلة وضحاها لاجئًا في بلاد الرافدين، لأن ذلك الجيش، المُعَذَّب بصمت مدافعه، كان يردّد كلما طلبوا منه التدَّخُل في القتال: (ماكو أوامر).

.. وكما سينتهي إليه من طُردوا من الكويت مطرودينَ مرة أخرى من (الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى) ليجدوا أنفسهم على أطراف الحدود المصرية الليبية يعيشون بلا مأوى بين العقارب وبرد الصحراء، سينتهي إليه أولئك الفلسطينيون الذين كانوا يعيشون في العراق لاجئين مطرودين على أطراف الحدود العراقية الأردنية يعيشون بلا مأوى بين العقارب وبرد الصحراء أيضًا، بعد اثني عشر عاما في حرب احتلال العراق، دون أن يسمح لهم أحد بدخول أراضيه في معسكرات العَزْل التي تفتقر لأبسط شروط الحياة الحيوانية، ولا نقول الإنسانية. أو أولئك الرجال الذين أبعدتهم القوات الإسرائيلية إلى الحدود اللبنانية في مخيم الصقيع الذي أطلق عليه اسم (مرج الزهور)!! في برية ذلك الموسم الثلجي الذي لم يكن بياضه أسود كما كان في أيّ شتاء مر عليهم.

وقد كان الأمر مرعبا دائما في ظل هذه المعادلة الظالمة:

لا أحد يريد للفلسطيني أن يعود ولا أحد يريد للفلسطينيّ أن يبقى.

ذات يوم كتبت قصيدة عنوانها (هم) نهايتها:

.. وأُقْتَلُ في حالةٍ من عناقٍ

وأُقْتَلُ في حالةٍ من عِرَاكْ!!

وفي آخر الأمر يندفعون إلى جسدي طعنةً:

خُذْ هواكْ.

أَلا أيّها المُبْتَلى بدماكْ

لا تكن ها هنا.. لا تكنْ ههناك!

وكن أيَّ شيء سوانا

وكن أيَّ شيء سواك!!!!!

**

حين حلَّقَت الطائرةُ كانت أشبه بدمعة كبيرة مُعَلَّقةٍ على وجه السماء، الأطفالُ يصيحون ويبكون والأمهاتُ يبذُلنَ ما تبقى من طاقة لديهن لإسكاتهم، في الوقت الذي بدا وكأن المضيفات أمام هذا المشهد قد غادرنَ الطائرةَ بالمظلات!

في هذا الجوِّ المرعب، تدافعتْ نحوي كلَّ مشاهد الرحيل والموت التي شاهدتها بعينيَّ طفلًا وشابًا وكل تلك الاقتلاعات المتتالية من الأرض الفلسطينية حربًا بعد حرب وسلامًا بعد سلام! (لم يكن السّلام الباهت أقل دموية من أي حرب سبقته) وصولا لتلك الهجرة من مخيم (الكرامة) في الأغوار، المخيم الذي لجأ إليه الفلسطينيون ذات يوم، وكان عليهم أن يتركوه ثانيةً إلى مخيم أكثر بُعْدًا عن أرضهم، أرضهم التي كان يمكن أن يشاهدوها من نوافذ بيوت مخيمهم المتهالك ذاك.

كما لو أنهم يخافون على الفلسطيني من لوعة الحنين!

حضرتْ صورة خال أبي الوحيد الذي كنتُ أمضيتُ أكثر من إجازة ربيع في منزله فَرِحًا بمشاهدة كلِّ ذلك الدّجاج في مزرعته، الدجاج الذي لم نكن نشاهده أكثر من مرة واحدة في الأسبوع في مخيم (الوحدات). كنت

أقول لأخوتي: شاهدتُ من الدجاج ما يكفيني العمر كله!! حضرت صورة ذلك الخال الطيب الذي عانى كثيرا في حياته بسبب الظروف القاسية التي عاشها في فلسطين، ربما لأنه كان وحيد أبويه، وظلَّ يتمنى وجود عشرة أولاد في بيته كبقية الفلسطينيين!! ولكنه لم يرزق سوى بولد وبنت. لكنه بعد الخامسة والستين من عمره سيتخذ ذلك القرار الصعب ويتزوج ثانية وينجب عشرة أبناء في هذا العمر المتأخِّر.

حضرتْ صورةُ جدّي لأبي الذي رحنا نبحث عنه من مدرسة إلى أخرى، من تلك المدارس التي التجأ إليها النازحون، وقد توقَّعْنا أنه سيقصد مخيم (الوحدات) لأننا فيه. جدّي الذي كنتُ أمضي إجازات العيد في منزله في مخيم (العَزَّة) في (بيت لحم) وأمضي وأعمامي الكثير من الوقت ونحن نلتقطُ البلّوط ونشويه في أكثر من شتاء.

جدّي الذي ماتتْ زوجته، قبل الهجرة، بعد أن أنجبت ولدين، وتزوج بعد ذلك ورزق بثلاث بنات وستة أولاد.

راحت الحروب تضجُّ في رأسي كما لو أنها تحرِّكُ أرتال دباباتها وصيحاتِ ضحاياها فيه، وتدافعت الأعوامُ المُرَّةُ بلا رحمة في هذا الحيز الصغير: 1967، 1968، 1970، 1976، 1982، 1991.

حضرتْ، حتى، تلك الحروبُ والمذابحُ التي لم أعشْها وسمعتُ شهادات الخارجين منها ليبدأوا حياتهم من نقطة الصفر.

وحضرت الحروب التي سأعيشها من بَعْدُ!

ولعل أحدًا لن يستطيع أن يتصوَّر كيف يمكن أن يبدأ شعبٌ ما الحياة ثانية، بعد أن جُرِّدَ من أرضه وحقله وسمائه وشوارعه ومزارعه ومدنه وسواحله وسياراته وبواخره ومصانعه وصحفه ومدارسه ومقاهيه وملاعبه وقطاراته ومطاراته وماعزه وأبقاره وحميره وخيوله وما يستر روحه من أحلام وجسده من ملابس، كيف يمكن أن يبدأ ثانية من هذا الصفر الكبير

ويتجاوز هذه المحنات الكبرى ويستطيع أن يؤسس حياة جديدة وأحلاما وذاكرة في المستقبل، ويحول فكرة العودة إلى وطنه إلى عقيدة.

لعل تلك معجزة هذا الشعب الذي طحنته حروبُ الأخوة عليه كما طحنته حروب الأعداء.

لم يكن هناك في الطائرة سوى هذا الجبل الكبير من الضحايا الأحياء. المرشّحين لمآس جديدة، بأجسادهم المتراكمة بعضها فوق بعض، الأجساد التي لم يكن ينقصها في هذا المشهد سوى العُرْي كي يكونوا صورة أخرى عن تلّ الرجال في سجن أبو غريب.

في مرحلة انعدام الوزن هذه، وصلنا مطار طرابلس قبل منتصف الليل، وبعد رحلة عذاب وصلنا إلى فندق ننام فيه، لأن أحدًا لم يكن هناك في استقبالنا، وتساءلتُ: ما مصيرهم إذًا، أولئك الذين جاؤوا بلا دعوة رسمية رفيعة مثلنا؟

حين عثروا علينا في اليوم التالي، جاء أحد العاملين في المهرجان ونقلنا للفندق المخصص للضيوف، وما إن وصلتُ حتى بدأتُ الكتابة، وكانت تلكَ هي المرة الأولى في حياتي، إذ لم يسبق لي أن كتبتُ، من قبل، حرفا واحدًا في السفر.

كنتُ أحمل معي، بين ما أحمله من نصوص، نسخةً من قصيدتي الطويلة (الفتى النهر والجنرال) فبدأتُ الكتابة على ظهرها، ولم أنتبه تماما للطريقة التي كنتُ أكتب بها إلا حينما رجعتُ إلى (عمّان).

افتقدوني، فراحوا يفتّشون عني، خائفينَ أن أكون مريضًا أو أن مكروها أصابني!

وحينما عثروا عليَّ في الغرفة، كان لا بدّ لي من أن أخرج، ولو قليلا، كي أثبتَ وجودي، لكنني بعد هذا الظهور الخاطف عدتُ للغرفة ثانية، وهكذا طوال الأيام الأربعة التي أمضيتها هناك تحت وقع جحيمية ذلك الكابوس الذي ألهبَ رأسي:

(كنتُ أمشي .. وفجأة خطرَ لي أن أحكَّ ذقني .. رفعتُ يدي باتجاه تلك النقطة التي صحا نملُها لأحكَّها، لكن النمل ظل يعمل !!

قلت: إما أن النمل أكبر مما يجب، أو أن يدي تاهت، ولكنني لم أُحس أنها ذهبت باتجاه آخر لتَحُكَّه بالطبع. وبعد محاولتين وجدت نفسي مضطرًّا للالتفات حيث من الطبيعي أن تكون هناك أصابعي. لم أجدها. قلت يد ماكرة تختفي داخل كُمَّ القميص وتلاعبني، لاحقتها تحت القماش إلاّ أنها لم تكن هناك. فَزِعتُ. قلت: ربما اختفت خلف الظهر، مثلما يفعل الممثلون الذين يقول لنا المخرجون إن أيديهم قُطِعَتْ، لم أجدها.

بحثت في البيت، في المطبخ، تحتَ الخزانات والكراسي، رفعتُ لحافي ونظرتُ تحتَهُ .. لم أجدها.

ذهبت للحمّام درت حولَ البيت. لم أجدها .

خرجت للشارع وإذا به ممتلئ بالجنود والدبابات ورشاشات 500 ومدافع 106 المحمولة على سيارات اللاندروفر والتويوتا ..

قلت: لا بد أنني أسقطّها في طريق عودتي للبيت .

توقفتُ عند أحد الجنود سألته إن كان رأى يدًا مبتورة هنا. هزَّ رأسه .. فأحسست أنه أخرس.

طرقتُ حديدَ دبابة متوقفة هناك قرب أحد المخازن الكبيرة المُدمَّرَة .

أطلَّ من البرج ضابطٌ نصف نائم.

صرخ: ماذا تريد .. لماذا تزعجني ؟

قلت: يا أخ هل رأيت يدًا ملقاة هنا؟

قال: يد !! ما أوصافها ؟!

رفعتُ يدي السليمة .. وقلت: مثل هذه تمامًا.

هزَّ رأسه بالنفي.. فابتعدتُ. لحقني صوته:

: يا أخ .. يا أخ!!

قلت: نعم.

قال: بإمكانك أن تبحث هناك.

تتبعتُ اتجاه إصبعه .. فإذا بكوم ضخم من البشر القتلى المختلطة أعضاؤهم)

**

في (عمّان)، أصابني الفزع عندما رحت أُحدِّق فيما كتبته، والكيفية التي كُتِبَ فيها: الكلمات صغيرة جدًا: في كل سطر هناك خمس وعشرون كلمة. والأسطر متلاصقة تماما: في كل صفحة هناك ثلاثة وخمسون سطرًا!

لقد كتبتُ كما يكتبُ السُّجناء الذين لا يملكون فائض ورق أو فائض حبر. مع أنني كنتُ أملكُ فائضا منهما. عدتُ ونسختُ الصفحات العشر في دفتر من تلك التي أحبُّ استخدامها للكتابة (لم يكن زمن الكمبيوتر قد وصل) فكانت النتيجة أن الصفحات العشر هي في الحقيقة ستون صفحة!

واصلتُ الكتابة، في ذلك الجو المحموم، إلى أن أنهيت الرواية خلال خمسة وأربعين يومًا!! ولم يكن مثل هذا قد حدثَ معي من قبل ولن يحدث فيما بعد، عشتُ معها عذاب أولئك الذين تجمَّعَتْ كل مآسيهم ودمائهم في مجزرة واحدة، وعشتُ معهم وعرفتهم لكنني لم أعرف اسم أي واحد منهم، وهكذا، لم يَحْمِل أي من شخصيات الرواية اسمًا.

قرأتُ الرواية بعد ذلك بشهرين، كعادتي بعد الانتهاء من أي كتاب، وللحظة أحسست أنني لن أحتمل العودة لعذاب الرواية بكتابةٍ ثانية. أحسستها مكتملة، لا تحتاج إلى إضافات، كأنها كانت قصيدة حزينة حفظتُها دائمًا عن ظهر قلب ودونتها في دفتري أخيرًا. لكن حرفة الكتابة كانت تقتضي العودةَ فعدت إليها ونسختها ثانية وما بين سطر وسطر وصفحة وأخرى كانت تُولد حكايات وكلمات جديدة تُعَزِّز بناءها وتضيء مناخها بذلك الضوء الأسود لعذابٍ فلسطيني لم يفقد سخريته السوداء وهو يتجمع حرفًا حرفًا في هذا الكتاب.

**

قلت: قارئة بلا اسم لشخصيات رواية بلا أسماء.

وها أنا أستعيد تلك الفتاة التي ابتعدتِ للأبد كي لا أكون وإياها (مجـرد 2 فقط)، في هذه الرواية التي انبثقت من ثـلاث بـذرات، كـان هـذا الـسفر إحداها، أما البذرتان الأخريـان فولـدتا في أرضـين مختلفتـين، وسـفرين لا يتشابهان أبدًا، ولعل كل واحد منهما يقف على الطـرف النقـيض تمامـا مـن الآخر!!

كيف أنجبت القصيدةُ رواية!!

في الغيمة تقيم هناك
ذاكرة الشجرة
في التراب تقيم هناك
ذاكرة الذي أكل من ثمارها
أما ذاكرة الفأس
ففي الحطب

ثمة قصيدة طويلة قديمة، كتبتها أواسط السبعينات في الصحراء العربية حين رحلتُ إلى هناك مُدرّسا من أجل لقمة العيش، ولعلّها أول قصيدة طويلة أكتبها بالفصحى!!

تسرد القصيدة حكايةَ قبر جماعي أعرفه تمامًا، ومن المصادفة أنني لم أكن أحد ساكنيه الأبديين. عن هذا القبر كتبتُ تلك القصيدة وعنوانها (المبعوث رقم واحد) وتتحدث عن سكان ذلك القبر الذين يقررون بعد ست سنوات من المذبحة إرسال مبعوث عنهم ليرى ما حدث لأحبائهم والمدينة بعدهم، فيقومون بانتقاء الأعضاء التي ظلت سليمة وخالية من الجراح والحروق ويُجَمِّعونَ فردًا سليمًا من هذه الأعضاء، لكنه، ولفرط تشوقه للخروج يغادر القبر قبل أن يعطوه رِجْلًا ثانية. وهكذا، يروح يطوف المدينة

متوكئا على عصاه ليوصِلَ رسائل الموتى إلى من بقي على قيد الحياة من أحبابهم الأحياء!!

لقد كتبتُ الكثير من القصائد في تلك الفترة المبكّرة من تجربتي الشعرية، لكن حضور هذه القصيدة ظلَّ قويًا ومُلِحًّا وعصيًّا على النسيان؛ ولعلها تكون أمَّ قصائدي الطويلة كلها التي كُتِبَتْ فيما بعد.

لكنّ إحساسا دفينًا ظلّ يغمرني ويدعوني لإعادة كتابتها بما يليق بحماسي وتأثّري بفكرتها وقربَ الفكرة مني؛ و لم أستطع.

.. وفي أوائل التسعينات أخبرني عددٌ من الأصدقاء النشطين في مجال العمل لصالح القضية الفلسطينية خلال زيارة فنية أدبية طويلة لأمريكا، أقمتُ فيها خمسا وعشرين أمسية مشتركة مع فرقة بلدنا لصالح الانتفاضة، أخبروني أنهم على اتصال مباشر مع واحد من أبرز مخرجي السينما في العالم، أوليفر ستون، الذي حصل فيلمه (الفصيل) على أوسكار أفضل مخرج قبل أربعة أعوام، وبعده بعام حقق فيلمه الكبير (وول ستريت) الذي ضَمِنَ لممثله مايكل دوغلاس جائزة الأوسكار. أخبرني هؤلاء الشباب الفلسطينيون والعرب بأنهم على علاقة جيدة بت، وانه متعاطف مع القضية، إلى ذلك الحدّ الذي جعله يطلب منهم نصًّا فلسطينيا روائيا كي يُخرجه للشاشة الكبيرة.

كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى في أوج تأثيرها. وسألوني إن كان يوجد لدي عمل يمكن أن يُقَدَّم إليه ويوافق أو يجاري سينما ذلك المخرج. لوهلة فكرت بكتاب (الأمواج البريّة) إلّا أنني اكتشفت أن الكتاب لا يفي بالغرض، فهو يتحدث عن مُقدِّمات الانتفاضة، أو عنها حسب ما رأى كثير من القراء في فلسطين وخارجها، والمطلوب نص روائي يعبِّر عن المأساة الفلسطينية بصورة عامة، ومعنى أن يكون الإنسان بلا وطن وضحية مُشْرَعَةً لكل أشكال الإبادة. ولذا، يمكنني القول: إن رواية (مجرد 2 فقط)

قد كُتبت (فنيًّا)، وربما دون وعي مني، من وحي ذلك المشروع، ومن وحي سينما (أوليفر ستون) نفسها.

أول ما تذكَّرتُ، تلك القصيدة، لكنني لم أستطع لملمتها ونشرها من جديد كعمل روائي هاجسه الأول السينما في أرقى أشكالها على المستوى الفني، ولم أعثر على الشرارة الكافية لإشعال نار عمل روائي؛ لا سيما وأنني بدأت في ذلك العام 1990 كتابة روايتي (طيور الحذر)، وكنتُ موزَّعًا بينها وبين هاجس كتابة الرواية المطلوبة، لكنني آثرت في النهاية أن أمضي بـ (طيور الحذر) إلى نهاياتها، أو كتابتها الأولى، لأفكر بعد ذلك بصورة أكثر حرية. ويمكن أن أقول هنا أيضًا: رغم أن (طيور الحذر) كانت تسرد جزءًا رئيسًا من تاريخ الشعب الفلسطيني في المنفى (48-70)، إلا أنني لم أُفكِّر فيها باعتبارها ذلك العمل الذي يمكن أن أرسله كمشروع فيلم لأسباب تتعلق بخصوصيات هذه الرواية وصعوبة تنفيذها سينمائيًا. لكن أجمل ما حدث أن الفكرة بحدّ ذاتها كانت مصدر إلهام لي.

حينما وصلت الدعوةُ الليبية في أيلول 1991، رأيت في السفر فرصة للتجدُّد والعودة فيما بعد للعمل على إنجاز الكتابة الثانية لطيور الحذر، وكان دخان حرب الخليج الثانية يُغطي السماء ويغطينا. وبعد لحظات من الوصول إلى مطار عمّان تبين لي أنني لا أهرب (من) بل أهرب (في) المأساة التي راحت تُكثِّف تاريخها من خلال ذلك الحشد الهائل من النساء المتشحات بالسواد وأطفالهن..، النساء اللواتي تبعثرن في مطارات كثيرة بلا هويات أو جوازات سفر يمكن أن يعترف بها أحد.

إنها الرواية الأكثر تأثرا بالسينما من بين رواياتي (180 صفحة تضمُّ 260 مشهدًا أو فصلا قصيرًا)، كما أنها الوحيدة ربما التي كتبت باندفاع قصيدة محمومة، كما أشرت، فلم يكن عليَّ أن أُحَضِّر أيَّ شيء قبل البدء بكتابتها؛ كل شيء كان في الداخل، وما كان ينقصه غير الشرارة؛ ويبدو أن

التفكير الطويل بذلك النص الروائي المطلوب قد تشكل بتلقائية ووجد بنيته في هذه الرواية بيسر بالغ.

كانت الرواية، في النهاية، هي ذلك النص السينمائي! لكن ما حملتْه حربُ الخليج الثانية من نتائج كان كافيا لإبعاد فكرة إرسالها لذلك المخرج، ولم أفكر بذلك حتى اليوم رغم أن ترجمتها للإنجليزية قد اكتملتْ منذ سنوات.

لكن ما يمكن أن أضيفه هنا: انني كنت متابعا جيدا لسينما أوليفر ستون، التي شكّلت، دائما، الهامًا لي، ولعل المفارقة هنا، أنني حين كتبت (مجرد 2 فقط)، كنت أستلهم ما يمكن أن يُخْرَجَ، لا ما أُخْرِجَ من أفلامه، ولعل أكثر أفلامه قربا من تقنية هذه الرواية هو ذلك الفيلم الذي أخرجه بعد ثلاثة أعوام من نشرها، وأعني (قتلة بالفطرة)، بحيث يمكنني القول: لقد تأثرت فعلا بذلك الفيلم (تقنيًا)، ذلك الفيلم الذي لم يكن قد وُلِدَ بَعْد!

لكن الشيء المختلف مع الفيلم، كان قائما في رؤيتي لما يسمى (تيار الوعي) الذي حضر بكثافة عالية، فقد كان في الرواية جزءًا من مواجهة خطر الزوال، أو خطر الإبادة. لأن الشخص يكثِّفُ هنا أزمنته السابقة كلها كي يُشَكِّل زمنه النفسي القادر عبره، وبه، على مواجهة استمرار خطر الموت في زمنه الراهن. إنه يستحضر تواريخه كلّها، مراحل نموه، عذاباته وأفراحه، أو بمعنى آخر (يتجمْهَر) كي لا يكون وحيدا أعزل أو مجرد ضحية سهلة أمام المذبحة. ولذا فإن تيار الوعي هنا ليس شكلا فنيًّا، بل هو معنى عميق لما هُمْ عليه أبطال العمل، عكس الرؤية المدمرة لمفهوم تيار الوعي في فيلم ستون اللاحق.

في (مجرد 2 فقط) عادت القصيدة القديمة التي ولدت في تلك الصحراء لتجد شكلها الجديد وفضاءها في نص روائي، كمحور من محاور العمل، وإنْ تَغيَّرَ الإطار العام، فلم يعد على المبعوث أن يوصِلَ أي رسائل، لكن القبر الجماعي لعبَ دورًا أساسًا، ففي حين قام الشهداء بتجميع أعضائهم

لتكوين شخص تنقصه رجل واحدة (في القصيدة)، فإن واحدًا من الشخصيتين الرئيستين (في الرواية)، يتمكّن من سَحْب صديقه من القبر الجماعي في اللحظة الأخيرة قبل أن تُهيل الجرافاتُ عليه التراب؛ ولكنّه، أي مشروع القتيل وهو يُجَمّع أشلاءه لا يتمكن من إكمال مهمّته، بسبب تسرُّع صاحبه!! فيخرج بيد واحدة، لكن صوت القتلى يظل يتابعه كما في القصيدة:

(قال أحدهم: خذ رأسي، وقال آخر: خذ ساعدي، وقال آخر: خذ صدري، وقال آخر: خذ عنقي، وقال آخر: خذ عضوي؛ ولم أغضب. لقد منحوني أعضاءهم السليمة.. أعضاءهم التي لم يصفر فيها الرصاص ولم تقضمها الشظايا.. أتعرف، دقيقة واحدة أخرى كانت كافية لكي أخرج إلى هذا العالم كاملا.. دقيقة واحدة....)

لم تكن العودة إلى (طيور الحذر) سهلة بعد المكابدات القاسية، التي عشتُها في (مجرد 2 فقط)، فثمة أحداثٌ لم أكن قد كتُبتها نهارا، كنت أحلم بها، أو أتكوبس بها ليلا، فأنهض فزِعًا وأكتبها. وقد استمرَّتْ تلك الحالة لفترة طويلة، وبقيتُ أعيش جو المذابح التي تجمّعت في مذبحة واحدة بلا اسم مع عشرات الشخصيات التي تحركت بلا أسماء أيضا؛ فما أهمية أن تملك الضحية في النهاية اسمها الخاص وهي لا تملك حياتها وجسدها المشرعين للرصاص وأشكال الموت والقتلة الذين يتبادلون الأدوار، كي يأخذ كل منهم حصته الكاملة من هذا الدم ؟!!!

أما الشيء الذي لم أنتبه له إلا بعد سنوات فهو مدى قرب عنوان القصيدة من عنوان الرواية، ففي الأولى كان هناك رقم (واحد) وفي الرواية كان هناك رقم (2).

هل كانت تلك مصادفة بحتة؟ لا أظن ذلك.

عماء مدبَّر

سماء واحدة

لطائر وحيد

صحراء واحدة للجميع

ذات يوم كتبت عـن أسـفاري الأولى في العتمـة، حيـنما كانـت الأفـلام السينمائية التي أراها في ذلك الصبا المبكر هي الطائرات أو البـسط الـسحرية التي تحملني من مدينة إلى مدينة.

كانت عبارة مثل (صُـوِّر الفـيلم في اليونـان) كافيـة لكـي نتقـاطر عـلى قاعات السينما كي نشاهد بطل الفـيلم المحبـوب أو بطلتـه المعـشوقة وهـو يتجول، أو وهي تتجول، في شوارع أثينا أو بين الجزر اليونانية الساحرة كـما لو أننا نحن الذين هناك.

بأعينهم نرى وبأفواههم نتذوق وبأرجلهم نعـدو عـلى الـشاطئ الـرملي وبأجسادهم نمارس حبًّا لم نتذوقه بعد.

في ذلك الزمان كان المنتجون العرب يعرفون نقـاط ضـعفنا، مـشاهدين مجوّعين نهمين لنهش لحم الضوء الساقط على الشاشة البيضاء بتلذذ مجنون، نحن الذين لم يكن باستطاعتنا وصول أقرب المدن إلا بصحبة آبائنا، ولـزمن طويل.

كان المنتجون يتسابقون في إغرائنا حتى أنهم لم يتوانوا عن صنع فيلم بعنوان (بدوّية في باريس)، ولذا، فإن فكرة السفر كانت الفكرة الأكثر سحرًا، حتى أنني بعد إكمال الثانوية العامة قدَّمتْ أوراقي للأكاديمية أو الكلية البحرية في دولة الكويت، لكني لم أتلق جوابا فانهارت كل الخيالات التي كنتُ قد أعددتها سلفا لمغامراتي في موانئ العالم، كما انهارت بعدها فكرة أن أدرس الموسيقى في وطن الموسيقى (القاهرة) بعد عاصفة الرفض التي ثارت في وجهي من قبل الأهل.

ويمكنني القول هنا: إننا لفرط محبتنا في ذلك العمر للأفلام المصرية كان الشخص الوحيد الذي نحلم برؤيته هو الإنسان المصري، وحينما بدأنا ندرك حضور جمال عبد الناصر تضاعفت هذه الرغبة.

المرة الأولى التي ركبت فيها طائرة كانت بعد انتهائي من إكمال تعليمي في معهد المعلمين التابع لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، ولم تكن الرحلة باتجاه اليونان أو باريس أو روما أو مكسيكو أو مانهاتن؛ كانت الرحلة باتجاه الصحراء.

في الثانية والعشرين من عمري، اكتشفتُ أن الجهة الوحيدة التي يمكن أن تفتح ذراعيها لواحد مثلي، بعد كل تلك الأحلام، هي الصحراء!!

ولكن ذلك بحد ذاته كان يعني الكثير، لأنني لم أكن أتصور في أي يوم من الأيام أن أصل لسُلَّم الطائرة، فكل ما يحيط بنا لم يكن يشير إلى أي شيء يمتلك أجنحة، باستثناء تلك الطيور الفقيرة التي تعيش في الضواحي، الطيور التي لا يكفي غناؤها لبعث الفرح في تلك الحياة الجرداء للبشر.

لكن تلك الرحلة أثبتتْ أنها أهمُّ بكثير مما كنت أظن، لأنها، ودون أن أدري، ستفتح لي السماء كاملة وتُسَخِّرُ لي طائرات ومطارات وبلادا ومدنا وبشرا لا حصر لهم؛ وستترك أثرها العميق في جميع مراحل حياتي التالية!!

حين وصلت هناك مع عدد من أصدقائي في معهد المعلمين، لم نكن في الحقيقة سوى أطفال كبار، لا لشيء، إلا لأننا نفتقد الخبرة تماما ولم نجرب

شيئًا حقيقيًا واحدا يمكن أن نشقَّ به الطريق في هذه المساحات المجهولة من ممرات وقاعات المطارات وعيون رجال الأمن وجشع التجار وألاعيب سائقي سيارات الأجرة الخبثاء وأصحاب الفنادق الرخيصة المتبلِّدين.

لا ينطبق على تجربة السفر إلى الصحراء العربية ما ينطبق على فكرة السفر إلى أي مكان آخر، لأن الرحيل إلى الصحراء كان نوعا آخر تماما، وله هدف واحد لا غير: العمل من أجل لقمة الخبز أولا وثانيا وعاشرًا ربما. كان هذا الرحيل مرهونا بشروطه القاسية وبظروفه الأقسى وبعائداته التي لم تكن قادرة على إغراء سوى أولئك المحتاجين، والتي لم تكن تتجاوز (120 دينارا) في الشهر.

لكنني هناك تعلمتُ في تلك العزلة كيف يمكن أن يعيش المرء تحت الصفر ويبقى حيًّا رغم ذلك، كما لو أن الشقاء الذي عشته في المخيم، لم يكن كاملا، فمضي بي بعيدًا باحثا عن كماله!!

هنا انتصبت الشمسُ مقابل ذلك الصقيع الذي كان يمزِّقُ أجسادنا في ليالي البرد، وهنا بلغ الإقصاء مداه حين تم الإلقاء بنا في الصحراء بعد أن عشنا طويلا على ضواحي المدن، وهنا الشوارع الرملية التي لا تنتهي بعد أن تذوقنا طعم الوحل الذي كان يتطاير من أقدامنا الحافية ليبلغ شفاهنا، وهنا، مثل هناك، طعام الأسبوع الوحيد الذي نتذوق فيه طعم اللحم، اللحم الذي لا يستطيع المرء الحصول عليه إلا يوم السّوق، في قرية لا تعرف الكهرباء ولا تمديدات المياه ولا الشوارع المعبّدة، وهنا ذلك الضياع في المكان الذي أنت فيه كما لو أنك لست فيه. لكن الفرق الوحيد أن تراجيديا هذا الضياع كانت متوجة بالوحدة حيث لا شيء يمكن أن تتقيبهاللهيب سوى جسدك، والعزلة سوى روحك العارية، والحُمّى إلّا بما ادخرته من مناعة في معاركك مع أمراض لا تحصى في ذلك المخيم.

كان على المرء أن يكون أمه ووالده وأخوته، وكل أولئك الذين قد يُمَسِّدون جبهته المحترقة حين لا تستطيع يداه أن تقطعا مسافة شاسعة كهذه للوصول لذاك اللهيب!!

لكن تلك العزلة، رغم ذلك، كانت البداية التي لا بد منها، البداية التي لو لم يمتلكها المرء لما استطاع الوصول إلى ما تلاها.

تركب البحر:

قد تصلُ جزيرة

تعبرُ الصحراء:

قد تبلغ واحة

تسكنُ العزلةَ:

قد تبلغ نفسك!!

لكن أفضل ما حدث أنني لم أملأ حقيبتي بالأطعمة المجففة التي أعدَّتها أمي لسفر طويل كهذا، وعلى رأسها الملوخية والفريكة والمريمية والزعتر، بل أوجدت مكانا فسيحا في حقيبتي الضخمة لعشرات الكتب.

كنت على وشك اتخاذ ذلك القرار الكبير: سأكون كاتبًا.

ومن هنا رحت أعلِّم نفسي بطريقة مختلفة، مثل طالب سيتقدم لامتحان في آخر الأمر، وحين أجهزتُ على تلك الكتب استطعتُ الوصول لمكتبة في قرية مجاورة بمساعدة عبد الله مدير المدرسة السعودي، والذي لم يبخل علي بإحضار الكتب كيفما اتفق، وأظنه كان مزهوّا بذلك، وقد تحوّل إلى قارئ استثنائي في عيني مدير المدرسة التي تضم المكتبة!

لم أكن أسأله لماذا أحضرت هذا أو تركتَ ذاك، لأنني لا أعرف على وجه الدقة ما هو موجود هناك.

تدفقت كتب الشعر والتراث والدين والحكايات والتاريخ، وكانت أحدث المؤلفات الموجودة في تلك المكتبة هي أعمال سيد قطب وأحمد أمين!!

لكن الكتاب الأكثر قربا إلى روحي كان (روائع طاغور في الشعر والمسرح) التي نقلها للعربية الدكتور بديع حقي، وكنت حملته معي من عمّان.

لقد حدث الكثير في تلك الأيام، بعضه أدركته وبعضه لم أدركه إلا بعد زمن طويل، ومن ذلك الذي لم أدركه أن حضور طاغور الفاتن المتَّحد بالطبيعة وبجلال الهند وروعتها وخضرتها راح يتسلل إلى روحي وعيني، فلم يمض زمن طويل قبل أن يأخذ إحساسي بتلك القرية (نُقَمَة) يتحوَّل إلى شيء معاكس تماما، تلك القرية التي لم أكن أضع اسمها على عنواني البريدي في رسائلي لأهلي، بل أضع اسم القرية المجاورة الكبيرة (ثريبان) حتى لا يقرأوا الاسم (نَقْمَة) ويكون الاسم وحده نذير شؤم يعصف بقلوبهم التي لم تكن بحاجة لأكثر مما هو فيها من مخاوف.

بعد سنوات من مغادرتي الصحراء أدركتُ أنني كنتُ أخلق وهميَ الخاص بالقرية لكي أحمي روحي، فإذا بحقول الذرة الفقيرة تتحول إلى سهوب السافانا وإذا بالأشجار الشَّوكيّة خلفَ البيت، الملقى على مسافة آمنة!! من القرية، تتحول إلى غابة، ولم يكن صعبًا بالطبع أن أتعامل مع الشروق والغروب ونجوم الليل بالطريقة نفسها التي أحس بها طاغور لأنها النجوم نفسها والغروب نفسه والشروق نفسه رغم كل ما في المشهد الأرضي من اختلاف. لكن المفارقة الأكبر أنني بعد ثلاثين سنة اكتشفتُ أيضا أن طاغور والشعر الياباني والصيني من أقرب أشعار العالم إلى قلبي.

بعد فيض من بكائيات الغربة التي سحقت قلوب شعراء الخمسينات والستينات في العالم العربي وأدركتني في السبعينات، كتبتُ تلك القصيدة

الكبيرة (أحلام قرية حيّة)!! وقد كانت أطول قصيدة كتبتها حتى ذلك التاريخ وتكوَّنت من 120 بيتًا.

حتى اليوم، لم أزل دهشا أمام قدرة المرء على خداع ذاته، أو حمايتها بأي وسيلة، حتى لو أدى به الأمر إلى هذا الفصام المكشوف أخيرًا، كما حدث في (براري الحمى): نطفة الصحراء التي زُرعت في رحم العزلة وغدتْ جنينا كاملا رأى النور عملا روائيا بعد ذلك بسنوات.

في وسط ذلك الموات تم اختراع الحياة في كذبة مكشوفة أمام عينين مغمضتين فرحتين بدقة إغماضتهما في معزل كامل عن أي درجة من درجات الوعي!!

وضعتُ القصيدة في مظروف، كتبتُ عليه عنوان جريدة (البلاد) السعودية، وأرسلتها بالبريد الذي كنا نضعه في عيادة الدكتور في القرية المجاورة، ومنه ينطلق إلى الآفاق حاملا حنيننا وتطميناتنا الفارغة لأهلنا وأحبائنا: نحن بخير طمئنونا عنكم!

بعد أقل من شهر جاء مدير المدرسة حاملا جريدة (البلاد) ضاحكا: يا حظك!! هناك شاعر اسمه إبراهيم نصر الله. تصوّر!! وقد أحضرتُ لكَ قصيدته لترى.

كان قلبي قد بدأ بالخفقان، وراحت يدي المتجهة للصحيفة تهتز وتهتز، وأنا أتساءل: ماذا لو كان هنالك شاعر يحمل الاسم نفسه، يملكه قبلي، احتله، وأيّ اسم جديد سأحشر روحي وجسدي فيه بعد ضياع اسمي؟!

لم تكن هناك مفاجأة أكبر من تلك التي انبسطت بوضوح مُسْكِرٍ أمام عيني (أحلام قرية حيّة) شعر: إبراهيم نصر الله.

التفتُّ لمدير المدرسة وقلت له: ولكن هذا الاسم اسمي.

- أعرف، قالَ لي. إنهُ سميُّك.

- بل هو أنا!! وهذه القصيدة قصيدتي.

نظر إلي كما لو أنني أخون صداقتنا، وقد كنا أصدقاء حقا، وابتعد.

كان لا بد أن يمرَّ زمن طويل قبل أن يعترف بأن صديقه شاعر، كما مرَّ زمن طويل منذ سنوات بعيدة قبل أن يعترف معلم اللغة العربية في الصف الثالث الإعدادي بأن القصيدة التي مددتُ يدي بها إليه بتردد كانت لي.

رحتُ أقرأ القصيدة مرَّة تلو أخرى غير مُصَدِّق أنها نُشِرَتْ، غير مصدقٍ أنهم منحوها هذه المساحة التي تحتل قلبَ الصفحة الكبيرة، لكن تلك الدهشة تطايرت أمامَ دهشة أكبر حين قرأت عنوان الصفحة التي نُشرت فيها القصيدة (الفكر الإنساني)!!! وإلى يسارها موضوع عن (دائرة المعارف الفرنسية الكبرى)!! وإلى يمينها موضوع عن (الوثائق السياسية الإدارية للعصر الأموي)!!.

لقد وقعت الصحيفةُ في فخِّ وهمي وتوَّجتني شاعرًا إنسانيًّا يسمو على القوميات والأديان والأوطان في أول محاولاتي لنشر قصيدة لي.

في شارعنا تثبُ الأزهارْ!!
تسكن ساحتنا القمرية
أجمل أنواع الأطيارْ
فتطير تعانق نورَ الشمسِ
تقبِّلُ خد النُّوّارْ ...
يكفينا أن نملكَ طفلا، حباتٍ من قمح وربيعْ
لنغني للعالم آلافَ الأعوام..

...

في قريتنا.. تمضي الأيام كحلم أخضرَ سحري
التقطُ السُّمسم من كفيكِ كما الحسونْ
أتجوَّل في دنيا العينينْ
وأسافرُ خلف حدود القرية أبحث عن زهر أُهديْهْ

لكِ في أيام عطريّةْ

عن لحن فيك أُغَنْيهْ

كأغاني الطير السحريّةْ

عن قمر يحنو فوق سمائك يحتضن الكوخ المحبوبْ

في ليلة حبٍّ ريفية

لتكون اللحظة حين أراك

أطول من عمر البشرية!!

....

ميلادُ زنابقَ بريَّة

والبسمةُ فوق شفاه الطفلِ الورديّة

كاف أن يجعل نور الشمسْ

يتراقصُ آلافَ الأعوام.

وهكذا أكون قد ولدتُ كاتبا في السفر.

لقد تفتّحتْ روحي في حديقة طاغور، طاغور الذي بدا لي أقرب ما يكون لقديس أو نبيّ منه إلى شاعر. أقرأ أشعاره وسيرته وتفتنني رقته مع الطبيعة، وأتخيله يسير وكل الكائنات تلتجئ إليه لتختبئ تحت عباءته: العصافير والصقور، الغزلان والنمور، الفراشات والصبايا الجميلات والغيوم أيضًا.

أما جائزة نوبل التي لم يكن اسمها يلفتُ انتباهي، فقد كان لها معنى وحيد: طاغور فاز بها!

حديث طائر مع سوينكا

الذين تركوا له الصحو
أخذوا الأحلام كلّها

حين استغرقوا في النوم، لم يَرُقْ ذلك له!! كانوا قد وضعوه في المنتصف، الأب على جانبه الأيسر والأخ الذي يكبره بأربع سنوات على جانبه الأيمن، ولم يكن قد تجاوز الثالثة والنصف من عمره.

رفعَ قدميه، ألصقهما بظهر المقعد الأمامي الذي كان قد تراجع نحوه، لأن الراكب الذي فيه قرر النوم. أنزل قدميه. تقلَّب. كان المقعد ملعبًا لا بأس به مقارنة بحجمه الصغير. امتدتْ يدُه أخرجتْ مجلةَ شركة الطيران الإسبانية. بصعوبة استطاع انتزاعها من مكانها، بصعوبة استطاع تقليب صفحاتها. توقَّفَ عند صفحة ما، حدَّق فيها، حاول أن يُغلق المجلة لكنها أفلتتْ من بين أصابعه، سقطتْ أسفل المقعد تابعها بنظره. كانت بعيدة. وبدا للحظة مرتبكا كما لو أنه ينظر للأسفل من فوق ناطحة سحاب.

تراجع بظهره للوراء. التفتَ يمينا. يسارا. التقتْ نظراتُنا. ابتسمتُ له. لم يُعرْني اهتماما، ولكن وجودي صاحيًا، جعله يُدرك أن باستطاعة الإنسان الذي يركب طائرة ألا ينام، بدليل وجود اثنين، هو وأنا، أما بقية الركاب

في صف المقاعد الطويل، فكانوا يغرقون في نومهم. ولحسن الحظ، لم يكن هناك مَن يُطْلق شخيرًا.

هذا الاكتشاف جعله أكثر جرأة، وقد استطاع كبْحَ جماح رغبته في تبادل ابتسامة مع ذلك الغريب الذي هو أنا.

مال باتجاه والده، لكزه، لكنه لم يصْحُ، رفع رجليه الصغيرتين فوق المقعد، اتكأ عليهما ثم ألقى بجسمه في حضن أبيه، لكن الأب لم يصحُ، (يبدو أن الانتظار في المطار كان كافيًا ليهبط هذا النّوم الثقيل كله عليه) عاد، واتجه إلى أخيه الصغير، امتدت يده إليه، هزَّه، لم يصحُ، ارتفعتْ أصابعه نحو أنف أخيه، أغلقه! بعد لحظات تململَ الأخ ثم لوَّح بيده في الهواء كما لو أنه يطرد ذبابة حطتْ على أرنبته. وعاد لاستغراقه.

ترددت اليدُ الصغيرة، قبل أن تتخذ قرار العودة إلى الأنف ثانية، وكما لو أنها فقدت الأملَ في أن يحدث شيء ما يسرُّ على هذه الجهة، استدارت نحو الجهة الثانية، امتدتْ إلى فم الأب هذه المرة، لكن شيئًا لم يحدث، كان الأب في عالم آخر تمامًا.

اعتدل الطفل في كرسيه، ألقى ظهره للوراء، حدَّق في النّائمين المستغرقين على جانبيه، حانت منه نظرة إليّ؛ حاولتُ أن أبدو وكأنني لم أر شيئًا، وهذا أراحه فيما يبدو. حين نظرت إليه ثانية لم أجده، كان قد اختفى، رحتُ أبحثُ عنه. بعد قليل أطلَّ من الممر الثاني زاحفًا على قدميه ويديه بين المقاعد. حشرَ رأسه تحت مقعد والده. امتدتْ يدُه تحاول الوصول لشيء ما، يبدو أنه عثر عليه، عادتْ فارغة. زجَّ رأسه تحت مقعد أبيه، حاول، ولكن دون جدوى، تراجع، حدق بي، رمقني بنظرة مؤنِّبة. لقد كنتُ مُتطفِّلا فعلًا! راح يزحف باتجاهي، وحين وصل للممر بجانبي وأوشك أن يلامسني انعطف يمينًا، ثم اختفى خلف مقعد والده وأخيه، استيقظت المرأةُ فزعة، حين لامس قدميها الممدودتين، حدَّقت، كما لو أنها تتوقَّع وجودَ قطة مشردة في الطائرة، وجدتْهُ هناك، أشرعتْ عينيها دهشة، نظرَ

إليها وأكمل مشواره بصمت، بعد لحظات عاد، سالكًا الطريق نفسه، ممسكا بحبة (ملبس) من تلك التي توزِّعها المضيفاتُ قبل إقلاع الطائرة بلحظات يبدو أنه عثر عليها تحت المقاعد.

نسيتُه بعد ذلك، وحين نظرتُ إليه أخيرًا، كان مستغرقًا تمامًا في النوم الذي هبط عليه، النوم الذي لا بدّ منه أخيرًا.. نام.

وهكذا سيمضي بقية الرحلة تقريبًا، هما يحاولان إيقاظه، وهو يواصل نومه العميق.

وجودي في المقعد المحاذي للممر، جعل حركتي سهلة، بحيث لم يكن علي أن أُزعج جارتي النائمة، الحالمة باندفاع الأمازون وتعرجاته.

نهضتُ وتجوَّلت، آخذا بالوصايا التي لا تستطيع إغفالها (حَرِّكْ رجليك ما استطعتَ في هذه الرحلات الطويلة وتمشّى كلّما أُتيحَ لكَ ذلك).

كانت عيناي غير قادرتين على المضيِّ أبعد في رواية (حرفة القتل) وقد بدأ الإرهاق يحلُّ بهما مع ذلك الحرف الصغير والمسافات الضيقة بين السطور.

في نهاية الطائرة تناولتُ كوبيّ ماء، مشيتُ موضعيًّا ما استطعتُ، وكان بالإمكان التمتّع بتلك الطمأنينة التي تغمر وجوه النائمين.

لا شيء أروع من أن يكون البشر مطمئنين، هادئين، مثل أطفال رُضَّع أصحّاء بثياب بيضاء ووجوه متورِّدة ينامون بسلام.

ربما يكون هذا هو تعريفي للسّلام والأمن في أسمى حالات تحققهما.

عدتُ، مُحاذِرًا أن ترتطم قدمي بيدٍ، رجلٍ أو امرأة، تدَّلتْ من فوق يد المقعد واستقرَّ جزء منها في الممر، وأنا أتساءل: ما الذي يستطيع أن يفعله شخص لا يستطيع النوم في الطائرة، بعد أن قرأ وشرب وأكل ورأى واسترق النظر لطفل ضاق بالنّوم والنائمين؟ حينما لمحته هناك، في منتصف طائرة الجامبو واقفًا يحاول تحريكَ رجليه أيضًا.

ألقيتُ عليه التحية، وعَرَّفْتُهُ بنفسي، وأخبرته أنه يحظى باحترام كبير لدينا في العالم العربي منذ قرأنا سيرته الذاتية (آكه.. سنوات الطفولة) التي صدرت في دمشق في العام الذي نال فيه جائزة نوبل للآداب.

قلت له: كان الاهتمام بهذه السيرة هو ما جعلهم يترجمونها، وليس مناسبة فوزك بنوبل.

وأسعده هذا.

لا أذكر قبل هذا الكتاب أي كتاب له بالعربية سوى مسرحيته الطريق التي صدرت قبل ذلك بسنوات طويلة عن سلسلة المسرح العالمي، لكن هذه السيرة كانت أول كتاب قرأته لسوينكا بالعربية، وبعد عام ترجم له الشاعر سعدي يوسف روايته (المفسرون) وصدرت في بيروت، ولعلَّ فوزه بنوبل كان الدافع لهذه الترجمة، ثم ما لبثتْ أن صدرتْ في ترجمة ثانية في الوقت نفسه تقريبًا ضمن سلسلة (روايات الهلال) العريقة في القاهرة. ومنذ ذلك التاريخ بدأ سوينكا يصبح جزءا من المشهد الثقافي العربي عبر الترجمات المتلاحقة لكتبه، بحيث تُرجِمَ معظمُ مسرحه، إن لم يكن كله إلى العربية.

أما ما لم أقرأه له بالعربية، فقد كان شعره، ولست أدري لماذا تم تجاوز هذا الأمر من قبل المترجمين العرب.

كان سعيدًا بالمحبة التي بدتْ واضحة في كلامي، والتقدير الكبير له بعد رحلة التضامن التي قام بها لفلسطين، وما كتبه بعد تلك الرحلة، سواء هو أو ساراماغو.

تحدثنا عن الأردن التي زارها، وأبدى رغبة بالعودة لزيارة البتراء بعيدًا عن المناسبات الكبيرة، وقد كان زار الأردن في إطار أحد المؤتمرات الدولية غير الثقافية.

ما يُدهش في الأمر، أن هذا الكاتب الذي بدأ يمخُرُ عبابَ عقده الثامن، يتمتع بهذه الحيوية الدافقة والرشاقة التي يحسده عليها كثير من الشباب.

تحدثنا عن نوبل. فقال لي: إنها جيدة، ولكن أفضل ما يفعله المرء ألا ينتظرها.

قلت: ولكنها أحدثت تغيُّرًا كبيرًا في حياتك بالتأكيد.

قال: نعم.

ثم سألني: لا بد أنك تعمل، لك وظيفة ما، لأن المرء في عالمنا الثالث لا يستطيع أن يعيش من عائدات كتبه.

فأخبرته بطبيعة عملي: إنه العمل المثالي لأي كاتب، في المكان المثالي أيضًا: (دارة الفنون). وهو يتيح لي معايشة أهم التحولات في مجالات الفنون والآداب بمختلف أشكالها ، وفي الوقت نفسه يتيح لي العمل على كتابتي صبحا وظهرًا، لأن ساعات الدوام ما بين الرابعة والسابعة.

: علينا أن نعمل كي نعيش. قال لي. وأضاف تلك هي القاعدة.

ثم رحنا نتحدث عما حدث له في نيجيريا، حين قامت سلطات بلاده باعتقاله منذ سنوات بسبب مشاركته في إحدى المظاهرات، وكانت تلك مناسبة للحديث عن هذا الجهل المرعب لأنظمة العالم الثالث التي لا تعيش سوى على مزيد من الحماقات التي تتبَعُها حماقات.

بعد أكثر من ساعة عاد كلّ منا إلى مقعده بعد أن اتفقنا على لقاء آخر على الأرض!

**

في شتاء عام 1985 كنتُ أتجه لدمشق عبر الحدود البرية، ضمن وفد من رابطة الكتاب الأردنيين للمشاركة في اجتماعات اتحاد الكتاب العرب والمهرجان الشعري المرافق له، حين دعاني أحد رجال الأمن في نقطة الحدود الأردنية كي أتبعه إلى الغرفة الضيقة الصغيرة، وما إن وصلتُ إلى هناك حتى طلب مني أن أُخْرِجَ كل ما في جيوبي من أشياء وأضعها على الطاولة أمامه.

بصمت، وغيظ، فعلتُ ذلك.

تصفَّح الأوراق، النقود السورية والأردنية التي بحوزتي، ويده تهزُّ جواز سفري.

سألني عدة أسئلة بلا معنى، في بحثه عن سبب يبرر قَطْعَ رحلتي، عن (أولئك) الذين سأُقابلهم في دمشق من رجال التنظيمات!! وما الرسالة التي أحملها إليهم؟! وعبثًا رحتُ أردّدُ أمامه تلك الجملة التي بلا معنى! إنني واحد من أعضاء وفد رابطة الكتاب الرَسمي الذي يسافر في مهمة أدبية رسمية. لأن آخر ما كان يريد أن يسمعه سبب منطقي يعرفه أكثر مني! بعد خمس دقائق طلبَ مني أن آخذ أوراقي وأن أُراجع مقرَّ المخابرات العامة في عمّان لاستلام جواز سفري من هناك.

وعندها أدركتُ أن رحلة الألف ميل السوداء قد بدأتْ.

عدتُ إلى الوفد المترقِّب باحثًا عن حقيبتي، أخرجتُها من صندوق السيارة المُنْتَظِرَة، سحبتُها أمامَ صمت الزملاء، وخجل أحدهم البادي!! وبإيجازٍ شرحتُ لهم أنهم صادروا جواز سفري ومنعوني من إكمال الرحلة.

كان منعُ الناس من السفر هو أكثر الأمور شيوعًا في تلك الأيام، وكذلك منعُهم من العمل، وهو العقاب الفردي- الجماعي الأشد قسوة لأنه لم يكن يطال الشخص وحده بل لقمة خبز أطفاله وأسرته أيضًا.

حاولتُ أن أتصرفَ ببرود، كي لا أُلزِمَ أحدًا بشيء. ودَّعتُ الفريق بصمت، وبدأتُ رحلة العودة المضنية إلى عمّان.

كان مجرد وجود المرء في نقطة الحدود باحثًا عن سيارة تعيده، مشكلة كبيرة بحدِّ ذاتها، إذ تأتي السيارات من سورية ممتلئة عادة.

بعد وقت طويل، أتت حافلة تُقِلُّ فريقًا رياضيًّا أردنيًّا، استطاع أحد رجال الشرطة أن يجد لي مكانا بينهم. بصعوبة، حشرتُ حقيبتي بين المقاعد، وتابعتُ الرحلة صامتًا، متكدِّرا بين فريق منتصرٍ لا يتوقف عن ترديد الأغنيات!!

كانت وجهة الحافلة مدينة (إربد) القريبة من الحدود، ومن هناك رحتُ أبحثُ عن سيارة تقلّني إلى عمّان، ولم يكن العثور على واحدة من الأمور الصعبة.

كان ذلك اليوم بداية طريق طويل عليَّ أن أعبره، ولم يكن له أن ينتهي إلا مطالع عام 1990.

ولعل هذا الحصار الذي فُرِضَ عليَّ خلال تلك السنوات كان له أكثر من أثر، لكن الأمر المؤكد أنه زادني اندفاعًا، بحيث واصلتُ كتابة أكثر القصائد جرأة في مسيرتي الأدبية، مثل (الفتى النهر والجنرال) و (أحوال الجنرال) ورواية (عو) وعددًا من القصائد والأغنيات التي كتبتُها لفرقة بلدنا وساهمتْ بشكل كبير في صياغة وجدان قطاعات كبيرة من الطلبة والناس الذين التفّوا حولَ هذه الفرقة التي باتتْ تُشكِّل أخطرَ وأهمَّ ظاهرة فنية سياسية تقدمية في الأردن في تلك الفترة.

أتساءل دائما: كم من الأسفار حرمني هذا المنع الجائر؟ الأسفار التي كان يمكن أن تشكّل جزءا أساسا من تجربتي الإنسانية. كم من بلاد حرمني وكم من بشر؟ وقد كنت تلقيت خلال تلك السنوات المقفلة دعوات كثيرة من بينها الصين، هذا البلد الذي أتوق لزيارته.

**

في طريق عودتي لمقعدي عبر الممر الضيق، كانت المفاجأة الجميلة: وجود الشاعر المصري الصديق حلمي سالم على الطائرة نفسها. حلمي الذي ستكون رحلة العودة معه، من مداين إلى بوغوتا فمدريد، الرحلة الجميلة التي أتاحت لي لأول مرة أن أعرف حلمي سالم إنسانا، بعد أن عرفته شاعرا، ولم يكن الزمن قد أتاح لنا من قبل سفرا مشتركا كهذا.

محشورا في المقعد الملاصق للنافذة، كان حِلمي، وبجانبه مسافر نائم، بحيث لم يكن باستطاعتنا أن نقول الكثير، اكتفينا بكلمات قليلة مهموسة، كي لا نُقْلِقَ راحةَ (الجميل النائم).

عدتُ إلى مقعدي.

كان الطفل يغط في نومه، وكذلك الفتاة التي إلى جانبي.

حاولتُ نومًا، لم أستطع، كلُّ ما كنتُ أستطيعه هو إغلاق عينيَّ للحظات، ثم العودة لأشرعهما من جديد، وهكذا، إلى ما لا نهاية.

لكن الأمر كان أرحم بكثير من تلك الليلة التي أمضيتها ذات حُمّى في مدينة (الطَّائف)!!

ليلة (الطَّائف)

يُعرف الموتُ باسمه
بشحوب الطريق الذي سيوقد دمعتكِ
بحنينه لما في حنينكِ لي من ندى
من وقوفي على حافته حيًّا وأنا أنظرُ إليه

كل تجاربي في العثور على جفنين لا بدّ منهما للنوم، لا تعادل في قسوتها ليلة واحدة أمضيتها ذات يوم في مدينة (الطائف)، إنها الليلة الأكثر قسوة، حتى، من ليالي المخيم، حينما لم نكن نملك الغطاء الكافي فنتزاحم تحت لحاف واحد بعد معركة طويلة حول من ينام في المنتصف، ونتشاجر عندما نصحو وكلّ منا يعلن براءته من تلك البقعة الرطبة فوق الفراش!! أو تلك الليالي التي يفاجئنا فيها أحدُ الضيوف فنضطر للتخلّي له عن لحاف من تلك التي كانت تصنعها أمي من قماش قديم يتم طحنه ومن ألبسة باتت تُظهر من أجسادنا أكثر مما تُخفي أو من قماش تم جَمْعُهُ من قصاصات الخياطين، وقد كان هذا اللحاف هو سيُّد الأغطية جميعها، أو حين وجدنا أُسْرَةَ جدّي بعد حرب حزيران في حوشنا هائمةً لا تملك شيئا بعد أن طردت من منزلها في مخيم (العَزَّة) بمدينة بيت لحم، أو بعد ذلك بأقل من سنتين حين جاءت

أسرة خال أبي الذي أحبه كثيرًا نازحة من منطقة الكرامة بعد تلك المعركة الشهيرة.

كانت ليلة الطائف شيئًا آخر تمامًا.

فبعد أن فشلتْ كلُّ أنواع العلاج في قهر حُمّى الملاريا التي أطاحتْ بي في منطقة (القُنْفُذَة) ومن بينها الدواء الأقوى: (الروزوكين)، كان لا بدَّ من علاج في المدينة الأقرب، وكانت الطّائف.

في صندوق سيارة (الهاي لوكس) ألقوا بي مُدَثَّرًا ببطانية قبل شروق الشمس بقليل، كان ذلك هو الوقت الأنسبُ للانطلاق عبر الصحراء بعيدًا عن سطوة الشمس التي لا ترحم البشر أو الحجر في تلك الامتدادات.

بعد ساعات كانت السيارة تتسلقُ جبال (عَسِيْر) صاعدةً (عقبة بلجرشي)، ومع صعودها كان الهواء يُصبح أكثر برودةً شيئًا فشيئًا، ولم يكن هذا غريبًا، فقد كان بإمكاننا أن نرى الغيوم بأعيننا المجردة تحت تلك القمم.

في الصندوق الحديدي كانت تندفع الأشياء نحوي بين حين وآخر وترتطم بي بشدة، ولم يتغيّر الوضعُ إلاّ بعد أكثر من خمس ساعات حينما استطاعتْ العربةُ بلوغ ملتقى الشارع الجبليّ الترابيّ مع الشارع الرئيس الممتدِّ أسود إلى ما نهاية.

بين إغفاء وصحو كانت الأشياء تختلطُ، والناموسة التي تركتُها هناك خلفي، بعيدًا، تذرعُ فضاء البيت، لم تزل تتبعني إلى هنا وتُغِيْرُ كما لو أنها طائرة فانتوم.

كنا نظنُّ أن وصولي للمدينة وبلوغ المستشفى سيكون نهاية المطاف، لكن ذلك الحلم تكسَّر بمجرد أن رفضوا إدخالي المستشفى إلا بعد إجراء التحليلات اللازمة ليروا إذا ما كنت بحاجة لمستشفى أم لا.

شاحبًا، مرهقًا، على وشك الانهيار، اتكأتُ على كتف السائق وبصعوبة عدتُ للسيارة.

- سنجد فندقًا تنام فيه الليلة، وفي الصباح تعودُ إلى هنا. وعندما أعودُ من (مكة) مساء غد أمرُّ عليك في المستشفى!!

بعد أقلَّ من ربع ساعة كنّا على باب أحد الفنادق، لكنهم رفضوا إعطائي أيَّ غرفة بسبب عدم وجود جواز سفري معي أو وثيقة الإقامة.

وكان الأمر معروفا لنا كما هو معروف للجميع: حينما تصل تُسَلِّم جواز سفرك لإدارة التعليم، ويرسلون بعد فترة وثيقة الإقامة لك. لكنها كانت قد تأخّرتْ لسبب ما.

ذهبنا نبحثُ عن فندق آخر، ونحن لا نعرف تلك الحكمة التي تقف وراء احتفاظهم بجواز السفر، تلك الوثيقة المهمة التي لا يسهل، أحيانا، العثور عليها بعد تسليمها؛ وقد كانت حكاية أحد المعلمين معروفة تمامًا في المنطقة كلّها، والتي تقول: إنه ذهب لاستلام جواز سفره في نهاية العام فلم يجده، وبعد بحث دامَ أيامًا كثيرة، بدأ يشكُّ خلالها في نفسه إن كان سَلَّمَ الجوازَ أصلا أم لا، كما كان الموظفون يرددون، عثروا عليه، صدفةً، وقد وُضِعَ تحت حافة طاولة معدنية ليوقِفوا به اهتزازها!!

كل ما دار من حديث مع موظف الفندق الأول تكررَ مع موظفي الفنادق الأخرى، والذين كانوا غالبًا من المغتربين مثلي، لكن الأوامر واضحة (لا سرير لمن لا جواز له).

لست أدري كيف وصلنا أخيرًا إلى محلّ الحِدادة ذاك؟ كيف توقفنا أمامه؟ كيف نزلنا؟ كيف دارَ الحديث فتوصلنا إلى ذلك الحلِّ الغريب؟ أن يدعني أنام في المحل ما دمتُ أملكُ بطانيةً. يُغلقه ويعود إليَّ صباح اليوم التالي أبكرَ من المعتاد.

كان يغلق محله في السابعة مساء، لكنه، ومع سوء حالتي، قرر أن يبقيه مفتوحًا حتى الثامنة.

- وماذا لو ماتَ داخل المحلّ في الليل؟ همسَ للسائق.

- سأكون شاهدك وحقّ الله!! أجاب الأخير. ولكن لا عليكَ لقد احتملَ كلَّ هذا السفر من (القنفذة) حتى هنا. إنه شاب وسيحتمل!

لكنني متُّ!!!

حين بدأ الباب الحديدي ينزلق نحو الأسفل مُصْدِرًا ذلك الضجيج، تلاشى الضوء تمامًا بعد لحظات.

أعتم كل شيء، وبدا الأمر كما لو أن الكائن الوحيد الفرح بهذا هو الحُمّى، الحمّى التي أدركتْ أنني أعزل كما تشتهي أن أكون، وهكذا انقضتْ، وقد خلا لها الجو، على جسدي تمزقه إربًا، وتنثرُ أعضائي في الفضاء وتطحن حواسّي وعقلي وقد حشدتْ كلَّ بعوض العالم كي يأخذ ما يحتاج من دم جسدي ويزرع ما يريد من لهيب فيه.

سنوات طويلة ترامى الليل، وامتدت العتمة إلى ما لا نهاية.

حين سمعتُ ضجة الباب في الصباح وتقدَّم صاحب المحل نحوي لم أكن أُميِّز بين قامته وقامات تلك الوحوش التي تناهشتْ جسدي في احتفال الكوابيس بعثورها على ذلك الكائن الأعزل.

كان الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله هو تحريك جفنيّ.

حين رآهما تنفس ملء صدره، اقترب مني فَرِحًا وسمعته يقول: الحمد لله.

**

كنت أعتقد أنني نجوتُ، رغم أن تلك التجربة كانت تطاردني كظلّي، ومع مرور السنوات أصبحتُ أكثر يقينا بأنني نجوتُ فعلا، فها أنا خارج حلقة الرُّعب تلك، خارج الحُمّى وخارج ذلك الموت الفقير الذي لا يشير إلى أي حياة تليه!! كما لو أن الملائكة لن تفكر فيّ أثناء صعودها وهبوطها

للسماء أبدًا، الملائكة التي ستتركني هنا وحيدًا على تل أجردَ تعصف به الريح وتحرقه الشمس، كما عشتُ هنا تماما.

كنت أعتقد أنني نجوتُ، إلى أن سمعتُ جرس الهاتف يرن بعد خمس وعشرين سنة، ركضتُ إليه، رفعتُ السماعة، وعندها أدركتُ أنه استطاع النيل مني أخيرًا: لقد استطاع الوصول لأختي (سهام) التي كانت برفقة زوجها في تلك البراري، استطاع التسلل من تلك الغفوة التي احتلَّتْ جسدَها على السرير نفسه الذي شهد انبثاق حياة جديدة من رحمها بعد أن أنجبت طفلها الجديد في ذلك المستشفى.

نامت، وقبل أن ينتبه أحد، أصابها ذلك النزيف، الذي راح يسحبها نحو غيابها ببطء مجنون، إلى أن فارقت الحياة.

سأراها دائمًا تنهض ساخطة، فجأة، تلعن نفسها، لأن النوم أخذها بعيدا دون أن تنتبه، النوم الذي رماها بذلك النسيان المرّ، النسيان الذي جعلها تنسى طفلها.

تنهض، لا تراه، تسير وحيدة في الممرات الأكثر بياضا مما كانت في أي يوم من الأيام، إلى أن تصل لتلك الغرفة حيث يضعون المواليد الجدد، تشير للممرضة وهي تنقر على الزجاج: ذلك ابني!!

وتظل تدق وتدق دون أن يسمعها أحد.

وصـول غسان

في الشوارع كل الحكايات التي فرَّت هاربة من زوايا البيوت.

في الشوارع،

لا شيء غيرها،

وهي تبحث دون كلل عن بدايات جديدة.

بين فترة وأخرى يتاح لي أن ألتقي أصدقاء مـن أولئـك الـذين واصـلوا العيش هناك، ومن بينهم ثلاثة آمنوا بأنني سأصبح كاتبًا، اتفقوا فـيما بيـنهم وقـرروا إصـدار ديـواني الأول عـلى نفقـتهم الخاصـة! وقـد كـانوا جمهـور قصائدي في تلك الليالي، مفضلينها على سماع الراديو الذي لم نكـن نـستطيع التقاط موجاته بوضوح إلا في الليل.

على ظهر دراجة نارية مـن نـوع (ياماهـا) زرقـاء، كتبـتُ عـلى لوحتهـا المعدنية فوق (رفرف) العجل الأمامي بيت جبران خليل جبران الشهير:

(إنما الناسُ سطورٌ كُتِبَتْ لكن بماء)

على ظهر هذه الدراجة قطعتُ سبعة عشر ألف كيلو متر في تلك البراري الحجرية والصحراوية عابرا مرات (شِعاب الجوع) وصاعدا أحيانـا (عقبـة بلجرشي) و(عقبة محايل) في زياراتي لهم ولسواهم.

ولن أنسى تلك الرحلة إلى مدينة (جيزان) وتلك المغامرة الكبرى التي خضتها، وسط جو من الرعب، كي أرى فيلما سينمائيا في بلد لم تزل العروض السينمائية فيه ممنوعة حتى اليوم!

دخلنا أزقة، قفزنا من فوق جدران، وتلفتْنا وراءنا خائفين من أن يكون هناك من يتبعنا، تصببنا عرقا وخوفا ونحن نرى مصيرنا مُعَلَّقا باحتمالية القبض علينا مُتلبسين بمشاهدة فيلم!!

لكنّا في النهاية نجحنا وشاهدنا ذلك الفيلم العربي (جعلوني مجرما)!! الذي كنا شاهدناه من قبل كثيرا. شاهدناه كما لو أننا نشاهده للمرة الأولى، وفرحنا بت، ببطله (فريد شوقي) الذي كان نموذج البطولة في طفولتنا.

...

كانت الدراجات النارية وسيلة تنقلنا الوحيدة الناجحة.

تهدر محركات الدراجات صاعدة نحو البيت الذي أسكنه فأعرف كل واحد منهم من ضجيج محرك دراجته، فأقول لقد وصل محمود أو حسين على ظهر (الهوندا) أو عدنان على ظهر (السوزوكي)!!

لقد بتنا خبراء في تمييز أدق الأصوات التي تحيط بنا، وتلك حاجة لا بد منها في هذه القرى التي لم يكن أهلها أفضل منّا حالا، وكنت أراهم في بعض الاحتفالات التي تقام يخبئون، في أكياس يأتون بها معهم، حصصهم من اللحم من أجل أولادهم الذين لا يُسمح لهم بالحضور!!

بتنا خبراء في معرفة وقْعِ خُطى القرد من خطى الثعلب من خطى الضبع في الليل حيث لا مكان نقضي فيه حاجتنا سوى الخلاء الذي يحيط بالبيت من جميع الجهات.

بتنا خبراء في معرفة رفيف أجنحة الوطاويط من رفيف أجنحة أي طائر آخر، ونستطيع التفريق جيدًا بين فأر يركض بين الأغصان التي تشكل

سقف البيت مطمئنًا، من الفأر الذي يركض وخلفه أفعى تريد الإمساك بت، فَزِعًا.

في البداية كان يرعبنا ذلك، أفعى في السقف فوق الرأس تماما تجري وراء فأر، ماذا لو أنها غيّرت رأيها! ماذا لو أن حراشفها زلّت فسقطتْ أو أن الفار سقط فوقنا فتبعته؟! لكن، وطيلة وجودنا هناك، لم يحدث شيء كهذا، وفي مناسبتين متباعدتين سقطتْ أفعى على بعد أقلّ من شبر واحد من وجهي حينما كنتُ أقوم بتصليح ثقب في إحدى عجلتي دراجتي النارية تحت شجرة كبيرة، وفرَّتْ هاربة تاركة المفاجأة تهزّني؛ وفي المرة الثانية، أثناء ممارستي الصيد ببندقية صغيرة خلف البيت في حرش شبه شوكي، وكان الأمر أكثر قسوة لأن قميصي في ذلك النهار كان شبه مُشْرَع وكان يمكن أن تسقط في عبّي تمامًا.

حسين لم تقترب الأفاعي منه، وذاتَ يوم، وكان أكثرنا اعتناء بأناقته وشَعره، دسَّ ساقيه في بنطال الجينز، وفجأة انطلق صارخًا. لقد كانت عقرب بانتظار إليته في الداخل. لكن الأمور مرَّت على خير بسبب قُرْب العيادة التي كانت منزل الطبيب في آن.

كان حسين غارقًا في حكاية حبٍّ صافية في تلك الأيام، مثلي، وإن كانت حكاية حبي متوَّجة باليأس أكثر بسبب اختلاف الدين، وبدتْ نهايتها شبه معروفة منذ البداية، إلا أن ذلك لم يمنع من أن نواصل المقاومة بكل الطرق الممكنة، وهذا ما جعلني مع حسين أكثر زهوا بين جميع أصدقائنا، وخاصة، في ذلك اليوم الذي تصل فيه رسالة حب، كان لا بد أن تكتب عليها الحبيبة اسم رجل كي لا تُصبح عرضةً للعبث. لكن رسائل الحب المتبادلة تلك، كانت تمرّ على هؤلاء الأصدقاء فيقرأونها ويبدون ملاحظاتهم الدقيقة ورؤاهم للمصير الذي ينتظر كل علاقة.

ولعلهم لم يخطئوا كثيرًا، ففتاتي تزوَّجت قبل أن أعوداً في حين استطاع حسين تحقيق حلمه بالزواج من فتاته، وبعد أعوام قليلة من مغادرتي

السعودية، وأثناء عودته للأردن فَرِحًا، انقلبت السيارة الجديدة التي اشتراها فانفتح بابها وطارت امرأته الحامل في شهرها الثامن في الهواء، وحين تمكَّن حسين من الوصول إليها، لم يكن هنالك أي خدش في جسمها، لقد سقطتْ على كُثَيِّب رمل تلقّاها كما لو أنها كرة، فَرِحَ حسين بذلك إلى أن رأى خيط الدم المنساب على إحدى ساقيها، وبعد زمن طويل لم تصل فيه أيّ سيارة أو تمتد فيه أي يد، ماتت بين يديه بسبب نزيف داخلي شديد.

**

سألني حسين فيما بعد: ولكن كيف استطعت الإفلات من تلك الشِّباك التي سقطنا فيها إلى الأبد.

فأجبته: لأن غسان وصل.

سألني مستغربا: غَسان مَن؟!!

فأجبته: غسان كنفاني.

فقال لي: ولكنه استشهد حينما كنا في المرحلة الثانوية؟

فأجبتُ: أعرف، ولكنه وصل.

عندها أدرك معنى كلامي فهز رأسه.

- ولكن ما الذي عناه ذلك الوصول؟

- لأول مرة أدركتُ المتاهة التي أعيش فيها.

**

لم أكن قد قرأتُ من قبل الكثير لغسان كنفاني، بعض قصصه، وقصصًا للكاتبة الفلسطينية الرائدة سميرة عزام، التي تركت أثرا قويا عميقا في داخلي، ويعتبرها غسان أستاذته في فن القصة.

بدأت على الفور بقراءة مجلداته التي وصلتني عبر صديق هناك، من المعلمين المغتربين أيضًا؛ وفيها، اكتشفتُ أن أبطال روايته (رجال في الشمس) الذين ماتوا في ذلك الصهريج على نقطة الحدود الكويتية في

سعيهم المحموم للوصول إلى لقمة الخبز بأي وسيلة، اكتشفتُ أن أولئك الرجال قد تركوني في الخزان حيًّا، وأن (أبو الخيزران) قائد الصهريج والمُهَرِّب الكبير لم يلحظ وجودي، وأنني منذ ذلك اليوم أعيش في ذلك الصهريج وأسافر في ذلك الصهريج وأنام وأعدو وراء لقمة الخبز في ذلك الصهريج وأحلم أحلامي الكاذبة بـ (قرية حيّة) في ذلك الصهريج.

راحت حرارة الشمس تصبح أكثر جنونًا بعد قراءتي له، والصحراء تصبح أكثر اتساعا ولقمة الخبز مُرَّة كما لم تكن من قبل، وتحوّلت العتمة إلى كيان معدني هائل لم يترك لي غسان كنفاني خيارا آخر سوى أن أدقه.

إنها عودة الوعي.

عودة للملمة الذات من تشظّيها

من فصام العقل والأحاسيس المزوّرة

اندفعتْ قصائد الغربة ثانية لتحتل المساحة الأساس من كتاباتي:

يا ليلي الغارق في الغربة

وبموج البحر

وعلى عتباتك مكسورًا

ينتحر الفجر

ووصل الأمر حدّ أنني، وتحت تأثير هذه الجرعة(الكنفانية) الكبيرة التي وضعتني في مرحلة ما بعد الصحو، أن بدأت التفكير بكتابة رواية.

وبدأت فعلا.

لكنها لم تكن أكثر من وصف حزين لواقع أكثر حزنًا، بكلمات تملك العينين وتنقصها البصيرة!!

وضعت رغبتي الملحَّة بكتابة رواية جانبًا واندفعتُ نحو الشعر أكثر، وفي تلك الفترة وُلِدَتْ قصيدة (المبعوث رقم واحد) التي فاقت (أحلام قرية حية) طولا.

**

كان صدور ديواني الأول (جسدي كان الغربال) الذي كتبتُ معظم قصائده في تلك الغربة، حدثًا كبيرا في حياتي حين عدتُ من هناك، غير عابئ بشيء، لا بالرواتب التي قفزت إثر انتعاش سوق النفط، ولا بنصائح أصدقائي الذين نصحوني (بتكوين نفسي)!! قبل العودة إلى عمان.

قررتُ أن أبدأ من الصفر، وبدأت منه فعلا حين قَبِلتُ براتب شهري مقداره خمسة وأربعون دينارًا في جريدة الأخبار الأردنية التي كانت تصدر في تلك الأيام.

بعد فترة أدركتُ أنني لم أعد من هناك بعد، لأن الأثر الذي تركتْهُ تلك التجربة لا يُمحى أبدًا، فرحتُ أحاول مرة بعد أخرى كتابةَ التجربة شعرا، لكنها كانت عصية على ذلك، كانت بحاجة إلى أفق آخر يتسعها، ومنذ عام 1978 حتى عام 1982 لم أتوقف عن المحاولة، وكنت خلال هذه الفترة قد أصدرت عام 80 (الخيول على مشارف المدينة) الذي رسَّخني شاعرًا وبقوة، ثم (المطر في الداخل)، وأنجزت القصيدة الديوان المكونة من 33 قصيدة (نُعْمان يستردُّ لونه) لكنني لم أنشره إلا عام 84. ونلتُ جائزتي أفضل ديوان شعري 1980 و 1982و 1984 بعد ذلك!!

لقد كانت براري الحمُى بحاجة لتلك الرحلة كي تُعاش ولكنها كانت بحاجة لثقافة أخرى كي تولد.

بعد عودتي من هناك أدركتُ أنني بحاجة لأن أُعلِّم نفسي أكثر، وقد خسرتُ فرصة الالتحاق بجامعة بيروت العربية (بالانتساب)، رغم أنني سجلتُ فيها طالبا وقرأت المقرر كلّه وأعددتُ نفسي لأداء الامتحانات في صيف عام 1977، لكن اندلاع أوار الحرب الأهلية اللبنانية حال دون ذلك. فوضعتُ برنامجًا مُرَكّزًا لقراءة آداب العالم والدراسات المكتوبة عن هذه الآداب.

انطلقتُ من مرحلة جلجامش وأساطير بلاد الرافدين ووادي النيل، والملاحم الإغريقية والمسرح الإغريقي، صعودًا إلى الأدب العربي القديم، المسرح الكلاسيكي، بدءا من شكسبير وغوته حتى تشيخوف وصولا لمسرح العبث: بيكت، برانديللو، يوجين أونيل، يونيسكو، إدوارد إلبي، إلى هارولد بنتر، ثم انطلقت للرواية، وفعلت ما فعلته تماما مع المسرح.

لقد اكتشفت أن هنالك الكثير مما ينقصني، وفي مرحلة لاحقة أُغرمتُ بحكايات وميثولوجيا الشعوب، وعادت السينما لحياتي بصورة أكثر عمقًا حين بدأت بتخصيص أسابيع لأفلام إيليا كازان، ديفيد لين، كوبولا، وأفلام لممثلين بعينهم.

وحين وصلتُ إلى أنني لن أستطيع كتابة تلك التجربة القاسية أبدًا!! أطلَّتْ تلك الجملة الافتتاحية لرواية (براري الحمّى) وكنت بجانب دائرة الجوازات في جبل عمان، حيث كنت أعمل مندوبا صحفيًا في تلك الأيام يتنقّل من مؤسسة إلى مؤسسة للحصول على خبر باهت من دائرة العلاقات العامة فيها.

توقَّفتُ وكتبتُ تلك الجملة (بمجرد أن قالوا لي إنني قد متُّ وأن علي أن أدفع مائة ريال مساهمةً مني في نفقات دفني أدركتُ أن هنالك مؤامرة تحاك ضدي).

وبمولد هذه الجملة، ولِدَتْ الرواية، حيث كتبتها خلال عشرة أشهر متواصلة، لكنها لم تصدر إلا عام 1985، أي بعد ثلاث سنوات من إتمامها.

**

لسنوات طويلة اعتقدت أنني قلتُ ما أريد قوله حول تلك التجربة في تلك الرواية، لكنني فوجئتُ أن باستطاعتي كتابة كتاب آخر عن تجربتي تلك أثناء استعادتي لهذه الذكريات!! فهناك الكثير الذي يمكن أن يقال في تلك الرحلة التي فقدتُ فيها الكثير، وليس آخره سرقة جزء من رواتبي من قبل زميلي في الغرفة (ابن شيخ مسجد) خلال رحلة العودة، دون أن

أستطيع فعل أي شيء، الزميل المُغترب نفسه الذي سيُلقى عليه القبض في مدينة (الرياض) بعد سنتين متلبِّسا بسرقة أموال زميل آخر له.

هناك الكثير الذي يمكن أن يقال في تلك الرحلة التي فقدتُ خلالها الكثير، واكتشفتُ فيها نفسي وربحتُ هذه النفس وقد استطعت العودة من هناك مُغْلِقًا أذنيّ، غيرَ عابئ بصوت تلك (النداهة) التي تجوب الصحراء مرددة أسماءنا، نتبعها، فتلتهمنا دون رحمة.

مفاجآت

الليل الهابط من أعالي السماء

الليل الراكض على حواف الطرق

القافز من غابة إلى غابة

أكان يحاول أن يسرق حصتي

من ذلك الضوء الذي ينتظرني هناك.. في قلبك

راح يشد على يدي بقوة في بهو مطار مدايين وهو يصيح: (لامانو.. لامانو.. بيوتيفوول).

فهمتُ الكلمة الأخيرة، لكنني لم أستطع فهم الكلمة التي ردّدها مرتين إلا بعد أن فَرَدَ الصفحات أمام عيني وأشار لذلك الشيء الذي أثار إعجابه، ولم يكن غير قصيدتي (اليد) التي تمت ترجمتها للإسبانية.

كانت (لامانو) الكلمة الإسبانية الثانية التي أعرفها بعد (أميغو) لكن الزمن الذي يفصل بين معرفتي للأولى ومعرفتي للثانية لم يكن أقل من أربعين عامًا!

ها أنت، وخلال أربعين عامًا لم تستطع أن تتعلم أكثر من كلمتين في اللغة الإسبانية.

حقيبتي الصغيرة كانت في يدي. لقد قررتُ منذ زمن طويل أن أسافر بحقيبة صغيرة عندما أتّجه لبلاد بعيدة تستوجب تغيير محطات السفر أكثر من مرة. مع حقيبة صغيرة تكون أكثر اطمئنانًا وأكثر خفّة. اعتمدتُ هذا الأمر في رحلة كوريا، وكانت النتيجة مُرْضِيَة تمامًا.

وجود حقيبتي في يدي منحني الوقت الكافي للحديث مع أولئك الشباب الثلاثة الذين كانوا بانتظارنا. بينما كانت أعين الجميع تبحثُ عن قامة حلمي سالم التي تطلُّ حينًا وتختفي حينًا وهو يبحث عن حقيبته الكبيرة على الحزام الدوّار.

كانوا في عجلة من أمرهم، لا لشيء، إلا لأن أمسيتي الأولى قد بدأتْ قبل نصف ساعة من الآن، وأن عليَّ اللحاق بها.

....

في بوغوتا، كان هنالك رجلان من السفارة المصرية في انتظار حلمي سالم لتسهيل متابعة سفره بالطائرة التالية، التي تقلع بعد ساعة لمداين، وكان الأمر مفرحًا لي، لأنه يعفينا من حيرة الغريب في البلاد الغريبة حين تطأ قدماه أرضها للمرة الأولى.

التفتُّ، لمحت سوينكا وراءنا في الطابور الطويل المجاور، وكنتُ أخشى أن نفقد الطائرة فنضطرّ لانتظار الطائرة الثانية التي تقلع بعدها بساعة. همستُ لأحد الرجلين أن معنا كاتبًا آخر، فاندفع نحو سوينكا وحمل جواز سفره ومضى نحو شباك زجاجي صغير لاستكمال إجراءات دخولنا.

لست أدري، كم سفارة يمكن أن تفعل هذا مع أحد كتّابها.

كان الأمر مثيرًا للإعجاب.

بسهولة انتهى كلَّ شيء، ولكنهم أخبرونا أن علينا انتظار الطائرة التالية، لأننا لن نستطيع اللحاق بطائرتنا. وهكذا كان لا بدّ من ساعة أخرى نمضيها في المطار الداخلي الصغير الذي انتقلنا إليه بالحافلة.

بحثنا عن سوينكا بعد أن أخذ جواز سفره. لم نعثر عليه.

**

حين أطل حلمي سالم أخيرًا، انفرجت أسارير أولئكَ الذين ينتظروننـا. بسرعة توجهنا إلى الخارج حيث سيارة (الدايو) الصغيرة في انتظارنا.

قال حلمي: أنت الأطول. اجلس في المقدمة.

جلستُ، وعندها اكتشفتُ أن السيارة الصغيرة كانت أصغر من أن تحتمل خمسة أشخاص احتشدوا فيها بصعوبة. لكنها كانت قوية بحيث راحت تشقُّ طريقها برشاقة استثنائية تحسدها عليها السيارات الكبيرة.

ليل، وشوارع ضيّقة معتمة وسائق يسابق الزمن للوصول إلى مكان الأمسية الشعرية قبل فوات الأوان، والقصائد التي سأقرؤها اختارها (جون سوسا) بنفسه من بين خمسين قصيدة تُرجمت لي. لم يكن باستطاعتي أن أعترض، كان ما يشغلني حتى تلك اللحظة هو كيف سأتمكن من القراءة بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية المستمرة ما بين انتظار وتحليق، منذ أكثر من عشرين ساعة متواصلة. لكن الأمر كان بالنسبة (لسوسا) أشبه بمهمة عسكرية حُدِّدَتْ ساعةُ صفرها وعلينا أن ننفذها دون جدال. (سوسا) الذي تمَّ اختياره قارئا لقصائدي طيلة أيام المهرجان.

بعد قليل راحت السيارة الصغيرة تندفع بقوة مع انحدار الشارع، وبين حين وآخر كانت أضواء المدينة في القاع تظهر وتختفي.

ليس ثمة ما يمكن أن تدرك وجوده هنا غير العتمة والأضواء الضعيفة للسيارة التي تتناسب مع حجمها، وحين راحت تندفع للأسفل بقوة أكبر، أدركتُ أن عليّ التشبُّث بأي شيء، بكل شيء تستطيع يداي الوصول إليه أو تستطيع قدماي الانغراس فيه.

جَسُورًا كان السائق، لم يترك سيارة أمامنا إلا وتجاوزها بجنون استثنائي، ولم يُبْقِ منعطفًا إلا ودار معه غير عابئ بانحراف السيارة أحيانا إلى أقصى

يسار الشارع المحاذي للهوَّة، ولم يكن الطريق سوى سلسلة متتالية من منعطفات لا تنتهي، منعطفات ليس هنالك أكثر من ثلاثين إلى سبعين مترًا تفصل الواحد منها عن الآخر.

لم تكن تلك المنعطفات تعني له أي شيء.

التفتّ إلى حلمي المحشور بين جسدين في المقعد الخلفي وقلت له: إحمد ربك. فلو كنت مكاني لأصبت بسكتة قلبية.

وقد كان حدثني عن نجاته من جلطة كادت تودي بحياته.

لم يكن هناك من يَشْعر بالقلق سوانا، أما البقية فقد كان الليل بالنسبة لهم أشبه بوسائد هوائية على جانبي الطريق ستحميهم من أيّ خطر إذا ما فاجأتنا سيارة مقبلة أو اتسعتْ دائرةُ التفاف سيارتنا في منعطف ما، وهوتْ للسفح.

وفكّرت: هل كان يمكن أن تكون السرعة أكثر من هذه لو أننا تعرضنا لاختطاف؟!

بدأت المدينة تظهر بصورة أوضح، بعد قليل، وبدأت السيارة تعبر بعض الأحياء المكتظة، مما جعل السائق مضطرًّا لتخفيف سرعتها، ما ساعدنا على التقاط أنفاسنا وإراحة أيدينا وأرجلنا من تشنجاتها. لكن السائق لم يكن راضيًا عن بطء قهريٍّ كهذا، ولذلك لم تتحْ له أيّ فرصة للتفلُّتِ من هذا الوضع الرخو! إلا واستغلها، وبات الخوف في تلك اللحظات يسكنني على من هم خارج السيارة، لا أولئك الذين في داخلها.

لكن ما أثار انتباهي بقوة، ومخاوفي أيضًا، أن كثيرا من المحلات التجارية كانت مُحصَّنة بقضبان تشبه قضبان السجون، يتحرك البائع في الداخل، وعبر الفتحات الضيقة يتناول النقود من المشتري ثم يناوله طلبه. ينطبق ذلك على بائع المشروبات كما ينطبق على الصيدلاني.

ها هي كولومبيا إذن. قلت لنفسي.

وكم كنت على خطأ.

ليس أقل من ثلاثة أرباع الساعة، كان زمن الرحلة، استهلكنا فيها من طاقتنا العصبية أكثر مما استهلكنا خلال الرحلة من مدريد إلى مطار مدايين.

كان ثمة قبل ذلك أحاديث لا تنتهي، وضحكات من القلب على الأقل!

في مطار بوغوتا قلت لحلمي: كانت رحلتي يوم أمس ولكنني فقدتُها.

وشرحت له ما حدث، وكيف عدتُ إلى مدريد وأمضيت ليلة أخرى.

سألني: وهل عوضوك؟

قلت له: نعم، ستمائة يورو.

- ستمائة يور؟!! ردَّ بدهشة.

- نعم. ستمائة يورو.

فالتفتَ إليّ وقال: كان يمكن أن يكونوا أولاد كلب لو لم يأخذوا مقعدك.

وضحكنا.

**

تركنا حقائبنا في صندوق السيارة الصغيرة. قال السائق: ستجدونها في الفندق. ومضينا خلف (جون سوسا) نحو الأمسية التي كانت أصواتها تصلنا بقوة، لكننا لم نكن قادرين على معرفة أي تفاصيل لأن جون لا يتحدث سوى الإسبانية.

بعد أقل من ثلاث دقائق، انتصبتْ المفاجأة بقوة أمامنا. كانت الأمسية وسط شارع عام، بين بيوت عالية، المنصَّة التي يجلس عليها الشعراء أُعدَّتْ بشكل جيد، أمامها وخلفها وعلى جانبيها جمهور كبير، صعدتُ الدرجات نحو المنصة، نحو الكرسي الفارغ الذي ينتظرني، كان أحد الشعراء العرب يقرأ قصائده والجمهور يستقبلها بتصفيق حار.

جلستُ؛ إلى جانبي شاعر، سأعرف بعد ساعات أنه المثقف والشاعر الطليعي الأمريكي الشجاع (سام هاميل) وإلى جانبه شاعر نيكاراغوا العظيم إرنستو كاردينال بلحيته البيضاء وأعوامه الثمانين، وإلى جانبه سوينكا بشعره الأبيض الذي تزيده الإضاءة الباهرة التماعًا.

- كيف سبقْتَنا. سأسأله بعد الأمسية؟

- ركبتُ الطائرة التي كان من المقرر أن نسافر فيها معًا.

- وكيف استطعت؟

- أدركتُ الحافلة الأخيرة المتوجّهة إليها. هذا كل ما في الأمر.

أتاح لي وجودي فوق المنصة التقاطَ بعض أنفاسي، انشغلتُ بالجمهور الذي امتد أمامها إلى ما لا نهاية، وتحلَّق حولها. وهناك في البعيد، كنت أرى شارة مرور حمراء تضيء وتنطفئ بشكل متواصل.

لقد أغلقوا الشارع، حوّلوا السير، وأوجدوا هذا المسرح العجيب.

معظم الجمهور من الشباب، بعضهم جلس بعيدا فوق المقاعد البلاستيكية البيضاء، ومعظمهم على الإسفلت. لم تكن القصائد التي يلقيها الشاعر العربي سهلة، ولكنها كانت جميلة، خاطفة لمّاحة، وكان الجمهور قادرا بسهولة على التقاطها بسرعة وذكاء نادرَيْن.

تذكرتُ ما قاله لي بعض من شاركوا في هذا المهرجان من الشعراء العرب حول مدى محبة الناس للشعر هنا.

الآلاف يستمعون، كما لو أنهم في أمسية غناء، بشغف وبطرب يميل الشاب نحو رأس صديقته المتكئة عليه بحنان بالغ ويطبع قبلة على رأسها الملقى على صدره بتأثر واضح ما بين قصيدة وقصيدة، وعلى الأرض يستلقي أطفال لم يتجاوزوا العاشرة منصتين بشغف استثنائي.

المشكلة الوحيدة التي لم يدركها صديقنا الشاعر العربي أنه أطال القراءة أكثر مما يجب، كان الجمهور معه أجل، ولكن الأمر كان أعقد بكثير من

ذلك وتذكرتُ قول أمهاتنا، بل وصيتهن العظيمة (إن كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله).

في النهاية قرأ قصيدة، وحين انتظر مرافقه الكولومبي أن يتقدم لقراءتها بعده بالاسبانية، لم يجده هناك! لقد كانت إدارة المهرجان قد احتجزته خلف المنصة، لأنها الوسيلة الوحيدة لإسكات الشاعر.

شعرت بالأسى.

لكنني لم أر الأمر يتكرر مع أي شاعر عربي، أو غير عربي بعد ذلك، وكان هذا بحد ذاته أمرا مريحا.

ذات يوم حدث ذلك المشهد الكاريكاتيري الرهيب في واحد من مهرجانات المربد في العراق: بدأ أحد الشعراء القراءة، وبعد نصف ساعة كان لم يزل يلوّح بحماس كما لو أنه لم يبدأ بعد. أرسلوا إليه ورقة (اختَصِر) نظر إليها ووضعها جانبًا. أرسلوا الثانية والثالثة والرابعة وكان مصيرها مصير الأولى. تجرأ مُقَدِّم الأمسية الخجول وصعد خشبة المسرح. همس في أذن الشاعر المندفع شيئا، ولكن دون جدوى. بعد لحظات همس ثانية، ولكن دون جدوى أيضا! مما اضطرّه أخيرًا أن يدفع الشاعر بكتفه، إلّا أن الشاعر دفعه بدوره في الاتجاه المعاكس وواصل القراءة، وفي ذلك الجو الذي تحول إلى مسرحية هزلية فجرَّت ضحك الجمهور عاليًا واصل الشاعر قراءته إلى النهاية بعد أن تشبث بالميكرفون كما لو أنها مسألة حياة أو موت.

بعد ذلك بزمن طويل رأيت المشهد يتكرر في التلفزيون في واحدة من المناسبات الوطنية، شاعر فاشل ومذيع مرعوب اجتمعا معا على الهواء مباشرة. بدأ الشاعر قراءة قصيدته التي أهداها للسيد الرئيس ولم يكن المذيع قادرا على إخفاء بهجته بالقصيدة وحسن اختياره للشاعر! بعد عشر دقائق أحس بأن الشاعر قد أمضى وقتا طويلا لا يحتمله البرنامج، فبدأ بذكاء يبحث عن بيت شعر يمكن أن يُشكل الخاتمة، ليُسْكِتَ الضيف، لكن الشاعر الذكي! أحس بهذا بعد المحاولة الأولى مباشرة، ولذلك أعاد البيت

الأول في القصيدة الذي يذكرُ فيه اسم السيد الرئيس وحوّله إلى لازمة تتردد كلما أحس باقتراب خطر المذيع.

مأساويا بدا وضع المذيع والعرق يتصبّبُ من جبينه وينحدر على رقبته، لكنه في النهاية لم يستطع أن يفعل شيئا سوى أن يجلس فوق كرسيّه كما لو أنه هو الضيف أو مثل رجل يائس أمام فرقة الإعدام.

**

كنا نعتقد أن الأمسية ستفوتنا، لكن شاعرنا أثبت أنها لم تزل في بدايتها، إذ كان علينا كلنا أن نقرأ بعده: إرنستو، سام، إبراهيم ثم سوينكا. وقد كان ذلك كافيا بالنسبة لي لالتقاط أنفاسي في تلك الأمسية المنعشة حيث الهواء يهبُّ ناعما، والشِّعر يفيض منفتحًا على فضاء إنساني عذب.

فكّرت كثيرًا بما يمكن أن يُقرأ في أمسية كهذه، وقد كانت الخيارات متوافرة، لكنني قبلتُ بخيار (جون سوسا) الذي سيتبين، فيما بعد، أنني كنت محظوظًا به كثيرا، فهو شاعر أصلا ويقرأ بشغف وحساسية، ويملك صوتا دافئًا عريضًا وقدرة على الغوص بعيدا في القصيدة.

لم أعرف، إن كانت الأمسية قد بدأت في وقتها المحدد أم أنها تأخرت، ولكنها كانت أمسية مضيئة ورائعة بكل معنى الكلمة، وإن كانت قصائد إرنستو غير مفهومة أبدا بالنسبة لي، إلا أنني كنت مبهورا بأدائه الرائع وقدرته على القراءة بهذا الاندفاع الحار لشاعر تجاوز الثمانين ولم تزل جمراته متّقدة إلى هذا الحد.

**

عبرتُ كولومبيا بكلمة واحدة أعرفها (أميغو) وحين وصلتُ عرفت (لامانو) وبعد قليل سأعرف كلمتين دفعة واحدة (بوزيّا لاكورتا)!! وستكونان رفيقتي قراءاتي.

بعد انتهاء الأمسية، رأيت (جون سوسا) يتقدم نحوي من بين الجمهـور الذي تحلَّق حول المنصة، بلحيته الكثة ووجهـه المبتـسم وهـو يـصيح بزهـو (لامانو.. بيوتيفوول) ويحتضنني بقوة.

عن (آخر هو أنتَ)

أيها الصديق الذي عبرت حصاري كنافذة
كم أرى الأرض من خلالك خضراء!

في كولومبيا كل شيء دافئ وليس ثمة ما هو أكثر طيبة ودفئًا من قلوب الناس الذين تلتقيهم. وسواء اخترتَ قصائدك التي ستقرأها، أو اختارها غيرك، فالذي اختار تكتشف أنه يشبهك، وأنه قريب من قلبك بحيث يفهمه جيدا، ويفهم القصيدة التي فيه.

لكنني أعترف أن القراءة في أمسية ما، بقدر ما هي بسيطة بقدر ما هي معقَّدة في آن، ولا تستطيع أن تطمئن لشيء إلا بعد أن تحسّ بنبض قلب الحاضرين وجوِّ القاعة.

غالبا ما كنت أختار قصائدي التي ألقيها في اللحظة الأخيرة، وحين أقول اللحظة الأخيرة، أعني أن هذه اللحظة قد تكون لحظة صعود الدرجات باتجاه المنصَّة!

وكما أختار القصائد، لا بد لي من أن أختار أيضًا واحدًا أو واحدة من بين الجمهور للقراءة له أو لها.

ولكن، كيف يستطيع المرء أن يختار؟ إنها مسألة تتعلّق بالحدس أكثر منها بأي شيء آخر، تتعلّق بذلك الخيط الرفيع الذي يربط القصيدة بقلب من يستمع لها عبر قلبك.

في الأمسية الأولى التي أقيمت في الشارع، لم أكن قادرا على اختيار أحد، كان الناس في كل مكان، أمام المنصة، خلفها وعلى جانبيها، وفي وضع مربك كهذا لا تستطيع أن تفعل الكثير، لا تستطيع سوى أن تجتهد في أن تكون قراءتك أفضل وقادرة على نقل إحساسك بالقصيدة للمستمع حتى قبل أن يستمع لترجمتها.

ذات مرة في بيروت، ابتدأت القراءة في مسرح الأونيسكو، كنتُ ثالثَ الشعراء في الأمسية، بحيث أتيح لي أن أختار مستمعي بهدوء أكبر، كانت ممثلة لبنانية شابة، تعرَّفتُ إليها بعد أن وجَّهَتْ لي الدعوة لحضور مسرحيتها التي كانت تعرض في تلك الأيام. قالت لي: أنا قادمة لأستمع إليك. ولم يدر بخلدي أنها ستكون مستمعتي المختارة إلا بعد أن رأيتُ طريقة إنصاتها، كانت تستمع بشغف وتعيش كلمات الشعراء بكلِّ حواسها، وقبل أن أبدأ بقليل، جاء من همس في أذنها شيئًا، تلفتتْ نحو المنصّة، فهمتُ اعتذارها، وفهمتُ أن شيئًا كبيرًا قد حدث.

.. وغادرتْ على عجل.

لم أقرأ لأحد في ذلك المساء، لأنني أحسست أن القصيدة فقدتْ مصبَّها، لكنني قرأت. ولحسن الحظ، فقد كانت القصائد المختارة من ديوان (بسم الأم والابن) على درجة كبيرة من الحميمية، سواء بالنسبة لي، أو بالنسبة لجمهور القاعة الرائع في ذلك المساء.

بعد الأمسية اتّصلَتْ بي تعتذر: أبلغوني أن أمي (تعبانة) فخفتُ عليها. وقد كنتُ منذ يومين أتطلَّع إليها بخوف وأحبها أكثر.

- تحبينها أكثر؟!! سألتها دهشًا.

- نعم، أحبها أكثر، فقد قرأت (بسم الأم والابن) بعد العرض المسرحي، وكنتُ كلما قرأتُ قصيدة أحبها أكثر. كنتُ أكتشفها من جديد.

- ما دام الأمر متعلقًا بأمك، فأنت لم تغادري الأمسية أبدًا. لأنني كنت أقرأ لها وأنتِ تعتنين بها.

**

هذه المعايشة الخاصة لهذا الديوان وأثره في عدد من القراء الذين أتيح لي أن ألقاهم، يجعلني دائما أفكر بمدى رعونة تلك الحملة الظالمة المزعجة التي شُنَّتْ عليّ بسببه، ووصل الأمر إلى حدٍّ تكفيري، تلك الحملة التي كان يلزمني الكثير من الشجاعة والأصدقاء الرائعين في الأردن وفلسطين (التي أقامت مهرجانا تضامنيا في الناصرة) وبقية أنحاء العالم العربي الذين وقفوا بجرأة إلى جانب الحياة ودافعوا بقوة عن هذا الديوان من خلال عدد هائل من المقالات.

**

حدثْتُها عن مديرة إحدى المدارس الخاصة في عمان. قلتُ لها: لقد سمعتُ منها شيئًا بعد قراءتها لهذا الديوان، أعتبره أهم من أيِّ نقد كُتِبَ عن شعري من قبل. وأنتِ اليوم تفعلين الذي لم تستطع هي أن تفعله.

وحين سألتني أن أوضِّحَ، قلت لها: لقد قالت لي لو قرأته قبل وفاة أمي لكانت علاقتي بها، بالتأكيد، أفضل. وأسرَّتْ لي أنها تكتبُ مقاطع منه وتلصقها بالمرآة كل صباح لتحبَّ أولادها ويحبوها أكثر.

حين التقينا في اليوم التالي سألتُها عن أمّها، قالت إنها بخير. لقد قرأت لها قصيدة (أن تكون ابنها ذاكَ شيء كثير).

وأخبرتني أنها المرة الأولى التي تقرأ فيها شعرًا لوالدتها. وعادت تعتذر.

- أعرف أن الوضع كان مُلِحًّا، ولكنني أعترف لكِ، أن خروجكِ أربكَ الأمسية.

- أربك الأمسية؟!!

- أقصد قراءتي.

وشرحتُ لها الكيفية التي أقرأ بها، وأنني اخترتها مستمعتي الخاصة وأنها حين خرجت لم أعد أعرف لمن سأقرأ، فقرأتُ للجميع!!

بعد أكثر من شهرين زارتْ عمّان للمشاركة في مهرجان مسرحي، وفجأة وجدتُها أمامي في (دارة الفنون): مرحبًا. جئت لأسأل إذا ما كانت لك أمسية هذه الأيام يمكن أن أحضرها!!

**

لم يكن هذا الأمر جديدًا، فقد كانتْ البداية المفاجئة، حتى لي، في واحد من مهرجانات رابطة الكتاب الأردنيين عام 1980، فما ان انتهت الأمسية حتى توجهت لتلك الصَّبِيَّة التي أراها للمرة الأولى، وتبين لي فيما بعد أنها طالبة جامعية، رحتُ أشقّ طريقي بين الجمهور المحتشد في مسرح (أسامة المشيني) حتى وصلتها.

قلتُ لها: مرحبًا.

ردَّتْ بارتباك: أهلا.

مددتُ لها يدي بالقصائد التي قرأتها وقلت: هذه الأمسية كانت لكِ!!

وقبل أن تقولَ أيَّ كلمة، كنتُ أشق طريقي باتجاه أحد بابي المسرح وأختفي!

**

كانت القراءات في أوروبا مختلفة بعضَ الشيء، إلا أنها لم تكن تخلو من مستمع أو مستمعة من هذا النوع، كانت قراءات مقلقَة في البداية، إلى أن بدأتُ أفهم قلوب الناس وحساسياتهم أكثر.

أول اكتشافاتي، كان ذلك الحب الذي يكنونه لموسيقى اللغة العربية، موسيقى الشعر العربي، كانت المرة الأولى في أمريكا مع خمس وعشرين

أمسية في خمس وعشرين مدينة، والثانية في باريس، حيث جاء أكثر من شخص يعربون عن محبتهم الكبيرة ومدى تأثُّرهم بالقصائد! مع أنهم لم يستمعوا لترجمتها التي كان من المقرر أن تُقرأ في تلك الأمسية، ولسبب ما ارتبك الأمر.

في البداية كنتُ أحمل تلك الفكرة الساذجة: إنني أقرأ لـ (آخر)، وشيئًا فشيئًا علّمني الشعر وأرواح البشر أنني أقرأ لبشر هم (أنا- إنسانًا) ، وهذا ما أحسسته بصورة باهرة حينما وجدت نفسي ذات يوم في نابولي في واحدة من أكثر الأمسيات غرابة!!

الطريق إلى بوميليانو داركو!!

ما الذي تحتاجه في النهاية من مدينة تدخلها للمرة الأولى؟

ما الذي تحتاجه؟

الدهشة بارتفاع مبانيها

أَمْ سماع ذلك الموج المتدفِّق في قلوب سكانها؟

وصلتُ نابولي لحضور نشاطات واسعة نظّمتها البلدية تضامنًا مع الشعب الفلسطيني بعد قيام الجيش الإسرائيلي باجتياح الأراضي الفلسطينية ربيع عام 2002، وفي القاعة الكبيرة بمدينة بوميليانو داركو القريبة، الرابضة في ظل فوهة بركان (فيزوف) أتيح لي في اليوم الثاني حضور ندوة تحدَّث فيها أكثر من سبعة أشخاص لهم حضورهم المعنوي والرسمي الكبير، على مستوى المدينة، وعلى مستوى إيطاليا؛ بعد زيارة لهم لفلسطين المحتلة. كان هناك أعضاء في البرلمان، ممثلو أحزاب، صحفيون كبار، ومتعاطفون يتفلَّتُ الدمع من أعينهم لفرط ما شاهدوه، ولم يُخْفِ الصديق (عُمَر) الذي نظم النشاط مخاوفه، حين بدأ أحد أعضاء مجلس النواب الإيطالي حديثه.

مال نحوي وقال: أرجو ألاّ ينفعل كثيرًا!

وحين همستُ له: وما المشكلة في ذلك؟

قال لي: بسبب ما رآه هناك، في فلسطين، أعلن في لقاءات جمعتنا، أنه مستعد للقيام بنفسه بعملية (انتحارية) ضد الإسرائيليين!!

تحدَّثَ السبعة كثيرًا، ولم تكن اللغة الإيطالية التي لا أعرفها حاجزًا بيننا، إذ إن أحاسيسهم كانت تصلني بقوة، حتى قبل أن تُتَرجَمَ كلماتُهم لي، كما لو أنني لا أتقن من لغات العالم سوى لغتهم!!

في نهاية ذلك اللقاء الحار، أصر رئيس البلدية أن ينظم لقاء لاحقًا في المدينة أتحدّثُ فيه.

**

بعد حفل توقيع النسخة الإيطالية من روايتي (براري الحُمّى) في روما، والندوة التي أقيمت حولها هناك بمشاركة الدكتورة إيزابيلا كاميرا دافيليتو والناقد فيلبو لابورتا والدكتور وسيم دهمش، عدتُ إلى نابولي، وفور وصولي، عرفتُ أن البلدية قد حددتْ موعد اللقاء فعلا، ولم تكن في هذا مفاجأة؛ لكن المفاجأة، كانت أن اللقاء سيكون مع طلبة المدارس الإعدادية والثانوية.

عند ذلك، أدركتُ حجمَ المأزق الكبير الذي وقعتُ فيه، واستعدْتُ تجارب كثيرة مع طلبة هذه المرحلة أقيمتْ في عمّان وسواها برضا مشوب بالحذر. فمع أن الكاتب يجد فيها متعة، وأحيانا عمقًا، لا يجدهما في أمسيات الكبار، إلا أن هذه اللقاءات لا تخلو من بعض الأحزان، حين تكتشف أي مسافة كبيرة باتت تفصل هذا الجيل عن قضاياه الكبرى، باستثناءات ترفع الروح.

**

كان علينا أن نستقلَّ القطار، في طريقنا إلى بوميليانو داركو، ولم تكن المسافة التي تفصل هذه المدينة العمّالية الإيطالية عن مدينة نابولي العريقة، درّة الجنوب الإيطالي، طويلة، لكن قِصَر المسافة لم يكن كافيًا للوقوف سدًّا، في وجه تلك المخاوف التي انتابتني.

سألتُ (سوزان) مرافقتي: من واقع خبرتك بالناس هنا، ما الذي يمكن أن يختاره المرء من مواضيع للتحدّث فيها؟

قالت: إنهم يتوقعون أن تتحدث عن فلسطين ومعاناتها؟

قلت: في السياسة، يعني؟

قالت: في السياسة وضواحيها!

حين دخلنا القاعة، رأيتُ جموعًا غير عادية من الطلبة الذين ينتمون في مظهرهم لعالم ليس مختلفًا كثيرًا عن بعض عالمنا!! أقراط في الآذان والأنوف والشفاه والسُّرر، سلاسل فضية، شعور ملونة مندفعة بحدة مدببة في جميع الاتجاهات، بطون مكشوفة، وأوشام تزين أذرع الفتيات والفتيان و..

لقد أدركت، بعد تجربة القراءة الأولى في قسم اللغات والآداب العالمية في جامعة نابولي، وأمسية روما، أن أول ما ينتظره الجمهور هنا، هو التعرّف على الطريقة التي يقرأ فيها شاعر (عربي) قصائده، وذلك الحسّ الذي يسكنه كإنسان تجاه العالم ومفردات هذا العالم وكائناته.

ولأعترف: ان كثيرًا من الحضور، ينظرون إلينا كبشر، لا نستطيع أن نُحب، أو نحلُم، أو نُغني، أو حتى نكتب.

ولا يقتصر ذلك على الجمهور العريض، بل يمتد في أحيان كثيرة، إلى مثقفين بارزين.

ما زلت أذكر دهشة أحد النقاد الإيطاليين، حين تبادلنا الرسائل بيننا، عندما اكتشف أننا في العالم العربي قرأنا برانديللو، ولامبيدوزا، وإيتالو كالفينو، وأنتونيو تابوكي، وأمبيرتو إيكو وسواهم، كما أننا نعرف كل أفلام فلليني وبازوليني، والكبير الصاعد باستمرار ترناتوري، وأن فيلم هذا الأخير (ميلينا) قد شاهدناه وأحببناه أيضًا.

أما حين يصل الأمر إلى ميشيما وماركيز وفوكنر وجويس..، فإن الأمر يغدو مدعاة لوقوعهم في الإغماء لفرط الدهشة.

كان لا بدَّ من تناسي الوصايا كلها، مع جمهور جديد عليَّ تماما، مثل هذا؛ جمهور، أُدرِكُ أن أسهل شيء يمكن أن يفعله، هو أن يُدير ظهره مُغادرًا القاعة في أي لحظة.

في ظلِّ هذا البركان الغافي، كان علي أن أبدأ.

قلت لهم: إن علاقتي بإيطاليا قديمة جدًا

فأول وجه رأيته في حياتي كان وجهًا إيطاليًّا!

وأول يد لمستْني كانت يدًا إيطالية!

وأول صدر ضمّني إليه كان صدرًا إيطاليًّا!

وأول يد صفعتني أيضا كانت يدًا إيطالية!!

ضحكوا..

فأضفت: هذا لأني ولدتُ في المستشفى الإيطالي أو كما نسميه (الطلياني) بمدينة عمّان!

سرني أن الفاتحة بدَّدت تجهُّم القاعة ورسمية اللقاء وقد تحولتُ إلى ماركة إيطالية مسجلة! ومباشرة بدأت بقراءة قصيدة (دمهم صباح الخير)، وقرأتها سوزان مترجمة بعدي.

نسيتُ السياسة كلَّها، وتجاوزتُ الكثير من الأحداث الساخنة، وقررت التحدث عما هو إنساني في علاقة الفلسطيني بالحياة، بالخيول، بالشجر، وبالشِّعر.

سردتُ لهم حادثة لم تزل تدهشني حتى اليوم، ففي مرة من المرات قلت لأبي وأنا أشير إلى شتلة زيتون تفتَّح نوارها في فناء بيتنا: هل سنأكل من زيتونها هذا العام؟!!

فقال بهدوء واثق: لا.

فسألته ولكنها نوَّرتْ، ألا يتحوَّل النوّار إلى حبات زيتون؟

فقال: نعم، ولكن الأمر هنا مختلف!

سألته: وكيف يكون مختلفا؟

- إن هذا الغصن يحلُم. قال.

- يحلم؟!!

- نعم. إنه يحلم.

سألته: وهل يحلم الغصن؟

قال: بالطبع.

قلت: كيف؟

قال: يحلم أنه لم يزل على أمِّه، الزيتونة الكبيرة، ولذا يُزهر، هذا الزَّهر هو حلمه، أما الزيتون فيكون في أعوام تالية، وليس في هذا العام. هذا العام ليس هناك سوى هذا النوّار.. الحلم.

والحقيقة أن هذه الحكاية تركتْ أثرًا في داخلي لا يمكن أن يُمحى أبدا، لأنها من أعظم تجليات حسِّ الإنسان بالوجود ومفردات الوجود حوله.

حدثتهم عن ذلك الاعتقاد الراسخ في جداتنا عن أشجار الزيتون، وعن أن الشجرة كالمرأة الحامل، وأنه لا يجوز أن يتفوَّه الناس بحكايات مخيفة في كروم الزيتون، أو أن يطلقوا النار، لأن الزيتونة كالمرأة الحامل، يمكن أن تُسقط ثمارها، بسبب هذه الأمور.

وحدَّثتهم عن علاقة الفلسطيني بالخيول، وبدا لي وكأن هذه العلاقة سحرتهم بشكل خاص، ولكن لا مجال لذكْرِها هنا لأنها غدت محورًا أساسًا، في الرواية السادسة، التي لم تصدر بعد، من مشروعي الروائي (الملهاة الفلسطينية). وكنت أرى دهشتهم تكبر، مُعلِنًا عنها ذلك الإصغاء العميق والمؤثِّر فعلا.

وحين وصلنا للشعر، قلت لهم: إن الشعر هو النص الأكثر تأثيرًا في حياتنا، وإنه النص غير المتوج، رسميا، بالقداسة، لكنه كذلك، وحدثتهم عن عمق مكانته في وجداننا. وأظنني لم أبالغ حين قلت: إن للفلسطيني

أُمّين: أمه التي ولدته، والقصيدة؛ وإنني حين أعـود بـذاكرتي إلى مائـة عـام مضت، يتأكد لي بصورة لا تقبل الشك أن القصيدة هي التي كانت المـصدر الثقافي الوجداني الأكثر تأثيرا في بنائنا الروحي، إذ لا يوجـد نـص نقـدي أو فكري أو فلسفي، أو روائي، يمكن أن نصفه بأنه نقطة لقاء أرواحنـا، مـثلما هي قصيدة إبراهيم طوقان، أو قصيدة لأبي سلمى، أو شـعر المقاومـة، ومـا تلاه، وتنويعات الشعراء المهمة في كتاب الإنسان، الوطن والكون.

قرأت بعد ذلك عددا مـن القـصائد، التـي تـستطيع بإيقاعهـا أن تقـدم نموذجا واضـحا لموسـيقى الـشعر العـربي، وقـصيدة مهـداة إلى الـصحفي الإيطالي (رفائيلو تشيرييلو) الذي قتلته قوات الاحتلال الإسرائيليـة خـلال اجتياحها للضفة الغربية، أثناء بحثه عن الحقيقة في الشوارع الغارقة بالـدم. وقرأت قصائد قصيرة مـن ديـوان (شرفـات الخريـف) وكلهـا كانـت قـد تُرجمت.

وحين أنهيت القراءة، كنت عـلى يقـين، أن الكلـمات لم تـذهب هبـاء في الريح، فما دام هناك قلب بشري يُنصت، فإن الكلمات تستطيع أن تتفتّح فيه.

لم يغادر أحد القاعة، حتى أولئك الذين جاؤوا متـأخرين، ولم يـستمعوا لكل ما قيل في البداية؛ لكنني كنت أدرك لحظتها، ولأول مرة، أن ما حـدث حتى الآن، ليس أكثر من اجتياز ربع الطريق، لا أكثر، لأن الأهم هو الحوار الذي سـيبدأ بعـد قليـل، ومـن خلالـه، سـيتبين ذلـك المـدى الـذي بَلَغَتْـهُ الكلمات.

كان التعليق الأول حول الصورة العربية المـستقرة في أذهـان الطلبـة، إذ قال الفتى: لأول مرة أعرف بأنكم مثلنا!! تكتبون الشعر وتحبـون الأشـجار ولكم معتقداتكم الجميلة التي نجهلها، للأسف، فكيـف تفـسِّر لنـا، نحـن الطلاب هذا؟

- إن صورتكم عندنا ليست أقل سوادا من هذا! كانت الإجابة؛ ولكننـا كافحنا هذا السّواد طويلا، كي نصل إلى معرفة جمالكم، فالأسـهل بالنـسبة

لنا هو الأسهل بالنسبة لكم، هكذا يمكن اختصار صورتكم، بحيث لا نتحمل عناء اكتشاف أجمل ما لديكم؛ لأن صورتكم الجاهزة، هي صورة المُحتَلين لبلادنا، وهذه هي صورة معظم الأوروبيين، الذين استعمرتْ بلدانُهم معظم الدول العربية، قَتلتْ، ودمَّرتْ، وسلبتنا حريتنا، وخيرات بلادنا، ويمكن للمرء أن يريح نفسه فيقول: إيطاليا اليوم هي المافيا. ويضع نقطة في آخر السطر. ولكننا رفضنا أن نكونَ خاسرين إلى هذا الحد، بهذه الأحكام، ورحنا نبحث ونقرأ ونترجم آدابكم وفنونكم، لأننا على يقين أن دانتي ليس الدبابة، وبرانديلو ليس المُصفَّحة أو المدفع، وفلليني ليس بنادق ومصفحات الجنرال رودلفو غراتسياني الذي قتل مائتي ألف إنسان من المواطنين الليبيين الأبرياء خلال ثلاث سنوات فقط أثناء بحثه المجنون عن الثائر الشيخ عمر المختار ومحاولاته اليائسة لتنفيذ خطته في ترسيخ الاستيطان الاستعماري في ليبيا. هؤلاء المبدعون الكبار جزء من جمالكم، وجمال هذا العالم، وليس الجنرالات، وبالتالي فهم جزء أصيل من جمالنا اليوم، وجمال أرواحنا، وجمال آدابنا وفنوننا. ولذلك، حين ندرك المسافة التي تحرصون على أن تفصلكم دائما عنا، وعن شعوب كثيرة لا تنتمي لحضارتكم، نكتشف أنكم تصرون على خسارة لا يحتملها الوجود الإنساني على هذا الكوكب. فالذي يغلق عينيه لأنه لا يريد أن يرى صباحا مشرقا، لا يُعاقب الصباحَ وشمسه، إنه لا يعاقب سوى نفسه، ولم نكن مستعدين لإيقاع هذا العمى بأنفسنا، لذلك أحببنا كل ما هو أصيل وحر وطيب في تراثكم، ليس في الزمن الحالي فحسب، بل في كل زمان.

في أحد المؤتمرات التي عقدت حول الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى وبالعكس، قلت: إننا بحاجة لترجمة أدبكم والأدب الغربي بشكل عام إلى اللغة العربية حتى لو لم تقوموا بترجمة كلمة عربية واحدة إلى لغاتكم، لأننا لا نستطيع أن نتنازل عن آدابكم لمجرد أنكم لا تريدون ترجمة آدابنا. ويكفي أن أشير هنا إلى أن جحيم دانتي ترجمها للعربية (أمين أبو

الشعر) وصدرت في فلسطين عام 1938، وحينما يقول الفلسطيني بأنه يدافع عن الحياة والحرية فإنه يدافع عن قيم الجمال والحرية التي زرعها أدبكم وفنكم فيه من ليوناردو دافنشي ورافائيل حتى إيتالو كالفينو وتابوكي، وهو لن يسمح أن تنتصر الدبابة على هذا الجمال الذي في داخله.

ثم كان تعليق، حول القضية الفلسطينية، و (مشكلة اليهود)، بل و (مأساتهم) التي لا نستطيع نحن كأوروبيين أن نتناساها حين ننظر إلى (الصراع) الدائر في (الشرق الأوسط).

- نحن لن نمنع أحدًا من أن يبكي على أحد، أو أي شيء. قلت للصَّبية التي ظلتْ واقفة في مكانها بعد أن قالت ما قالته. فالبكاء كما تعرفين حاجة إنسانية، وفي أحيان كثيرة يكون حاجة سياسية، لا بأس، لكنني أحب أن ألفت انتباهكم أن ثمة فائضا من الدموع، دموعكم، وفي هذا الفائض يغرق الفلسطيني اليوم.

- ولكن ما الذي يمكن أن تقوله لنا، نحن، الذين للأسف لا نعرف شيئا كافيا عنكم، عن فلسطين، وعما يحدث الآن هناك؟

- في البداية حدثتكم عن الأشجار، وحس الفلسطيني، والعربي عموما، بها، ويمكن أن أضيف أن كثيرا من العائلات تزرع شجرة باسم كل مولود جديد، وأحب أن أقول لكم، إن الإسرائيليين اقتلعوا ربع مليون شجرة ما بين عامي 1987 و 1997، وإذا ما تذكرنا معنى الشجرة في حياة الفلسطيني التي تحمل اسمه وأسماء أولاده وبناته وأجداده وعلاقته الروحية بها، فإن النتيجة تكون أنهم قتلوا ربع مليون إنسان باقتلاعهم هذا العدد من الأشجار؛ لأن المسألة ليست قائمة في القتل المادي للشجرة، فقط، بل في قتل الحضور المعنوي لها في الروح أيضًا. كما أحب أن أقول شيئا أخيرًا، يمكن أن نتأمله معا في هذه القاعة بيسر شديد، بعيدا عن التعقيدات أو الأقوال الكبيرة..

أقول: إن قدوم أحدكم إلى هذه القاعة، من بيته، لحضور أمسية شعرية أو موسيقية، رحلة صغيرة لا تكلفه شيئًا، ولكنها بالنسبة للطفل الفلسطيني تكلفه حياته، وخلال العام الماضي استشهد ثلاثة شباب وجرح سبعة عشر آخرين ، خلال بضعة أيام، وهم في طريقهم لتقديم امتحانات الثانوية العامة في مدينة نابلس وحدها.

إن صعود امرأة إلى سطح بيتها، أو إلى شرفتها، لنشر غسيلها أو احتساء قهوتها، هنا أو في أي قرية، لا يكلفها شيئا، ولكنه يكلف المرأة الفلسطينية حياتها.

إن قيام أي منكم بإبعاد الستائر في الصباح، لرؤية الشمس، وإشراع النافذة للاستماع لغناء العصفور بصورة أوضح، لن يكلفه حياته، ولكنه قد يكلف فتاة هناك حياتها، لأن القناص ينتظرها فوق البناية المقابلة ببندقيته.

ولذلك، أود أن أضيف: حين تأتون لسماع الشعر هنا، أو حين تنشر أمهاتكم الغسيل فوق السطوح، حين تشرعون نوافذ غرفكم في الصباح، وحين تحتضنون بفرح قططكم الأليفة، وكلابكم، حين تعودون إلى منازلكم، غير مضطرين لأن تركضوا بفزع، وحين يُحب الفتى فتاته، والفتاة صديقها، حين تعودون متأخرين إلى منازلكم دون أن ينتاب قلوب أمهاتكم أي خوف عليكم، وحين تضعون رؤوسكم على مخداتكم، وتحلمون أحلامكم، دون رصاص، ودون قذائف، ودون أبواب تُحطَّم، وأشياء غالية عليكم تُسحق تحت بساطير الجنود، أحب أن أقول لكم فقط: تذكروا أننا آخر شعب على هذه الكرة الأرضية لم يزل واقعا تحت الاحتلال. وأحب أن أقول لكم إن قبولكم بهذا، أو رفضكم له هو الاختبار الحقيقي لضمائركم.

قبل أن أنهي الجملتين الأخيرتين، راحت سوزان، التي تحمّلتْ عبء ترجمة هذا اللقاء، في موجة بكاء قوية.

وحين اختُتم اللقاء رأيتُ كل من في القاعة يقفون، ليبدأ تصفيق متصل لدقائق، قبل أن تهدأ القاعة، وتنهض فتاة لتطلب إعادة قراءة قصيدة:

دمهم صباح الخير

فأعدتُ قراءتها، وقرأت سوزان ثانية ترجمتها وهي تحاول جاهدة تجفيف دموعها.

لكن اللقاء لم يتوقف، عند هذا الحد، ولعل هذا هو أجمل وأهم ما رأيته في أي أمسية قرأت فيها شعرًا، إذ اندفع شاب نحوي، وطلب مني ألا أغادر القاعة، أن أنتظر قليلا، ثم انهمك في كتابةٍ ما على ورقة كبيرة بيضاء، في حين كان الطلاب والطالبات يلتقطون معنا صورا جماعية تذكارية، وحين انتهى الفتى من الكتابة، رأيتُ الطلبة والطالبات واحدًا واحدًا، يصطفّون، ثم راحوا يكتبون أسماءهم أسفل الورقة ويوقِّعون إلى جانب هذه الأسماء، وحين انتهوا، حملها ذلك الفتى الذي كتبها، وقال لي بتأثر واضح، إنها تحية لك ولشعبك، نقول لكم فيها: تذكّروا أيضا، حين تُرتكبُ تلك الجرائمُ بحقكم هناك في وطنكم، أن قلوبا ومشاعر كثيرة معكم، هنا في هذه المدينة، مدينتنا: بوميليانو داركو.

**

في التاسع والعشرين من أيار عام 2002، دخلت بوميليانو داركو، ووقفت في تلك القاعة، وجها لوجه مع فتية وفتيات، كنت أظن أنهم لن يؤثروا بي، ولن أؤثر بهم، فالجدار العالي السميك الذي يفصلُنا منذ زمن بعيد، عالٍ، إلى درجة خِلْتُ معها أنني لن أستطيع إلقاء نظرة من فوقه إلى عالم آخر اكتفى بصورتنا التي رسمها، وليس ثمة شيء واحد يدعوه لأن يُغيِّرها، لكن النتيجة كانت مفاجئة لي مثلما كانت مفاجئة لهم: إننا أكثر من أصدقاء.

في أرض البشر هذه،

في قلوبهم،

رأيت الكلمات تزهر.. وغصن الزيتون يحلُم.

أقل من عدو !!

الرياح التي نثرتني في الجهات
هل كان يمكن أن تفعل ذلك
لو أنها توقَّفَتْ قليلًا
لتسمع صيحة أشجاري؟!

قبل وصولي لروما بعام، زارني في عمّان المنتج الإيطالي موريتسو سانتريللي، وكان هدف الزيارة، التباحث في مشروع فيلم عن رواية (عائد إلى حيفا) للكاتب الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني، ينتجه الإيطاليون ويُسوَّق عالميا.

كان لا بد أن تأسرني الفكرة، لأنها حلم العمل في السينما، وللسينما، وهو واحد من الأحلام التي راودتني طويلا، ولكنها لم تتحقق بعد!! ولذلك، كان من الطبيعي أن أتحمس للفكرة: أولًا لأنها سعي لتقديم فيلم عالمي عن فلسطين، وثانيا لسبب روحي خاص، وثالثا لأنها لغسان كنفاني.

كان فيلم (مائة خطوة) الإيطالي قد سبقت أخباره وصول سانتريللي إلى عمان، وهو الفيلم الذي كان هو أحد منتجيه، فقد فاز بجائزة أفضل نص سينمائي في مهرجان البندقية، ونال عددا من جوائز السينما الإيطالية، ورُشِّح

لجائزة الكرة الذهبية، واختارته إيطاليا ليمثِّلها في مسابقة جائزة أوسكار أفضل فيلم أجنبي.

لكن فكرة العمل مع فريق بهذا المستوى العالمي ما لبثت أن تطايرت حتى قبل اكتمال اللقاء، لأن تقديم الرواية على الشاشة كان يقتضي أن يعمل على سيناريو الفيلم كاتبان، فلسطيني وإسرائيلي. يكتب الفلسطيني الحكاية الفلسطينية، حكاية الأبوين اللذين أضاعا ابنهما في فوضى عام النكبة، ويكتب الإسرائيلي حكاية رضيعهما الذي ربته عائلة إسرائيلية فأصبح جنديا وأعطته اسما جديدا هو (دوف).

غادر سانتريللي إلى فلسطين بحثا عن كاتب آخر وانقطعتْ أخباره، إلى أن قرأت في إحدى المجلات أن هناك من يعمل على كتابة السيناريو، لكن الخبر لم يُشر إلى كاتب إسرائيلي ثان يُشارك في الكتابة. فقلتُ: لعل صديقنا، الكاتب الفلسطيني، أقنعهم، ونجحَ حيث أخفقتُ؛ بأن يكون هنالك كاتب واحد فلسطيني، ما دامت الرواية فلسطينية.

كانت زيارتي لإيطاليا فرصة أخرى للقاء سانتريللي، وفي بيته، حيث وجّه مشكورا الدعوة إلي، بحضور عدد من الشخصيات الثقافية والسياسية البارزة، وقد أثبتَ، أن الكرم ليس عربيا فقط، بل إيطالي أيضا. ولم يمض الكثير من الوقت قبل أن أُدرك أن مناسبة اللقاء كانت لإعادة مناقشة المشروع الذي اختلفنا بشأنه في لقائنا الأول.

كانت ليلة غنية، ساعدني فيها (عُمر) بالترجمة من وإلى الإيطالية كلما كانت الإنجليزية تضيق علي، لكن حوارات تلك الليلة لم تؤدِّ أيضا إلى نتيجة. كان الإصرار على وجود كاتب إسرائيلي يكتب حكاية (دوف) نصفَ المشروع، الذي يقدِّمه إيطاليون يساريون، من منطلق المحبة للنص الروائي وللقوة الماثلة فيه، وبعيدًا عن حساباتنا. أي يقدمونه من منظور (إنساني) يعلن ميله للجانب الفلسطيني.

كانت حجّة سانتريللي التي يؤيده فيها صديقه ورفيق عمله فابريزو موسكا، أن نمو شخصية (خلدون) الرضيع، وتحولها إلى (دوف) الجندي، مسألة لا يمكن أن يدركها سوى شخص إسرائيلي يعرف التحولات التي يمكن أن تطرأ، وطرأتْ، على شخصية كهذه. في حين أن رؤيتي للمسألة كانت ذات شقين: الأول أن كاتب (عائد إلى حيفا) قد اغتاله الإسرائيليون بأنفسهم؛ وثانيا، أن هذا النص الروائي هو نص فلسطيني، وكان سؤالي: هل كان يمكن أن يسمح لي بكتابة الوجه الآخر لواحدة من روايات عاموس عوز مثلا أو سواه، في حالة مشابهة؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي، فكيف يحق لهم ما لا يحق لنا (افتراضا).

أما المحزن في المسألة، فهو أن عدد الأفلام التي أُنتجت في أوروبا وأمريكا عن الهولوكوست، واليهود، يُعد بالمئات، فلماذا يُحرَم الفلسطيني من أن تُقدِّم حكايته في فيلم واحد لا غير، دون أن يكون مضطرا للتنازل، ويكون كُتّابه مضطرين للتنازل أيضا، في أمر كهذا؟

ولأن مشروع إنتاج هذا الفيلم كان قد ذهب (مائة خطوة) للأمام، فإن العودة عنه لم تكن مسألة واردة، لأن الطريقة التي طُرِحَ فيها أصلا، جزء من إنتاجه، وتعني في النهاية أن يكون الفيلم أو لا يكون. ولذلك كان الضغط المعنوي عليَّ متمثلًا في منطق: لا نريد أن يكتب حكاية (دوف) كاتب إسرائيلي جيد، ويكتب حكاية الأبوين كاتب فلسطيني أضعف!!

في نهاية تلك الليلة كنا ندور في حلقة مفرغة، لكن سانتريللي لم يكن من أولئك الذي يقبلون التراجع حتى بعد إخفاق المحاولة الثانية؛ وهكذا، أصر على دعوتي لمشاهدة فيلم (مائة خطوة) في عرض خاص، مؤمِّلا، ربما، في أن مشاهدتي لفيلم ممتاز ستُغيِّر قناعتي؛ فذهبتُ صبيحة اليوم التالي وشاهدتُ الفيلم معه.

كان الفيلم جميلا، مؤثرا، وشجاعا بكل المقاييس، وهو يستند إلى قصة واقعية، حدَثتْ في (صقلية) قبل ربع قرن تقريبا، حين أقدمتْ المافيا على

اغتيال شاب بتفجيره، مستخدمة كمية هائلة من الديناميت، بسبب تحدّيه لهذه القوة العاتية، وسخريته منها ومن رجالاتها في إذاعته المحلية الخاصة. وقد ظلت قضية مقتله تدور في المحاكم منذ ذلك الحين إلى أن أُدين قاتله.

تقول الأم الحقيقية للشاب (بيبينو) بعد صدور الحكم على قاتل ابنها: (لقد وقفتُ أمام صورتك وأقسمتُ، سأدافعُ عنكَ حتى لو كنت على الكرسي النقّال، ولعلمك، لقد فعلتُ ذلك).

وقد كانت الأم قد حضرت محاكمة قاتل ابنها وأدلتْ بشهادتها على الكرسي النقال فعلا، وبالثوب الأسود الذي ترتدي منذ مقتله.

حين انتهى الفيلم صفقتُ له، مع أنني مشاهده الوحيد، وفرحتُ أنني رأيته، وتمنيتُ أن يكون لفلسطين فيلم عالمي بهذا العمق والقوة، لكن جماله ومحاولة سانتريللي الثالثة، لم يكونا كافيين لإقناعي بالدخول في المشروع.

وفي جلسة امتدت حتى الظهيرة، أعدْنا ما قلناه في السهرة من آراء لا تلتقي، وأضاف: إن المخرج الذي رُشِّحَ لتقديم الفيلم هو صاحب (قدمي اليسرى) و (بسم الأب)، فقلت له إنهما فيلمان كبيران لمخرج كبير، شاهدتهما أكثر من مرة، وكان سانتريللي يردد أمام تواصل اعتذاري عن المشاركة في المشروع طوال الوقت: إنني حزين لذلك، إنني جدُّ حزين، إنني حزين تماما...

وقبل أن نغادر المكان، خطر لي أن أسأله: ولكن بعيدًا عن كل هذه الأسباب التي أوْرَدْتَها، أحبّ أن أسألك لماذا هذا الإصرار على أن يكون هناك، فعلا، كاتب إسرائيلي؟

فالتفت سانتريللي إليّ، صمتَ قليلا، وقال: نحن في أوروبا! وسينتج الفيلم هنا، والشيء الذي سيلزمني كثيرا إذا ما أنتجتُ فيلما عن فلسطين، أن يكون لدي درع. والدرع هو وجود كاتب إسرائيلي.

فهززتُ رأسي، وافترقنا.. وأنا لستُ أقل حزنا منه على حالنا!

**

كنت حزينا لأن العالم لا يسمح لنا حتى بامتلاك رؤيتنا الواضحة الخاصة لواحدة من حكاياتنا في رواية نحن كتبناها وتم قتل كاتبها. وإن كنت على يقين من أن هناك تعاطفًا لا بأس به يبديه كثير من الناس، كما أن هناك استعدادا من قِبَلِهم لسماعنا نتحدث عما يحدث لنا ويدور فينا، وأن هناك من يحوّل فلسطين إلى خيار إنساني.

من أول حوار صحفي أجري معي أتذكر دائما هذه الجملة: "نحن نقف مع فلسطين لا لأننا فلسطينيون أو عرب، بل نقف معها لأنها امتحان يومي لضمير العالم"، وفيما بعد، وفي حوار آخر قلتُ: "حتى لو كانت قضية فلسطين واحدة من قضايا جزر المحيط الهندي أو الأطلسي فإننا لا نستطيع إلا أن نكون معها حتى نستطيع القول إننا مع أنفسنا كبشر".

يعود بعض الإيطاليين من زيارات التضامن مع الشعب الفلسطيني، وهم أكثر تشددا من أي اتجاه سياسي لدينا، لأنهم رأوا بأمهات أعينهم. وسأرى ذلك في ايرلندا، سأرى دموع جيم باون، الأستاذ الجامعي الرائع، تُذرفُ في أمسية لي بعد شهادة قصيرة قدّمها عما رآه هناك، جيمس باون الذي سيؤسس جبهة جامعية لمقاطعة الأكاديميين الإسرائيليين في ايرلندا وبريطانيا، وسأرى إندفاعة ذلك الموسيقار الرائع ريموند دين الذي يعمل بتفاني وتواضع نسمة، وسأزور قبر البطل الحقيقي (الأب) الذي قُدِّمتْ حكايته في فيلم (باسم الأب) وسأقرأ بافتتان قولَ ذلك المناضل الايرلندي على أحد الجدران تحت صورته الضخمة (ضحكات أطفالنا في المستقبل هي ثأرنا الكبير)؛ لكن الوضع الإيطالي محاصر بصحافة يمينية، مُسيطر عليها فعلا، وليست محطات التلفزيون الكبرى سوى صورة للصحافة؛ ولذا، فإن منافذنا التي نطل بها على الرأي العام أضيق من ثقب الإبرة، إذا ما قيست بحجم واتساع وقوة الإعلام الإيطالي بشكل عام.

وقد أتيح لي أن أقابل نوعيات كثيرة من الناس، والاستماع إلى أسئلتهم، التي وإن كانت تضمر تحررا من (ذنوب الماضي) التي يرونها قابعة في تاريخهم بشأن اليهود، إلا أنها تسعى بخجل للخروج من هذه الدوامة التي لا تنتهي، وإعلان العصيان في وجه واقع يفرض عليهم أن يدفعوا الثمن أكثر من مرة، وأن يورِّثوا تبعات الدَّين الذي سُدد أصلا، لأولادهم، كي يظلوا تحت أعباء ثقله إلى الأبد.

أما الذين لا يمكن أن أنساهم فهم أولئك الذين دافعوا عن عدالة قضايانا وعملوا على أن يقدموا أفضل صورة لنا، وهم يشبهون اليد التي تصر على أن تصنع معجزتها الخاصة بأن تصفق وحدها في غياب اليد الثانية. وهؤلاء وحيدون، استطاعوا أن يبنوا مشاريع ثقافية كبيرة، وأن يعملوا ليل نهار، دون انتظار حتى كلمة شكرا، وأن يتحمّلوا الكثير في سبيل ذلك الإيمان، وعلى رأس هؤلاء الدكتورة إيزابيلا كاميرا دافيلتو، التي تقاتل منذ أكثر من ثلاثين عاما من أجل الأدب العربي، كتابة وترجمة، وإشرافا على سلاسل أدبية، وخلال سنوات قليلة استطاعت أن تصدر بالإيطالية عبر سلسلتين روائيتين سبعا وعشرين رواية عربية، وعددا غير قليل من الروايات والسِّيَر والكتب التي نُشرت بإشرافها في دور نشر إيطالية مختلفة، وإلى ذلك الرسائل الجامعية التي لا تحصى، الرسائل التي كُرِّست لدراسة الأعمال الإبداعية العربية. لقد دفعت إيزابيلا ثمنا باهظا في بداية حياتها العملية، وحوصرت، وهُددت في عملها، لكنها استطاعت أن تشق دربًا واسعًا للثقافة العربية، وأن تؤسس أرضا خصبة لاحتضان هذه الثقافة، رغم أنها أصيبت بخيبات أمل كثيرة، كان آخرها توقف مشروع (ذاكرة المتوسط) الذي قَدَّم، وكان يسعى لتقديم إبداعات عربية في عدد من اللغات الأوروبية.

والحقيقة أن إيزابيلا أشبه ما تكون بمايسترو كبير، مبدع وخلاّق، لأنها البؤرة التي تلتقي فيها كل النغمات لتشكل في النهاية سمفونية الإبداع

العربي بالإيطالية. وهناك مجموعة من أهم المستعربين والمستعربات أيضا الذين يرفضون إطلاق صفة مستشرقين عليهم، معها أستاذات وأساتذة جامعات ومترجمون مبدعون وأدباء وكتاب ونقاد إيطاليون مؤمنون بأن الجمال يوجد في كل مكان، وأن عظمة الجمال تكمن في اختلافه، وتنوّعه. وهنا لا تستطيع إلا أن تنظر بإعجاب لما قدمته ماريا أفينو، ليوناردو كابتزوني، مونيكا روكو، فرانشيسكا ماريا كرّاو، باتريشيا زانيللي وسواهم، ولذلك الحضور المتألق للأستاذ الجامعي الفلسطيني وسيم دهمش، الذي يفتن الإيطاليين بحضوره الجميل وبحساسية وعمق معرفته للغة الإيطالية. وقد سمعت كثيرين منهم يقولون: إنه يعرف الإيطالية أكثر منا.

كل هؤلاء وسواهم يعملون بدأب وصمت، وتواضع فذ، ليكون للجمال العربي الحقيقي فرصة وسط بحر الدعاية القبيحة.

**

وصلت الدكتورة إيزابيلا صباحا للفندق الذي أقيم فيه بسيارتها الحمراء الصغيرة، توجهنا لمحطة القطارات، كانت تريد أن تطمئن تماما أنني سأكون في نابولي في الموعد المحدد، لأن أمسية في إحدى مكتباتها الكبرى تنتظرني هناك.

وصلنا المحطة لكننا لم نجد مكانا يمكن أن نوقف فيه السيارة، دُرْنا في الشوارعِ مرة، مرتين، دون جدوى، وأخيرًا قالت لي، سنُعيدها للبيت ونستقلّ الحافلة إلى هنا.

أعدنا السيارة وحملتْنا الحافلة إلى أقرب نقطة من المحطة. وقبل الصعود للقطار أخبرت إيزابيلا بأنني حزين فعلا بشأن ذلك الفيلم.

**

بحثت عن مقعدي، وصلته، جلستُ في ذلك الركن الخاص الصغير الأشبه بحجرة، ثمة مقاعد متقابلة فوقها رفّان طويلان لوضع الحقائب.

بعد قليل وصلتْ تلك المرأة العجوز المنهكة التي تجر حقيبتها بوهن. كان العمر قد فعل فعله فيها فاحدودبتْ وصغر حجمها وانزلقتْ النظارة نحو أرنبة أنفها بحيث بدت على وشك السقوط.

بصعوبة جلستْ، بعد أن قرَّبَتْ حقيبتها منها.

قلت لها: هل أساعدك بوضعها على الرف؟

- أشكرك. ولكن هل ستنزلها لي حين نصل؟!!

- بالطبع.

- أشكرك.

حملت ُحقيبتها، الثقيلة فعلا، ووضعتُها فوق الرفّ. التفتتْ إليها مرة مرتين، اطمأنتْ، ثم عادتْ وشكرتني مرة أخرى.

كان الطريق إلى نابولي طويلا، ولم يبدُ أن هناك أحدا على استعداد لتغيير خطته التي أقرَّها لسفره قبل الصعود للقطار، فمن جاء بكتاب راح يقرأه ومن جاءتْ بكرة الصوف راحتْ تنسج طوال الطريق ومن جاء بصحيفته انهمك بما فيها من أخبار.

تذكرت تلك الأغنية الصينية الجميلة في الفيلم الصيني (أغنية التيبت):

إن لم يلتق الناسُ

فلن ينبت الحبُّ بينهم

إن لم يتعارفوا

فليس أمامهم إلا الشقاء

وضعتُ الكتاب الذي أحمله جانبًا ورحتُ أتأمل من نافذة القطار روما تبتعد بتسارع يزداد أكثر فأكثر. أتأمل المشهد وأودِّعه في آن، فلعلي لا أركب هذا القطار مرة أخرى إلى نابولي (هذا ما حدث فعلا، إذ بعد زيارات كثيرة لإيطاليا وإلى نابولي لم أركب هذا القطار منذ ذلك اليوم).

التفتُّ للعجوز، رأيتها تنظر إلي، ودون مقدمات قالت لي: إنني من إسرائيل (من هناك).

وسألتني: من أين أنت؟

عمّ الصمتُ بيننا فأحسستُها تعرف الجواب حتى قبل أن أردّ، قلتُ لها: أنا (الهناك).

وصمتنا لزمن طويل، قبل أن تقول لي دون مقدمات أيضا: إن ابنها يعيش هناك، وأنها جاءت لزيارة أهلها في نابولي. أنا من نابولي أصلا. أضافت.

وصمتنا

ثم قالت لي: ألا تذهب إلى (هناك)؟

- لقد ذهبت قبل سنوات طويلة بتصريح زيارة، لكنني لم أستطع الوصول إلى قريتي (البريج) جوار القدس. أخبروني بأنها دُمِّرَتْ تماما وتم بناء مصنع أسلحة فوق أراضيها. أما الآن فلا يمكنني زيارتها أبدا لأن الوضع أصبح أسوأ.

- ولكن ذلك لا يمنع من أن تزورها مرة أخرى في المستقبل!!

- أتمنى ذلك.

- ربما تستطيع أن تزور بيت أهلك هناك، ربما لم يتم تدميره.

- أرجو هذا، ولكن ماذا لو ذهبتُ إلى هناك ووجدت أن ابنك هو الذي يسكن فيه؟

عاد الصمت من جديد أكثر ثقلا. وهكذا حتى نهاية الرحلة.

حين تباطأتْ سرعةُ القطار بعد أن أُعْلِنَ أننا نقترب من محطة نابولي، نظرتْ إلي، نظرتُ إليها، وقالت: أفهم ما قلتَهُ!

هززتُ رأسي. توقف القطار. اتجهتْ يدي نحو حقيبتها، أنزلتُها، شكرتني. سرتُ خطوتين، التفتُّ ورائي، وجدتُها تصارع ثقل حقيبتها بيأس مُغْلِقَةً الطريق على من خلفها.

- إنها ثقيلة. قالت لي وكأنها تعتذر.

كان الخريف كثيفا على كتفيها.

قلت لها: لا عليكِ، لن تزيد الحقيبة الأمر سوءا بيننا.

عدتُ خطوتين، حملتُ الحقيبة حتى أوصلتها للرصيف.

- شكرا. قالتها بلهجة من جاء ليموت هنا.

ولم أر فيها سوى عجوز متعبة

وعندها اكتشفت بأنني أقل من عدو.

**

كنت أعتقد أنني أنهيت كتابة هذا الفصْل من الكتاب! إلى أن وقعتْ عيناي مساء على ذلك الخبر غير العادي. (عادة لا أقرأ الصحف إلا مساء، فأن تبدأ صباحك بقراءتها ستجد نفسك موزَّعا بين هموم قارات الأرض وأحزانها دفعة واحدة، وهذا ما لا تستطيعه وأنت ذاهب للكتابة عن التفاصيل الصغيرة التي تشغل كلماتك، التفاصيل الصغيرة التي تعمل ما استطعتَ على أن تكون صديقة لكل أحزان وهموم قارات الأرض).

على صدر الصفحة الأولى أطل وجه صبي صغير لفتَ انتباهي اسمه، قبل أن يلفت انتباهي العنوان العريض فوق صورته (أحمد الخطيب) إنه الاسم نفسه الذي يحمله عازف العود الفلسطيني الخلّاق الذي دعوناه قبل شهور لتقديم حفل موسيقي في (دارة الفنون)، وأمضينا معه سهرة طالت في بيتي، بعد ذلك بيومين، استمعنا فيها بإعجاب شديد لما لم نكن سمعناه في الحفل من مقطوعات موسيقية.

كان أحمد الصغير يضع يده تحت ذقنه وبإبهام يده اليسرى يسند خده وهو ينظر للكاميرا مباشرة بعينين ليستا أقل بهجة من بسمته الصغيرة العذبة.

في الثانية عشرة من عمره كان، ما إن ترى وجهه وتقرأ قصته حتى تستدعي وجوه أطفالك فورا.

كان العنوان واحدا من العناوين النادرة في زمن الموت الذي يعيشه الشعب الفلسطيني:

(عائلة شهيد (جِنين) تتبرع بأعضاء من جسمه لمرضى إسرائيليين)

**

الآن، وأنا أجلس لكتابة هذه الكلمات، لا أقول شيئا جديدا، لأن حكاية أحمد الخطيب باتت معروفة في كل أنحاء الأرض.

لقد خرج صبيحة أول أيام عيد الفطر لكي يلعب كبقية الأطفال، وبعد دقائق تلقَّى سيلا من الطلقات التي هبَّتْ عليه من بنادق جيش الاحتلال الإسرائيلي فأصابته رصاصة في بطنه وأخرى في رأسه.

ولأن أحمد يحمل اسم عازف العود الصديق نفسه، فقد تخيلتُ أنهم قتلوا الطفل الذي كان يحلم بأن يصبح عازف عود؛ وكنا رأينا الصورة الشهيرة لذلك الطفل الفلسطيني الذي يقذف الحجر باتجاه الدبابات الإسرائيلية في الانتفاضة الأولى يتحوّل في الانتفاضة الثانية، وفي صورة لا تقل شهرة عن صورته الأولى، إلى عازف كمان.

لقد كبر الفلسطيني الصغير، الفلسطيني الذي حمل الحجر ورماه ليُقَدِّم للعالم الموسيقى.

وتساءلتُ: كم أوركسترا رائعة كان يمكن أن يتم تشكيلها من آلاف الأطفال الذين قتَلَهم الجيش الإسرائيلي منذ الانتفاضة الأولى حتى الآن؟

المفاجأة الكبيرة تمثلَّتْ في قرار والد أحمد التبرُّع بأعضاء ابنه لأطفال إسرائيليين وقد أدركَ أن ابنه يعيش حالة موت سريري. وهكذا اكتشف مكتب شارون أن الفلسطينيين بشر ويمكن أن يفهموا الاعتذار، فاتصل شارون بنفسه ليشكر الوالد الحزين على هذه اللفتة الإنسانية المؤثرة، وبعد قليل دخل رئيس الكنيست الإسرائيلي ريوفين ريفلين على الخط ليشكر الأب أيضا.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يكن يعرف بأن وطنه تحت الاحتلال الإسرائيلي، أو أنه يجهل أن الجيش الإسرائيلي قتل خلال عام ونصف من الانتفاضة الثانية 2647 فلسطينيا، 66٪ منهم إصابات في الرقبة والرأس، من بينهم 600 طفل و 178 امرأة، وإلى ذلك 40 ألف جريح، و10 آلاف معتقل، وأن إسرائيل استخدمت 150 أسلوبا لتعذيب المعتقلين الفلسطينيين حسب تحقيقات(مؤسسة التضامن الدولي لحقوق الإنسان).

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يكن يعرف بأن اجتياحات الجيش الإسرائيلي المتكررة أسفرت عن تدمير 4046 منزلا تدميرا شاملا، وأن القوات الإسرائيلية هدمت 2003 بيوت للفلسطينيين منذ اتفاق السلام في أوسلو. ودمرت 8 آلاف منزل قبل هذا التاريخ. وأن 90 ٪ من الفلسطينيين لا يمنحون تصاريح بناء حسب تقرير جون كولي في كريستسيان ساينس مونيتور.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يكن يعرف بأن الإسرائيليين هدموا 4200 مسجد وكنيسة ومقام ومقبرة قبل عام 48 وبعده حسب تقرير لجمعية سيكوي الإسرائيلية.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يكن يعرف بأنه حتى 17/ 4/ 2000 كانت إسرائيل قد اعتقلت 850 ألف فلسطيني منذ احتلال الضفة وغزة، أو ما يعادل ثلث عدد الفلسطينيين.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يكن يعرف بأن يوسي ساريد العضو اليساري في الكنيست الإسرائيلي قد قال ذات يوم: يبدو أن الفلسطينيين يسيرون على رؤوسهم وليس على أقدامهم. فهذا هو التفسير المنطقي الوحيد لتأكيدات الجيش أنه لا يطلق النار سوى على الأرجل، في حين أن غالبية الإصابات هي في الرأس والصدر!!

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم ير تقرير مراسل ال (بي بي سي) الذي أعده قبل اجتياح مدينة جنين، حيث الكاميرا تتبع شابًا في الثامنة عشرة من عمره وهو يرشدها إلى قبور أصدقائه الذين بدأ يفقدهم منذ الانتفاضة الأولى، منذ أن كان في السادسة أو السابعة من عمره، وكان يقول: هؤلاء أعرفهم كلهم، أعرف كيف عاشوا وأعرف كيف استشهدوا، أعرف أين سقطوا، وأعرف أحلامهم واحدا واحدا.. ويبكي. ثم يشير إلى حفرتين أُعدتا كقبرين، ويقول: دائما هناك حفرتان احتياطيتان. فنحن لا نعرف بالضبط متى نكون بحاجة لهما، أو لأي منهما.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يقرأ ما كتبه وول سوينكا بعد عودته من زيارة لمدينة رام الله المحتلة(لو أردت استرجاع شيء من المشاعر التي خرجتُ بها من زيارة أخيرة قمت بها لرام الله ، فلن أجد سوى الإحساس بالرعب الشديد) أو لم يسمع صرخة غابرييل غارسيا ماركيز بعد مذبحة صبرا وشاتيلا: امنحوا شارون جائزة نوبل للقتل..

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يسمع حكاية ميسون حايك، التي حملها زوجها للمستشفى كي تلد: تمر عن نقطة تفتيش أولى ويجري تفتيش السيارة، يتأكدون أنها حامل، وأمام نقطة التفتيش الثانية، يفتح الجنود النار، على سيارتهم، فتخترق ست وعشرون رصاصة جسد زوجها، وعدة رصاصات جسدها، لكنها ولدت، رغم ذلك، طفلة أسمتها فداء.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يسمع حكاية

سميرة فوزي 38 عاما: طلبوا من زوجي أن يزيح المكعبات الإسمنتية بنفسه إذا كان يريد أن يوصلني إلى المستشفى لأضع مولودي. أو حكاية أمينة موسى أحمد التي اضطرت أن تلد في السيارة، بسبب عدم السماح لها بعبور الحواجز المتتالية، وعلى أحد الحواجز طلبوا تفتيش السيارة ونزول جميع الركاب. كان الطفل لم يزل متصلا بحبل السُّرة الذي لم يعرفوا كيف يقصونه، ولكنهم أجبروها على النزول بهذه الوضعية. أو حكاية عائلة عطية أبو رميلة التي اضطرت للبقاء مع جثمانه لأكثر من أسبوع، بعد رفض الجيش الإصغاء للنداءات الدولية والإنسانية بنقل جثمانه إلى المستشفى، أثناء اجتياح مخيم جنين، أو نسي ما قالته زوجته هالة أبو رميلة (32 عاما) لصحيفة القدس: لم يكن أمامي من خيار إلا تمديد جثمان زوجي في نفس الغرفة لننام أنا وأطفالي والجثة سوية سبعة أيام متواصلة، حاولتُ خلالها إخفاء الحقيقة عن أطفالي وأوهمتهم أن والدهم يعاني من ألم بسيط، ويجب أن ينام. لقد عشتُ لحظات قاسية حين كان الأطفال يحاولون لمس أو إيقاظ والدهم الذي قتله الجيش الإسرائيلي.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يسمع حكاية إبراهيم العواودة 13 عاما الذي غضبت منه أمه في الطريق إلى الحقل وطلبت منه أن يعود، وبعد أقل من دقيقة، سقطتْ قذيفةٌ قتلَتْ الأم زينة، الأخت تهاني 18 عاما، الأخ سالم 9 أعوام، الأخت أماني 8 أعوام، ابن العم طارق 13 عاما، ووزعتهم القذيفة أشلاء أمامه يوم 15/ 3/ 2002 في مخيم البريج، غزة.

(كانت مهمة تجميع الأشلاء شبه مستحيلة، وعملية تعذيب لنا) قال أحد رجال الإسعاف.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد لن يقرأ الحكم الذي أصدرته القاضية الإسرائيلية نوغا أوهاد بشأن قضية الأسير الفلسطيني الذي يحمل اسم ابنه (أحمد التميمي) والذي يقبع في المعتقلات الإسرائيلية منذ عدة

أعوام وهو بحاجة ماسة لإجراء عملية جراحية. وقالت فيه: إنه لا يحقّ للأسير الفلسطيني أن يتلقى العلاج الطبي في السّجون الإسرائيليةا وقالت: هل من جاء ليمسَّ بنا يجب علينا أن نُموِّل له زرع كِلْيَة، ونقدم له العلاج الطبي!!

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يقرأ ما قاله الجنود الإسرائيليون في حواراتهم مع صحف إسرائيلية: تعمدنا إطلاق الرصاص على الأطفال وقتلهم خلال المظاهرات، وبرر أحدهم بعض جرائم القتل هذه بحالة الضجر التي يعيشونها في مواقعهم!!

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يقرأ ما قالته المغنية الإسرائيلية يافا يركوني (77 عاما) التي توصف بأنها مغنية الحروب الإسرائيلية، حيث كانت ترافق الجنود في جبهات القتال، ثم بدأت تتعرض لهجمات من قبل الرأي العام الإسرائيلي، وقامت نقابة الفنانين الإسرائيليين بإلغاء منحها جائزة، وإلغاء حفل تكريم لها لأنها قالت: عندما رأيت الفلسطينيين وأياديهم مربوطة، عندما رأيت هؤلاء الشباب، قلتُ لنفسي هذا ما فعلوه لنا في الهولوكوست، كيف بإمكاننا القيام بعمل مثل هذا بحق أشخاص آخرين.

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك لم يقرأ ما قاله دافيد زونشاين ضابط الاحتياط لصحيفة الواشنطن بوست (لقد غرز فيّ والدي الإيمان بأن عليّ أن أفعل كل شيء في سبيل الدولة.. وبعد أن خدمتُ عدة مرات في الضفة الغربية كضابط احتياط، صرت ألمس بالتدريج أن الأوامر التي أتلقاها وتلك التي أصدرها لجنودي لا علاقة لها بحماية الدولة، بل إنها تحرص على حماية جماعة من المتعصبين والمحافظة على نظام كابوسي يفرض البؤس على جميع الفلسطينيين. ولذلك أرفض الخدمة في الأراضي المحتلة).

لا يستطيع أحد أن يقول إن والد أحمد حين قام بذلك...

**

لم تكن هذه الحالة هي الأولى التي يُقَدِّم فيها الفلسطيني أعضاء أولاده المصابين برصاص الجيش الإسرائيلي لينقذ أولاد الإسرائيليين من الموت الطبيعي الذي يترصَّدهم ويحدّق بهم في المستشفيات، فقد كانت هناك حالة شهيرة قبل سنوات، كُتب عنها الكثير ولكنها باتت الآن في ملف النسيان، وهذا ربما ما يجعلني أكتب الآن عن هذه الحالة الجديدة الشهيرة، فلعل صفحات أخرى تضمّها تساعد على دفْع النسيان عنها في المستقبل دقائق أخرى!!

**

لسبب ما خطر لي أن هذا الفصل له نهاية غير هذه أيضا!! ولذلك أبقيته مُعَلَّقًا.

في الصباح التالي لذلك اليوم الذي تم فيه نشر خبر تبرّع والد أحمد بأعضاء ابنه، قررتُ قراءة الصحيفة مبكرًا، كاسرا عادتي، وباحثا عن المعنى الحقيقي لكلمات الشكر التي وجهها شارون لوالد الصغير أحمد الخطيب. وعلى صدر الصفحة الأولى وجدت صورة أحمد تحتضنها أمه وهو يحتضن غيتارًا!! وفوقها ذلك العنوان العريض الذي يعيد لكلمات شارون (الطيبة) معناها:

(الجيش الإسرائيلي يقتل ويجرح خمسة فلسطينيين.. إسرائيل تُصّعِّد حرب الاغتيالات في الضفة الغربية)

فقلت: يبدو أن شارون اكتشف فجأة أننا يمكن أن نكون قطع غيار أيضًا فها هو يطلب من جنوده أن يمضوا لحقول القتل أبكر، ليثبت لنا بوضوح أنه أكثر من عدو.

وقلت: يبدو أننا، وحتى بعد مائة عام من المجازر التي ترتكب ضدنا لم نـزل قادرين بعد على أن نكون أقل من أعداء.

عن نهاية من نوع آخر

على عتباتكَ تغفو النهاية

حالمةً بوصول البداية

حينما كنت طفلا، كان يأخذني أبي خلال الأعياد لزيارة جدي في مدينة بيت لحم، وفي طريقنا إلى هناك نزور القدس أولّا، كما لو أنها البيت الأول الذي لا يجوز أن نتخطى عتبة أي بيت قبل أن نستظل بسمائه، وبعد يوم أو يومين في بيت ذلك الجدّ، نعرّج ثانية على القدس في طريق عودتنا، نستظلّ بسمائها ونعود إلى بيتنا في مخيم (الوحدات) بمدينة عمّان.

حينما أصبحت شابا، لم يعد بإمكاني زيارة بيت الجد بتلك السهولة، فقد كانت البقية الباقية من ذلك الوطن قد احتُلَّت. لكن باب الدخول إليه لم يكن مغلقا تماما، إذ يتم فتحه وفق شروط الاحتلال الصارمة.

عام 1987 قمت بزيارة لفلسطين المحتلة، من خلال التصريح التقليدي، الذي يستطيع قريب أو صديق مُقيم أن يدعوك بموجبه لزيارته هناك، وهكذا وجدتُ نفسي مرة أخرى على أرض الوطن.

لقد ذهبتُ وتجولتُ ورأيتُ وعدتُ إلى عمّان.

كنت أعمل في مجلة (الحصاد) فقال لي رئيس تحريرها وصديقي العزيز دائما محمد كعوش: يا إبراهيم، غير معقول!! تذهب إلى فلسطين ولا تكتب سطرا واحدا للمجلة.

قلت له: لقد رأيت الكثير، ولا أدري ما الذي يمكن أن أكتبه.

- اكتب لنا ما يملأ صفحتي مجلة مع الصور، لا نريد منك أكثر من ذلك.

لكنني لم أكتبْ

وعندما أوشك على الانتهاء من مونتاج العدد التالي قال لي: لقد تركتُ لكَ صفحتين. لموضوعك عن فلسطين، وسأنتظر منك إحضاره غدا!!

هكذا ذهبت للكتابة على مضض أخيرًا، ربما لإحساسي العميق بأن ما رأيته أكبر من أن أستطيع كتابته، وبعد نصف صفحة أدركت أنني لا أكتب مقالا، بل أكتب كتابا، وفي أقل من ثلاثة أشهر كنت قد فرغت منه تماما. لكنني لم أنس المجلة، إذ اقتطعت لها منه تجربة تلك الأمسية الرائعة في كفر كنا.

ذلك الكتاب، الذي كان أول كتاب عما أطلق عليه فيما بعد (أدب العودة)، كتبتُه بقدر ما كتبَ نفسه، وفيه دخلت تجربة جديدة تماما على كتابتي النثرية والشعرية، ستتطور بعد ثمانية عشر عاما وتصل أوجها في روايتي (شرفة الهذيان) ففيه اختلط المسرح بالشعر بالرواية بالأغنية بالسينما، وإن كان العمل بمجمله قد جاء أقرب إلى السينما من أي نوع آخر.

بعد الانتهاء من (الأمواج البرية) ، بدأت بنشره على حلقات في جريدة (صوت الشعب) الأردنية، وإذا بالانتفاضة الفلسطينية (الأولى) تندلع، ليبدأ بعض الناس بقراءته من زاوية أخرى: زاوية الكتاب الذي تنبأ بالانتفاضة، وخلال تلك الأيام كان الصديق الروائي المصري يوسف القعيد في زيارة لعمان، وحين قرأ ما يُنشر فوجئ، وراح يسألني عن معنى أن

أكتب عملا أدبيا عن الانتفاضة وهي لم تزل في أيامها الأولى، وقد نشر حديثنا فيما بعد في مجلة (المستقبل) نيسان 1988، وفيه بعض الإجابات التي لم تزل صالحة للتعبير عن تلك التجربة.

ومن بين سطور تلك الإجابة: حقيقة الأمر أن هذا الكتاب قد تم إنجازه قبل الانتفاضة بشهرين، وهو وإن كان يتحدث عن الانتفاضة كما يبدو، فإنه محاولة لقراءة الواقع الفلسطيني تحت الاحتلال ونمو الوعي المقاوم لدى الناس هناك. الكتاب إذن عن المقدمات التي تنتهي بإعلان الانفجار العام في خاتمته، وإن كان كثيرون قد اعتبروه هنا في الأردن نبوءة، إلا أنني أقول إن الواقع الفلسطيني في الداخل كان يلزمه فقط من يراه وينقله بوعي فني، لأن الأطفال والشيوخ والنساء والفتيان يسحبونك هناك من قلبك ويشيرون إلى المستقبل ببساطة. لذلك أقول هنا: إن أسابيع قليلة أمضيتها هناك كانت كافية لتحسس بذرة البركان، لا لشيء إلّا لأن كلَّ شيء في فلسطين كان يمضي بثقة إلى غده، وأعتقد أنني لو تأخرت قليلا في كتابته حتى اندلاع هذه الثورة لما استطعت إنجازه، فهنالك فرق بين أن تكتب وأنت مُقَيّد بصورة ما يحدث، وبين أن تكتب وأنت متحرر من حدث ما، لأن الحدث الكبير بعد وقوعه يجعلك تحت تأثير هيبته.

كنت أنهيت الكتاب بعبارة ليست ذكية: هنا ينتهي الكتاب وتبدأ الانتفاضة.

فأرسل لي صديقي المسرحي والموسيقي الفلسطيني وليد عبد السلام، الذي تناول الكتاب جزءا من حياته وفترات اعتقاله، رسالة عاجلة عاتبة بعد صدور الكتاب في رام الله مطلع عام 1988: لقد قالت لي امرأة، تعرف أنك صاحبي، بعد أن انتهت من قراءة (الأمواج البرية)، ما هذه الجملة التي يُنهي بها صاحبك كتابه!.(هنا ينتهي الكتاب وتبدأ الانتفاضة) قل له يا وليد هذا الكتاب هو الانتفاضة، قل له أن يحذف هذه الجملة إذا ما أعاد طباعته ثانية.

وهكذا حذفتها في الطبعات الأربع اللاحقة!!

لكن الشيء الغريب أن مشكلة الكتاب لم تكن في تلك الجملة فقط، بل كانت في نهايته التي سبقتها!!

عام 2002 كان "الأمواج البريّة" قد بلغ الخامسة عشرة من عمره!! لكنني، وفي كل مرة كنت أمضي لتصفُّحه كان ينتابني خوف شديد، إذ إن الكتاب ينتهي بإعادة احتلال المدن المحتلة، ليس هذا فقط، بل إن شارون شخصيا هو من يأمر بذلك، أما المشهد الأخير في الصفحة الأخيرة فهو كالتالي:

(طلعات متتالية لطائرات مروحية فوق المدن المحتلة.

وفي القاعة..

- إن المسألة تعدَّتْ مناطق القدس ونابلس ورام الله. إننا في ذهول تام الآن ونحن نراهم في يافا والناصرة وحيفا يعلنون العصيان أيضًا.

- أيها السادة نحن نفقد السيطرة على مناطق في قبضتنا. وما داموا يتحدُّون سلطتنا فإن المذابح ستستمر.

هنا تبدأ الملامح بالتداخل، تختفي لنرى كل من في القاعة لهم ملامح واحدة: شارون.

شارون 1: يجب التصريح لقوات الأمن بإطلاق الرصاص الحقيقي.

شارون 2: كما يجب إعطاء الضوء الأخضر للجنرالات الذين يتولون قيادة المناطق لقتل واعتقال وإبعاد العناصر المتمردة.

شارون 3: أيها السادة إن مثل هذه الإجراءات تنبع من حقيقة ديمقراطية، إن غالبية الشعب لدينا تطالبنا باتخاذ إجراءات أكثر شدة.

شارون 4: الآن علينا أن ندرك أن من يقول إن البيض يضطهدون السود في جنوب أفريقيا هو كاذب. نحن أيضًا أقلية بيضاء هنا.

شارون 5: الحل يكمن في اعتقادي بإرسال ناقلات مليئة بـالجنود، لقـد سبق (لديان) أن أرسل الدبابات إلى نابلس.

شارون 6: إن العرب صراصير في زجاجة ليس إلا.

شارون 7: إن عدد القتلى المتزايد خصوصًا بين النساء والأطفال يمنحني طمأنينة خاصة جوهرها ان جنودنا يعملون هناك بكامل إخلاصهم.

شارون 8: أعتقد أنه لا يوجد الرصاص الكافي في يد الجنود!!

شارون 9: إن استخدام الأعيرة النارية الحيـة لم يعـد يجـدي كثـيرًا، بـل أستطيع القول إن ذلك أفقَدَ جنودنا وسيلة الرّعب، فبماذا يمكن أن نخيـف المتظاهرين الآن؟

(معارك شرسة في كل أنحاء الوطن المحتل. مشهد شاب يـشرع صـدره ويدعو الجندي لإطلاق النار).

القاعة من جديد، شارون 1 يقف:

لقد تدارسنا الموقف جيدًا ورأينا أن الحل الوحيد يكمن في إعادة احتلال المدن المحتلة!!

(تـصفيق) يختلط تـدريجيًا مـع أصـوات جنـازير الـدبابات وأصـوات الطائرات المروحية والمقاتلة والانفجارات)

... ...

وأحب أن أشير هنا إلى أن كل مقاطع الحوارات السّابقة مقتطعـة حرفيـا مـن تـصريحات للمـسؤولين الإسرائيليـين في ذلـك الوقـت، مـدنيين وعسكريين.

**

من المفارقات الغريبة أنني حين كتبت الكتـاب كـان شـارون يعـيش فضيحة تورطه في مذبحة صبرا وشـاتيلا، بعـد أن أديـن مـن لجنـة تحقيـق

إسرائيلية، وبدا كما لو أن مستقبله السياسي قد انتهى تماما، ولم يكن أقل من مجنون ذلك الذي يظن أن مستقبل شارون لم يبدأ بعد!!

وما هي إلا سنوات، حتى رأيناه يعود أكثر قوة، ليتبوأ المنصب الأول في دولة إسرائيل رئيسا للوزراء! بل تحوّل تدريجيا إلى أقوى رئيس للوزراء في تاريخ إسرائيل، شارون الذي كان يقول عنه بيغن: "إذا ما عينته وزيرا للدفاع، فلن يتوانى عن حصار مقر رئاسة الوزراء بدباباته" ولكن شارون بدل أن يحاصر بيغن في مقر الحكومة مضى لمحاصرة بيروت التي اختتمها باحتفاله الكبير الذي أقامه على أجساد ودماء أولئك الفلسطينيين العُزَّل في (صبرا وشاتيلا).

قليلا ما يتمنى الكاتب أن تكذب رؤاه، وقد تمنيتُ ذلك كثيرا في الانتفاضة الثانية، وأنا أرى دبابات شارون تحاصر المدن المحتلة من جديد، إلى أن تبين لي أن ما نكتبه، وبمجرد أن ننتهي من كتابته، يغدو قادرا على امتلاك مصيره الخاص بت، لا من منظور (موت المؤلف) بل من منظور آخر مغاير تماما. وهكذا، لم يمض الكثير من الوقت قبل أن أكتشف أن هذا الكتاب كان يعني، ورغما عني، الانتفاضة الثانية أيضا.

لست أدري الآن ما هو رأي تلك المرأة الفلسطينية فيه، وما الذي يمكن أن تقوله في (رؤاه السوداء) التي تحققتْ، بعد أن عاشت بفرح غامر رؤاه البيضاء إلى ذلك الحد الذي جعلها تطالبني بحذف تلك الجملة التي لا معنى لها.

زيارة الذاكرة

لم يكن فيه ما يشبه الغرباءَ بشيءٍ
ومرّ غريبًا
ولكن كل الذين رآهم على العتبات هنالك
كانوا هم الغرباء

قال لي: أنت تعرف (غزة) جيدًا!
قلتُ له: لا.

كان ذلك عقب أمسية بمدينة عمّان قرأتُ فيها قصيدتي (الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق) وهي واحدة من القصائد المركزية في تجربتي الشعرية.

تدور أحداث القصيدة ما بين عسقلان ورفح، حيث قام أربعة من الشبان الفلسطينيين عام 1984 بالاستيلاء على حافلة إسرائيلية، للمطالبة بإطلاق سراح زملاء لهم في السجون الإسرائيلية.

تتحدث القصيدة عن شاطئ غزة وأسواق الخُضَرِ والسّمك والجوِّ القاتم الذي يُطبق على رئات البشر وأرواحهم، عن رحلة الذهاب ورحلة العودة لهؤلاء الشبان الأربعة والتفاصيل الإنسانية لطفولتهم، ويفاعتهم، عن حبيباتهم وأمهاتهم ومقاعدهم المدرسية ونخلاتهم وعن تلك النهاية

المأساوية حين قُتِلَ منهم اثنان على الفور، أثناء اقتحام القوات الإسرائيلية للحافلة، وقُتِل الاثنان الآخران بعد أسرهما، وقد حدثتْ فضيحة كبرى ظلَّت تشغل الرأي العام الإسرائيلي والفلسطيني أكثر من عشر سنوات بعد ذلك لأن إحدى الصحف الإسرائيلية تمكّنت من التقاط صور للأسيرين ونشرها وفضحتْ بذلك إدعاءات القوات الإسرائيلية التي قالت فيها: إن الأربعة قُتلوا فورا أثناء العملية العسكرية.

فيما بعد تبيّن أن الجنود قاموا بتحطيم جمجمتيهما بالحجارة والهراوات بعد أن تم اقتلعوا أعينهما.

امرأة إسرائيلية كانت في الحافلة أدلتْ بشهادتها بعد ذلك وقالت: إنهم تحدثوا عن السلام وإن أعمارهم كانت بين السابعة عشرة والعشرين، وإنهم قاموا بإنزال امرأة إسرائيلية حامل من الحافلة.

في نيسان 1985 أيّ بعد مرور سنة، تمت مكافأة الضابط إسحق مردخاي الذي أشرف على عملية قَتْل الشهيدين بترقيته إلى رتبة (لواء). وظلَّ مردخاي يتقدّم في الجيش إلى أن أصبح وزيرا للدفاع!! رغم أن الفضيحة لم تمّت؛ ولم يكن ذلك غريبًا فقد أجرت صحيفة حداشوت الإسرائيلية أيامها استطلاعا للرأي طرحت فيه السؤال التالي: قَتْلُ الفلسطينيين اللذين اشتركا في خطف الحافلة هو أمر: خطير ويبعث على القلق؟ يتعارض مع القانون؟ يقبله المنطق؟

وكانت نتيجة الاستطلاع أن 84.4٪ من الذين وجّه إليهم السؤال أجابوا بأنه أمر يقبله المنطق!!

**

قال لي: لا بد أن تكون زرتها على الأقل!

قلت له: لا.

دهش كثيرًا. قال: من المستحيل أن يكتب أحد قصيدة تصف كل هذه التفاصيل الدقيقة عن مكان لم يزُره.

لكن الحقيقة أنني لم أزر غزّة حتى الآن.

بعد عشرين عاما من كتابة هذه القصيدة كتب لي صديقي الكاتب الفلسطيني محمود شقير بعد أن قرأ مخطوطتي روايتيّ: (أعراس آمنة) التي تدور أحداثها في رام الله و (تحت شمس الضحى) التي تدور أحداثها في غزة أيضا: كأنك تعيش بيننا.

ولا أظن أن هنالك إطراء يمكن أن يسمعه كاتب فلسطيني محروم من وطنه أجمل من هذه العبارة.

كأنك تعيش بيننا.

هذا يعني أنني هناك رغم كل شيء، رغم الحدود والدبابات والطائرات والحواجز الإلكترونية وغير الإلكترونية وحقول الألغام.

كم يسعد المرء إحساس كهذا، كم يسعده أن كل تلك القوة لم تستطع طرد روحه من المكان وأشواقه من سهول قمحه وبيارات برتقاله وكروم زيتونه.

لكن هذا الأمر الذي يبدو اكتشافا بالكتابة، هو أمر مألوف تماما في الحياة اليومية للفلسطيني في منفاه. إذ يبدو دائما أنه يعيش في مكانين مختلفين في الوقت نفسه، ويُوزِّع كيانه بين جسد يحتاجه كي يعيش في منفاه ليظلّ كإنسان واقعا حيا وبين روح تتطلّع إلى وطن وتتسلل خلسةً إليه رغم كل هذه السنوات.

لقد لاحظتُ شيئا مهما حينما بدأتُ جَمْعَ شهادات نساء ورجال فلسطينيين عاشوا مرحلة ما قبل النكبة عندما باشرتُ العمل على إنجاز مشروعي الروائي (الملهاة الفلسطينية) عام 1985، فقد كانت الصّورة هي الجزء الأبرز من شهاداتهم، إنهم يتحدثون عن كل مكان أُقتلعوا منه أجل،

ولكنك تحسّ في كل لحظة أنهم تحوّلوا إلى جهاز لعرض الصُّور، فكل ما يتحدثون عنه تراه، وكل ما يصفون رائحته تشمّه، وكل ما يصفون صوته تسمعه.

كانت تلك التجربة مفتاحًا للعودة إلى أحاديث أهلي عن الوطن، أحاديث أمي، أبي، جدي، جدتي، خالاتي؛ قالت لي خالتي حليمة ذات يوم عن حادثة عاشتها أثناء ثورة 1936: (وقفتُ على حافة العلّيـة، كانت الشمسُ تغيب، نظرتُ في البعيد فقلتُ إنها عاصفة، ولكنني لم أكن أحسّ بوجود رياح! إلى أن بدأتُ أسمع وقع أقدام خيل، كان الغبار يغطي كلّ شيء، الغبار الذي تجعله أشعة الشمس كالضباب المضيء، وضعتُ يدي فوق عينيّ اللتين أغمضتهما نصف إغماضة، وحاولتُ أن أرى جيدًا، وحينما تأكّد لي أنهم إنجليز رحتُ أركض إلى الداخل لأصله بسرعة تفوق سرعة خيولهم، لقد تذكرتُ مسدس أبي، فقلتُ إذا عثروا عليه سينسفون الدار، أزحتُ الصندوق الكبير، أخرجته، وخبأته في صدري).

ما أريد قوله هنا: إننا كنا نزور فلسطين ونتجوّل فيها يوميًّا دون أن ندري، فذاكرة الأهل التي خرجتْ كاملة محتشدة بأدق أدق تفاصيل قراهم ومدنهم وما عايشوه على مدى سنوات وسنوات، كانت أكثر قوة من أيديهم التي لم تستطع أن تحمل سوى القليل من متاعهم وهم يغادرون تلك المدن والقرى.

ما أريد قوله إن هذه الزيارة تختلف عن زيارة أي مدينة في العالم تحلم أن ترى صورتها الآن، وعليك أن تمضي متحرِّرا من الصورة التي رسمتَها لها، لأن زيارة فلسطين تعني أن تزور مئات القرى التي لم يعد لها وجود، بيت أبيك الذي يقام فوقه الآن مصنع للأسلحة، بيارة البرتقال وكرْم الزيتون اللذين تحولا إلى مستوطنتين والملاعب التي تحولت إلى مطارات عسكرية.

كان الشيء الأهم في زيارتي لفلسطين هو أن أزور الذاكرة.

**

في عام 1987، حين أتيحت لي فرصة زيارة فلسطين، لم أُدرك في البداية أنني كنت أرى أثناء التنقُّل من مدينة إلى أخرى ما رأيته آلاف المرات؛ كل شيء كانت تقع عليه عيناي كان أليفا ومعروفا: شوارع (رام الله)، ليالي (القدس) ونهاراتها وهيبتها وذلك الضوء الفذ الذي يشع من حجارة أسوارها وبيوتها وكنائسها ومساجدها، امتداد سهل (الرَّمْلة) وصفاء بحر (يافا)، أزقّة حيفا وشبابيكها التي تتبادل الأحاديث بلهجة فلسطينية أصيلة كما لو أن أحدا من أهلها لم يغاردها، شوارع عكا القديمة وقلعتها وصعود (الناصرة) إلى السماء، وذلك الصمت الذي تستطيع التجوّل فيه على شاطئ بحيرة (طبريا) وقد تحوَّلت مياهها إلى موسيقى.

ليست تلك محاولة الغائب إسباغ صورة مقدَّسة على ما يفتقده، فهناك البؤس وهناك الخراب وهناك الموت وهناك الحزن في كل زاوية، لكنك لن تستطيع أن ترى ذلك كله، جمالا وخرابا سوى بعيني الأمل.

.. وتكاد تنسى أن أهلك طُردوا من هنا ذات يوم لولا أنك فجأة تتذكر الطريقة المذلة التي عانيت منها، وغيرك، على الجسر وأنت تعبر نقطة الحدود.

**

أمضيتُ معظم أيام تلك الزيارة في بيت صديقي وليد عبد السلام، تنقّلنا من مكان إلى مكان وحين كنا نعود نبدأ جلسات العمل! فأكتب له الأغنيات وهو يلحنها أو أنتقي له مقاطع تصلح كأغنيات من دواوين شعراء فلسطينيين، وبين حين وحين كنتُ أقول له إنني سأمضي لزيارة عمّي في (بيت لحم) وأزوره فعلا، وبعد ساعات أقول لعمّي إن علي زيارة بيت صديقي وليد عبد السلام في رام الله، فأخرج وأتجول في بيت لحم كما لو أنني أتجوّل في عمّان - لم يحدث أن فقدتُ الاتجاه أو ضعتُ- وفي اللحظة الأخيرة أقرر أن أنام في المدينة، فأتوجّه إلى فندق مُطلٍّ على ساحة كنيسة المهد وأمضي بقية الليل فيه، وقد كان الأمر نفسه يحدث معي في رام الله

نفسها، فبعد أن أخرج من بيت وليد، أحسّ بأنني لا أريد الخروج من المدينة فأتوجه إلى فندق صغير أضع حقائبي فيه وأواصل التجوال ما بين رام الله والبيرة وما بين رام الله والقدس، خائفا أن التقي بوليد مصادفة فيغضب لأنني غادرتُ بيته، وأبتعد أحيانا حتى أصل جنين وقد كنت أمضيت ليلة في نابلس عند وصولي فتجولت فيها بالإحساس نفسه.

كانت تلك الرحلة من أكثر المرّات التي تحركتُ فيها أثناء زيارتي لأي مكان في العالم، وقد كان أكثر ما يُربكني صباحا، حين أستيقظ، هو عدم معرفتي في أيّ مدينة أنا؟ وحين أتذكّر، أجلس على حافة السرير طويلا وأنا أكاد أن أبكي.

فنادق وأَسرَّة

يفتش في الحلم عما يريد

وحين لا يجده

يصطاده الصحو

بعيدا عن كتاب الوصايا المسطر بكلمات الخوف، كـان أول شيء أفعلـه بعد الوصول إلى فندقي في مداين الخروج إلى الـشارع. لم تكـن الـساعة قـد تجاوزت العاشرة والنصف ليلًا.

كنت استلمتُ مفتاح غرفتي، تبعتُ موظف الفندق للمـصعد، فـتح لي باب الغرفة، اتجهتْ يدُه لمفتاح الضوء، وأمامي امتـدت الغرفـة شاسـعة إلى حد استثنائي.

- هل هذه لي؟

هزّ رأسه.

خمسة أسرة!! من بينها سريران كبيران، كانت موزعـة في تلـك المـساحة الرحبة. بينها وقفتُ حائرًا، أيهـا أختـار. في النهايـة كـان لا بـد لي مجـبرا أن أختار ذلك المجاور للهاتف. قلت: سأنام على هذا.. وخرجتُ.

**

لم يكن هناك الكثير الذي يمكن أن أراه، الشوارع شبه خالية، العربات تمرُّ مسرعة، وكذلك الحافلات. وصلتُ إلى الشارع الرئيس الذي كنتُ تبعتُ ضجتَهُ، لم يكن يبعد أكثر من خمسين مترًا عن بوابة الفندق.

تحت الإشارة الضوئية، حدقتُ يمينًا، يسارًا، إلى أعلى حيث البنايات تصعد، انعطفتُ يسارًا. بعد أقلِّ من خمسين مترًا أيضا، لاحتْ لي الأضواءُ المعلَّقة في السماء، أضواء البيوت فوق الجبال.

ذكَّرني ذلك بمدينة (تَعِز) اليمنيّة، كنتُ أمضيتُ ليلة في أحد فنادقها عام 1980. وصلناها ليلًا قادمين من (عدن) متجهين إلى (صنعاء)، وحين نظرتُ للأعلى بدا لي أن المدينة ملتصقة بالسماء. كان صعودها لا نهائيًّا، بحيث لا تستطيع أن تعثر على فَرْقٍ واضح بين نجوم السماء والنوافذ المضيئة للمدينة، كنتُ في (عدن) قد كتبتُ قصيدة قصيرة، وفجأة أدركتُ أنني سأكتبُ أخرى وأخرى، فكانت مجموعة قصائد بعنوان (أزهار عدن).

في أولِّ الدرب كنتُ أشير إلى بيدر من بيوتٍ وأسألُ
هل تصلُ الريحُ تلكَ القممْ؟!
ولولا اندفاعُ الطفولةِ فيَّ لقلتِ: نعمْ.
ونصعدُ حتى نُقَلِّبَ لونَ السماء بقاماتنا
- آهِ لا تنتهي الأرضُ في أرضكم -!!
ولولا اندفاع الطفولةِ فيَّ
لكنتُ رأيتُ الصحارى تحاصرُ أشجارَكم.

... ...

حين عدتُ للفندق كنتُ قد حددتُ مكاني، موقعي في المدينة، لكنني لم أستطع أن أحددَ الجهةَ التي تشرقُ منها الشمس؛ ولذا لم أغلق الستارة تماما.

ألقيتُ بجسدي على السرير، مُدركًا أن المهمة الصعبة تبدأ الآن!!

دائما، كان هنالك سوء طالع فيما يتعلق بنومي في الفنادق. في عروس الشاطئ السّوري (اللاذقية)، فرحْتُ ذاتَ يوم بالغرفة المطلّة على البحر وبرك السباحة، وحين جاء الليل ندمتُ على ابتهاجي المتهوّر، لأن الأعراس كانت تقام ليليًّا حول البرك. لم يكن باستطاعتي إغماض عيني قبل الرابعة فجرًا. ولحسن الحظ، كان بإمكاني متابعة أفلام جيدة تعرض في إحدى المحطات بصورة متواصلة. عندما انتهى المهرجان وعدتُ لدمشق، قلتُ سأمضي ليلة مريحة هنا بعيدا عن البحر، وهكذا سعدتُ كثيرا حين استلمت مفتاح الغرفة الواقعة في أحد الطوابق العليا، الغرفة التي لا تطل على الشارع الرئيس.

عندما عدت للفندق بعد سهرة طويلة، وجدتُ أن عرسًا استثنائيًّا يقام في ساحة النادي تحتها، وهكذا جلستُ أنتظر انتهاءه حتى الرابعة صباحا أيضًا.

في البحرين، اكتشفتُ ظهرًا أنني قريب من المصعد فغيّروا غرفتي، وحين ذهبتُ للنوم متأخرًا بعد سهرة مع الأصدقاء، اكتشفتُ أنها تحت المرقص تمامًا، وأن السرير يعلو ويهبط، ومن عليه أيضًا، مثل تلك الحلقة الشهيرة من حلقات (توم وجيري).

أما أكثر الحالات التي بتُّ أتنبه لها، كي لا أقع في براثن إزعاجها، فهي وجود الغرفة بجوار غرفة الخدمات، أو خزانة الخدمات.

في أيرلندا، كانت الغرفة الأخيرة المتوافرة، وحين دخلتها، كانت واسعة. لا غبار عليها، ولكنني حين اتجهتُ لباب الحمام وفتحته، كان سقفه أقل ارتفاعا من قامتي بكثير، بحيث لم يكن باستطاعتي أن أحلق ذقني واقفًا.

في دعوة وجّهَتْ إليّ من أحد الأندية الثقافية، متواضعة الإمكانيات، في دمشق، أخبروني أنهم حجزوا لي في فندق متواضع!! ولأنني أدرك الحالة التي يعانون منها، قلتُ لهم لا بأس، وإن كان هناك مشكلة فيمكنني أن أحجز في فندق آخر على نفقتي. قالوا: لا، إنه متواضع، ولكنّه جيد!

حين وصلتُ الغرفة، وقفت أمام بابها الضيق مرتبكا، أشرعوا البـاب لي بأدب جمّ، كنت أتوقّع أن يسبقني موظف الفندق للـداخل ليـشير بيـده إلى أرجاء الغرفة! لكنه تراجـع خطـوتين وأفـسح الطريـق لي، لأن المـساحة لا تتسع سوى لشخص واحد بصعوبة!

أشبه بزنزانة صغيرة كانت، وبعد ساعتين أصبحت على يقين بأنها كانت كذلك، لأن حمامها لم يكن سوى خزانة ملابس!!

عبثا كنت أحاول تحريك يدي باتجاه رأسي أو استخدام (الليفـة) دون أن يرتطم كوعي بأحد جدرانه.

لكن خجلي منعني من أن أغادرها. أحسست أن ذلـك سـيكون مُحرجًـا كثيرًا لهم.

...

ويمكنني أن أمضي لأتحدث عن سلالم خشبية ملاصقة لجدران الغـرف، أرضيات وأسقف تطقطق، وأجنحة واسعة تصلح للملوك لا لشعراء، ولكن ثمة مشكلة دائمًا.

ذات يوم وجِّهَتْ إلي الدعوة لإجـراء حـوار تلفزيـوني طويـل لإحـدى الفضائيات، وصلتُ، ظـل المـصعد يـصعد بي إلى أن بـتُّ عـلى يقـين أنهـم حجزوا غرفة لي في الفضاء الخـارجي! وأخـيرا وجـدتُ نفـسي أمـام بـاب ذهبي: جناح فخم يضمُّ قاعة جلوس وغرفة طعام ومطبخا وثلاثة حمامات، وغرفة شاسعة بسرير مخملي وأقمشة حمراء مذهَّبة - تتنــزل مـن شيء يـشبه التاج يتوهج في أعلى الجدار- وتتجه نحو حـافتي الـسرير كجنـاحي طـائر عملاق.

بدا الأمر للحظة لي انتقامًا من كلِّ تلك الليالي المزعجة التي أمـضيتُها في فنادق كثيرة منتشرة على طول هذه المعمورة وعرضها. لكننـي مـا أن نمـتُ حتى بدأ نذير عاصفة قادمة يتململُ خـارج النافـذة، ومـا هـي إلا لحظـات حتى بدأتُ سماعَ صوت ارتطام شيء ما بجدار الجناح من الخارج، ومع كل

دقيقة تمرّ كان يشتدُّ ويشتدُّ محوِّلا تلك الليلة إلى جحيم حقيقي. اتصلتُ بالاستقبال فاعتذروا: لا نستطيع أن نفعل شيئًا حتى الصباح.

في السابعة صباحًا كنت أحدِّق، من خارج الفندق، في ذلك الشيء المرعب الذي كان يُصدر هذا الصوت، ولم يكن هناك سوى صورة رئيس الدولة التي ثُبِّتَتْ على واجهة الفندق بارتفاع عشر طبقات.

قلت: لن يستطيعوا إزالتها. لن يجرؤ أحد على ذلك.

ظهرا عدتُ للفندق بعد جولة في المدينة، فرأيتُ العمال في الأعلى يحاولون تثبيتها بشكل أفضل.

قلت: سأكون إذن فيما تبقّى لي من ليال هنا، تحتَ رحمة الريح.

لكن تلك الليلة كانت أكثر رحمة من ليلة أخرى أمضيتها في فندق ببغداد! ذلك الفندق الذي كان يغصُّ بالمدعوين مع أربعة فنادق أخرى، إلى حد أنهم وضعوا اثنين من الضيوف في كل غرفة.

عند الخامسة صباحًا صحوتُ وإذا برَجُليْ أمن بلباسهما الأخضر الحربي أمام السرير تمامًا.

وقبل أن أدرك ما يدور، أو يدرك صديقي الشاعر يوسف عبد العزيز ذلك، ألقوا فوق كل سرير بذلة عسكرية خضراء وأمرونا: البسوا واتبعونا إلى قاعة الفندق.

نظرت إلى يوسف، وقلت: إلا هذا!

وقد سمعنا إشاعات حول زيارة للجبهة أو لمقابلة الرئيس.

- وما الحل؟ سألني يوسف.

- عدم الذهاب رغم كل ما يمكن أن يحدث.

وهذا ما كان.

إذ تحصنّا في الغرفة غير عابئين برنين جهاز الهاتف المتواصل الذي يدعونا.

بعد الحرب الثانية على العراق عام 1990 تلقيتُ دعوة لحضور مهرجان "المربد" احتفاء بالانتصار الكبير في أمّ المعارك! أفزعني الأمر، أفزعتني تلك الجرأة الرامية لاستلاب وعينا وقد تم تحويل تلك الكارثة إلى نصر، ومنذ ذلك اليوم لم أذهب إلى هناك في أيّ مناسبة أدبية أو غير أدبية رغم توارد الدعوات سنويا، وكانت المرّة الوحيدة التي زرتُ فيها بغداد بعد ذلك، يوم نظّمتْ رابطة الكتاب الأردنيين رحلة بالطائرة في إطار الدعوات الشعبية الرامية إلى كسر الحصار المفروض على الشعب العراقي.

**

تحسستُ الوسادة فوق السرير. قلت: إن لم ينجح الأمر هنا، فعلى الأقل هناك أربعة أسرّة احتياط.

كنت متعبًا تمامًا، في حالة من حالات انعدام الوزن، وعلى ثقة بالتعب الذي يسكنني! قلت: سأوكل إليه مهمة دفعي نحو نوم عميق.

بعد منتصف الليل، اكتشفتُ ضرورةَ تغيير السرير، ولم يكن عليّ أن أفعل أي شيء، سوى أن أنهض وأزجَّ نفسي في سرير آخر.

لم تمر أكثر من دقيقة، ومع مرورها اكتشفتُ أنني لن أستطيع الذهاب لسرير ثالث، عدتُ للأول ملبيًا إحساسًا غريزيًّا بأنه الأفضل. وبعد ساعتين كان عليّ أن أنهض ثانية. نوابض الفرشة هي المشكلة، قلبتُها في العتمة، استلقيتُ عليها ممتحنًا إمكانياتها، بعد لحظات تأكّد لي أن الأمور ستسير بشكل رائع.

وهذا ما كان

حتى نهاية المهرجان!

جيران المسافة

قال الطائرُ حين رأى الدجاجةَ على الأرض:

سيأكلها الثعلب.

قالت الدجاجةُ حين رأت الطائرَ في الأعلى:

سيأكله النسر.

كان الرجلُ يطلُّ من النافذة نحو الفِناء يتأمل الدجاجةَ

ويفكر في غدائه.

والصياد يتطلع للسماء

بعين بندقيته!!

ارتديتُ سترتي، حملتُ مظلَّتي، وغادرتُ الغرفة.

عند الفجر كنتُ استيقظتُ على صوت المطر، المطر الذي لم يكن مفاجأة لي، فطوال الأسبوع السابق للسفر تتبعتُ أحوال الطقس في (مدايين) عبر شبكة الإنترنت، ولم تكن أخباره تسرّ.

عواصف رعدية، رطوبة متوقعة تصل إلى 95٪، إنه الطقس المثالي الذي أكرهه. الطقس الذي كان سببًا، في أحيان كثيرة، للاعتذار عن السَّفر إلى بلد ما، أو تأجيله.

يمكن أن أحتمل أي شيء سوى الرطوبة.

لأيام طويلة أحسستُ أن السفر إلى كولومبيا ورطة كبيرة، وفي حين اختفتْ أخطار الإشاعات، ما كان منها صحيحًا وما كان خطأ، حول خطورة التنقُّل، المخدرات، الخطف، العصابات، وما إلى ذلك، كانت الرطوبة تحتل المرتبة الأولى بين هذه الأخطار.

قبل الذهاب إلى المطعم، لتناول الفطور، نزلتُ الدرجات المفضية للشارع، كانت الحياة تضجُّ بحركة غير عادية. إنني في قلب المدينة إذن، نظرتُ إلى السماء. هناك الكثير من الغيوم. حاولتُ العثور على الشمس، أن أحددَ موقعها، لم أستطع، كان السَّحابُ أشبه بقبّة مضاءة برماد شفيف تغطي المدينة.

لم يكن ثمة مطر، وضعتُ المظلَّة في جيبي، إنها مظلة مثالية للسفر، صغيرة، تُطوى فلا يعود ارتفاعها أكثر من ارتفاع كتاب، كنتُ ابتعتها من كوريا، وفي الوقت الذي رحتُ أفكر فيه بالرطوبة، محاولًا استشعار وجودها عبر خلاياي، لم يكن هناك ما يشير إليها، كان الطقس خريفيًّا جميلا، رغم أننا في نهايات حزيران.

إنها المفاجأة الجميلة الأولى. المفاجأة التي دفعتني برقّة إلى خانة المتفائلين.

قطعتُ المسافة التي قطعتها ليلا، وتجاوزتها قليلًا!! حين لم أجدها كافية لكي أعرف أكثر، وأرى. ومن موقعي أتيح لي أن أُدرك أن المدينة محاطةٌ بالجبال من جميع الجهات، وأن مركزها في القاع المنبسط، وأن جبالها أكثر ارتفاعًا مما توقعت.

عدتُ للفندق أكثر انشراحًا، وقد تخففتُ من قلقي بشأن الطقس وتعبي بسبب السفر الطويل.

شبه خليّة نحلٍ كانت قاعة الطعام، وفيها، أتيح لي للمرة الأولى أن ألتقي عددًا من الأصدقاء، عربا، وغير عـرب، وأولئـك الـذين تبادلـتُ وإيـاهم الرسائل لشهور طويلة.

بعد قليل، سأدركُ أننا سننتشر في الاتجاهات كلها، فهناك، يوميًّا، ما بـين اثنتي عشرة وسبع عشرة أمسية! تبدأ الأولى في العاشرة صباحًا والأخـيرة في السابعة مساء. وهذا يعني أن كل يوم في المهرجان هو مهرجان بحد ذاته.

كنتُ أتصوّر أن مدايين مدينة صغيرة، وتبين لي أن عدد سكانها يصل إلى أكثر من مليـونين، ولكـن ذلـك لا يُفـسر وجـود هـذا العـدد اليـومي مـن الأمسيات لهذا العدد من الناس، ففي مدن يصل تعداد سـكانها إلى عـشرين مليونا لم أجد أحدًا من منظمي مهرجاناتها يملك الجـرأة لتنظـيم أكثـر مـن أمسية واحدة في اليوم.

قال لي (فرناندو وندون) الشاعر الكولومبي ومدير المهرجان: سترى مـا لم تره من قبل. وهمس لي آسفا: تأخُّر طائرتـك يومًـا حرمـكَ مـن مـشاهدة حفل افتتاح المهرجان. كان هناك خمسة آلاف إنسان.

- خمسة آلاف!

- خمسة آلاف، نعم.

لم يكن هناك الكثير من الوقت، فبعد قليل سنتحركُ باتجاه الموقـع الـذي ستقام فيه أمسيتي الثانية في الحادية عشرة قبل الظهر (كـان البرنـامج يـضم ست أمسيات لي، بواقع أمسية كل يوم).

أطلَّ جون سوسا بابتسامته، متأبطًا قصائدي بالإسبانية، فرحًا كان.

- أميغو!!

- أميغو. رد. وقد فوجئ بسرعة تعلمي للإسبانية!

- لامانو.. بيوتيفوول.

- غراثياس.

وأصبحتْ دهشته أكبر.

قال الكثير من الكلام الذي أحسستُ بمعناه دون أن أفهمه. وبدا أن حاجز اللغة سيكون مشكلة كبيرة بالنسبة لنا الاثنين، لا سيما أننا سنمضي معا ستة أيام على الأقل. هكذا بدا لي الأمر، لكننا وبعد لحظات سنكتشف أن الأمر غير ذلك!

كان راؤول جيمي، الشاعر الكولومبي الذي قام بترجمة قصائدي قد فعل شيئًا بسيطًا ورائعًا، إذ ثبَّتَ العناوين الإنجليزية للقصائد بجانب العناوين الإسبانية. بحيث أصبح اختيار القصائد، ومعرفتها، أمرًا سهلا.

قال جون سوسا الكثير، وفهمتُ منه أنه يسألني عن القصائد التي سأقرأها هذا الصباح. وأفهمتُه أننا سنختار فيها بعد، عندما نصلُ لموقع الأمسية. هزَّ رأسه موافقًا، ولكنه بعد قليل أفهمني بأن علي أن أقرأ قصيدة (اليد) تحتَ كل الظروف.

قلت له بالإنجليزية: أنني موافق.

والحقيقة، أنني لم أدرك لماذا كنتُ أتحدث معه بالإنجليزية التي لا يعرفها، في الوقت الذي يتحدث هو معي بالإسبانية التي لا أعرفها، وقد كان يمكن أن أتحدث معه بالعربية دون أن يكون هنالك فرق كبير.

ربما كنت آمل أن تمرَّ كلمة إنجليزية لها ما يشبهها في الإسبانية، وهذا أضعف الإيمان.

لم أزل مبهورًا بأمسية الأمس كنتُ؛ بفرادتها وهي تقام وسط شارع عام بعد تحويل حركة السير وابتكار هذا المسرح الطائر العظيم، حين سألت عن موقع أمسية، اليوم: قالوا لي: إنها في (كروز).

قلت: في (كروز) إذن!

دون أن أعرف شيئًا أكثر من الاسم.

بعد قليل، ولم أر تنظيمًا رائعًا كهذا من قبل، كانت السيارات تنطلق حاملة الشعراء إلى الجهات الأربع بدقة متناهية، إلى جانبي جون سوسا والشاعر الكولومبي غابرييل جيمي فرانكو من اللجنة المُنَظِّمة للمهرجان وصديقته.

لم يكن المهرجان يملك أسطولا من السيارات، فالسيارات مستأجَرة في الغالب، أو لأصدقاء أو عاملين في المهرجان، وفي ظلِّ وجود ثمانين شاعرًا من أكثر من أربعين بلدًا، بدا الأمر لي بأن السيطرة على الأمر مهمَّة مستحيلة.

من شباك سيارة التاكسي كان باستطاعتي أن أرى المدينة للمرة الأولى، وقد حددتُ عددًا من المواقع القريبة التي سأعود إليها ظُهرًا.

بعد ربع ساعة راحتْ السيارةُ تصعد بنا السّفح، وما بين لحظة وأخرى، كنا نحسُّ بأن السيارة قد بدأت تبذل جهدا أكبر، كما لو أن أوزاننا ازدادت. ومن شُبَّاكها كان يمكن أن نلمح الحافلات الملونة مثل ببغاوات جميلة مزهوّة بألوانها صاعدة هابطة بسرعة بدت لي بأن فيها الكثير من الطيش، وكأنها نوع آخر من الطيور الذي لا يعنيه الارتفاع أو الهبوط شيئًا.

ضاقت الطريق الصاعدة، وبدأت الانعطافات تصبح أكثر حدة، الحفر تزداد، والسيارة التي كانت تنهب الأرضَ قبل قليل أسفل الجبل، أكثر تواضعًا، وقد راح صوتها يزداد خشونة ومحرِّكها يجأر محاولا التقاط أنفاسه بصعوبة!

ألقيتُ نظرة بعيدة على قمة الجبل. أدركت أن هناك الكثير الذي علينا أن نتوقعه، بعد أن أشار غابرييل إلى موقع الأمسية.

- هناك.

لم يمض الكثير من الوقت. ثلاث دقائق كانت كافية كي تنهار قوى السيارة تمامًا أمام عظمة الجبل. ارتجَّ صوت مُحرِّكها تصاعدتْ حشرجتُها، ارتجّتْ مرتين، ثلاثًا، كما لو أنها تحاول القفز، ثم توقّفَتْ.

محرِّكها يدور أجل، أما عجلاتها فلا.

التفتَ السائق إلينـا، قـال كلامًـا قلـيلا، فهمـتُ منـه أن علينـا مغـادرة السيارة. كانت في منتصف صـعود حـاد يُنـذر بتقهقرهـا سريعًـا للخلـف، حيث الهاوية.

نـزلنا بحـذر خـشية انـــزلاقها فجـأة، محـاولينَ بآذاننـا التقـاط صـوت احتكاك عجلاتها بالتراب وما تبقى من إسفلت، إذا ما تحرَّكَتْ..

كان السائق يشد على المقود بقوة، كما لـو أن الـسيارة سـتفلتُ مـن بـين يديه، في حين أشار علينا غابرييل أن نصعد الجبل على أرجلنـا لنلقاهـا بعـد نهاية هذا الصعود المُهْلِك.

صعدنا، تغير الطقس تمامًا، الـشمسُ تطـلُّ مـن بـين الغيـوم بـين لحظـة وأخرى، والهواء يزداد نعومة وبرودة كلما صعدنا أكثر. قال غابرييـل: نحـن الآن على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر.

بعد قليل تفهَّمْنا ذلك العناء الذي تتكبده سيارة صاعدة مع وجود خمسة أشـخاص داخلهـا، لكـن الحافلـة الملونـة التـي تغـصُّ بالركـاب، الحافلـة الضخمة الممتلئة التي تجاوزتنا نحو القمة بهمة لا يستهان بهـا، جعلتنـا أقـلّ ثقة بسيارتنا.

اندفع العرق فوق جباهنا، وفي الوقت الذي كان فيه غابرييل غـير مبـال بأي شيء، ومنشغلا وصديقته بحوار حميم، كنت وجـون نتبـادل أحاديـث كثيرة بلغتين لا تلتقيان، بانسجام غير عادي، ولم يَسْلَمْ غابرييل من تعليقاتنا التي كانت تتبعها ضحكاتٌ كثيرة!!

بعد منعطفين لحقتْ بنا السيارة، لكـن الـسائق أدرك أنـه إذا مـا توقَّـف بجانبنا فإنه لن يستطيع إنهاضها ثانية. تجاوزَنا، ثم توقف في الأعلى ينتظرنـا، محاولا بعينيه أن يستحثّنا أكثر، كما لو أننا نحن الذين لم نستطع حَمْلَ الـسيارة على أكتافنا كما يجب!

كنت أعتقد أن هناك جبالًا في (عمّان)، تلك المدينة التي يولد فيها جبل جديد كلما أغمضنا أعيننا، وأن انحداراتها تجفف حلْقَ ذلك الذي يدخلها أول مرة، خوفًا، وهو يرى انزلاق السيارة التي يجلس بداخلها مثل كرة مندفعة لا يستطيع الوقوف أمامها إلّا القاع.

مرَّتْ سيارة كبيرة تحمل عددا من الشعراء والمصوِّرين، تجاوزتنا بثقة مبالغ فيها، ألقى أولئك الذين بداخلها علينا نظرة شفقة، لكن مدَّ يد العون إلينا كان مستحيلا بسبب اكتظاظها تماما.

لوَّحوا لنا وواصلوا صعودهم تختطفهم المنعطفات واحدًا إثر آخر.

صعودنا على الأقدام اعتبرته فرصةً استثنائية لتأمل أوضاع ساكني البيوت الفقيرة، التي كانت تزداد فقرا وتتحوّل إلى أكواخ كلما صعدنا أكثر.

ورغم ذلك، كان يمكن أن تلمح بسهولة تلك الفتاة الجميلة التي تتمايل مأخوذة بموسيقى كولومبية أصيلة ترجُّ الكوخَ عابرةً البوابة والجدران التي تم تحصينها بقطع كبيرة من النايلون لمنع تسرّب المطر والهواء. كان يمكن أن تلاحظ أن لا شيء يختلف في لباسها وقوامها وإشراقها عن أيّ فتاة يمكن أن تلتقيها هناك في الأسفل، وسط البنايات العالية والشوارع المضاءة المحتشدة بالعربات ومحلات بيع الملابس على اختلاف أنواعها ومستوياتها.

ثمة حرص استثنائي على مظهر جميل ونظافة لافتة في هذا البؤس الذي يتأمل القاع بقلب مسحوق، وحوله كلّ تلك الخضرة الطبيعية وأحواض النباتات المنزلية التي لم ير المرء مثلها من قبل، وإلى جانب هذه الأحواض وفوقها أقفاص طيور ملونة لا تكفُّ عن إطلاق أصواتها بقوة كما لو أنها حرّة.

حين وصلتُ وجون سوسا السيارة، كانت الأغنية المنطلقة من كوخ الصَّبيَّة لم تزل تتبعنا.

أمارات التعب ظهرتْ علينا بوضوح، وعلى السائق أكثر، يبدو أن مزيجا من المجاهدة في دفع السيارة للتقدم والخجل جعله يبدو أكثر تعبًا منا.

خمس دقائق أخرى، كان علينا أن ننتظر ليصل غابرييل وصديقته.

وصلا، انطلقت السيارة بعزم لم نحسدْها عليه، كما لو أن تخفّفها من ثقلنا، دقائقَ، بثَّ فيها قوة جديدة.

بعد قليل قال غابرييل: نحن على ارتفاع 1500 متر عن سطح البحر!

حاولتُ الإنصات لصوت الأغنية المنبعثة من بين زوايا الكوخ، كان واضحا تمامًا. ولم يعد يشغلني سوى تلك الأغنية التي تربط السفح بالقمة بإيقاعها الفَرِح الذي يموجُ أمام عينيّ مُراقِصًا تلك الصَّبية ذات الخصر الدّقيق المكشوف ونصف القميص الليلكي والتنورة القصيرة.

رغم كل هذا البؤس الذي شاهدته وعرفت تفاصيله فيما بعد، البؤس الأكثر قسوة في أمريكا اللاتينية برمتها، البؤس الذي يسكن هذه المنطقة، كان باستطاعة البشر أن يجدوا بعض سعادتهم في الأغاني.

بعد قليل، ستتوقف السيارة من جديد، ويكون علينا أن نغادرها، ثم نعود إليها بعد أكثر من منعطف كالمرّة الأولى، وسيتكرر الأمر ثالثةً، وحين أسأل غابرييل هل تبقّى الكثير سيشير إلى مكان ما قرب قمة الجبل! الجبل الذي بلا نهاية.

- نحن الآن على ارتفاع 1700 متر عن سطح البحر. قال.
- سألته: وعلى أي ارتفاع ستكون الأمسية؟
- ردّ بثقة واطمئنان: في النقطة 1990 متر عن سطح البحر.

صعدتُ مع جون سوسا، تاركين غابرييل وصديقته والسائق. بعد قليل، ظهر غابرييل وصديقته، وأشار علينا أن نعتمد على أنفسنا للوصول إلى حيث الأمسية.

سوء حظنا هو الذي ألقى بنا في جوف هذه السيارة المتهالكة، فها هي السيارات تتسلَّق الجبل غير عابئة بهيبته وها هي تندفع مسرعة من قمته كما لو أنها تجري في أرض مستوية.

مرّت حافلة، تجاوزتنا، ثم توقفت، كان غابرييل قد أشار لها، صعدنا درجاتها. لم يكن الأمر أقل من معجزة بالنسبة لي، لا بد أنهم أدخلوا تعديلات غير عادية على محركات هذه الحافلات الكبيرة العريضة كي تستطيع التلاؤم مع بيئة قاسية كهذه.

جلستُ بين فتاة وامرأة في المقعد الخلفي بصعوبة، أفسحتا لي مكانا، بعد أن فهمتا من جون أننا ذاهبون للأمسية. الأمسية التي سيتبين لنا فيها بعد أنها لم تكن سرًّا على هذا الارتفاع.

تحدَّثت الفتاةُ بإنجليزية بسيطة، فهمتُ منها أنها قادمة لحضور الأمسية، كانت جميلة يرفعها إلى عنفوان عشريناتها أكثر، ذلك الانسيابُ الرقيق العاجي لساقيها الطويلتين.

حين عرفتْ أنني شاعر باتت أكثر اندفاعًا وسعادة في حديثها معي.

- السماءُ خريفيَّة في حزيرانَ. قالتْ.

- سمعتُ أنينَ المحبين قربيَ. قال الشجر.

- الفراشاتُ تخفق مثلي ومثلكَ. قلتُ.

- هنا بين ساقين تعلو الطيور لتبلغها: بهجة المنحدرْ!

قال لي ذاك وهو يشير إليها ويعدو مع الريح هذا الشجر!!

**

سأكتشف أن أمّة الشعر تقيم هنا، وسيتبين لي ذلك بوضوح أكثر كلما عايشتُ الناس في الأمسيات المتلاحقة التي سأقرأ فيها أو يقرأ فيها سواي من الشعراء.

...

مع صعود لا نهاية له كهذا كان لا بدّ، في لحظة ما، أن تترك المحرِّكاتُ ما تبقّى من الصعود للأقدام.

غادرنا الحافلة، وحين حدَّقتُ في النقطة التي أشار إليها غابرييل، استعدت قول المتنبي: أطويلٌ طريقنا أم يطولُ!!

**

لم يبدُ الضيقُ على أحد. أصدقاؤنا الكولومبيون يعرفون طريقهم. ولم تكن رحلة نادرة كهذه تفتقر إلى بهجة الاكتشاف. كنا نصعد كما لو أننا سنقرأ شعرنا لا للبشر، بل لتلك الطيور المحلقة في السماء.

لم تكن مداين مدينة صغيرة، وهي تملأ ذلك المنخفض العظيم بالعمران، وتتزنّر بحزام البؤس الأشد فتكا، تتزنر بهؤلاء البشر الذين قذفتْ بهم للأعالي كما لو أنها كانت تقذف بهم للسماء كي تجد حلا لهم بعد أن ضاقت الأرض عليهم تماما.

قطعنا جداول جبلية صغيرة، انزلاقات، طُرُقًا مُتربة وأخرى طينيّة، تشبثنا بنباتات خضراء متعافية، فالفقر الذي يضرب قامات الناس وملامحهم لا علاقةَ للأشجار بت، وهذا ما سيتبين لي بعد أيام بصورة أكبر حين سأرى ما لم يسبق أن رأيته من قبل..

لا عدالة هنا بين توزيع الثروة ما بين البشر والنباتات، مع أن الجميع تفصلهم المسافة نفسها عن الغيمة والسماء، عن الظل والنّور، عن الشوارع العريضة وأعالي البنايات. عن الدجاجة التي تدورُ بكسل لا يخفى، فاقدة الأمل في العثور على شيء وعن النّسر الذي يحلِّق في السماء باحثا عن شيء يستحقُّ، يقايضُ به تحليقه بالهبوط ولو خطفا إلى الأرض.

بعد قليل كان بإمكاننا اللحاق بأولئك الذين سبقونا، المصوّرين وبعض المشاركين في الأمسية، فها هنا، في هذا الصعود تُمتحنُ أعمارُنا التي كانت تعدو بثقة في الأراضي المنخفضة المنسابة، واثقة بأنها لم تفقد قدرتها على الصعود إذا ما امتحنتها الجبال.

نظرت ورائي، تطلعتُ للمدينة من جديد، وأدركتُ أن تلك الأغاني التي تنطلقُ من كوخ تلك الفتاة في السفح كانت رفيقتنا التي لا تتعب،

رفيقتنا التي تستحثنا على المواصلة. كانت المفاجأة الكبيرة أن عددا كبيرا من الفتيات والفتيان يتمايلون على إيقاعها ها هنا.

لم يكن في ملعب المدرسة أكثر من خمسين كرسيًّا، ساعتان كبيرتان وضعتا على ارتفاع غير قليل من الأرض، أطفال صغار حجزوا مقاعدهم، لكنهم سيغادرونها فور بدء الأمسية ويقتربون من طاولة الشعراء ليكونوا أكثر قربًا من الكلمات.

أما الشيء المؤكد، فهو أن أحدًا لم يكن ينظر إلى ساعته يستحث عقاربها للوصول إلى الموعد المحدد لبدء القراءات، وحين اندفعت الأغنياتُ من الساعتين الكبيرتين وبدأ الفتية والفتيات الرقصة المسماة (ريغا تونغ)، لم يعد أحد يتذكّر الساعات أبدا.

كانت أجمل افتتاحية لأمسية شعرية، حيث الرقص الكولومبي الحار الذي تسكن روحُ التانغو كثيرًا من حركاته، بحيث لا يجعله غريبا عنك أبدا.

الفتاةُ تدور على أصابع قدميها
الفتي يتسامقُ كي يبلغ امتداد يدها المُحلِّقة كيمامة بيضاء
الهواء يهبّ نحونا
وقد تحوّلت الفتاة إلى مروحة
ما الذي كان ينقصها؟
أرض أكثر رحمةً
أم سماء أقل عماءً
أم جناحان بلون قميصها البنفسجي؟
كي تمسك بالنهايات البيضاء
لذلك النسر المحلّق فوقها
حالما بأنثى لم يعرفها من قبل نسر

كنتُ أتحدّثُ وجون سوسا حول القصائد التي سأقرأها على هذا الارتفاع، حين وجدتُ نفسي أرحل إلى أمسية أخرى، كان لها مذاقها الخاص، على مقربة من تلك النقطة الأكثر انخفاضا في العالم.

برا وبحرا وجوا

انتظرتُكَ

أكثر مما تأخرتَ!!

ذات يوم لم يكن باستطاعتي مغادرة الأردن إلى أي بلد في العالم، سوى وطني المحتل!

كانت المفارقة ساخرة مبكية إلى حدٍّ مرعب.

المكان الوحيد الذي أستطيع زيارته هو وطني، وطني المحاط بالأسلاك الشّائكة والبوابات الإلكترونية وخامس أقوى جيش في العالم، الجيش الإسرائيلي.

كل نقاط الحدود البريَّة والجوية والبحرية تحتفظ باسمي وتترصّد حامله لكي تعيده من حيث جاء، إلى بيته الذي تحول إلى سجن مفتوح، باستثناء نقطة الحدود، تلك، الواقعة في النقطة الأكثر انخفاضا على وجه البسيطة.

هل هي مصادفة أنني أقرأ الآن في النقطة الأعلى التي أتيح لي القراءة فيها حتى اليوم؟ هل قلت إن غابرييل همس أخيرًا: نحن الآن على ارتفاع 1990 مترا عن سطح البحر؟

هل قلت إنني همست له: ولكننا لم نزل نحلم بالطيران.. لم تزل تنقصنا الأجنحة!

**

وصلتُ (كُفُرْ كَنّة) مع سريَّة رام الله، الفرقة الشعبية الفلسطينية الأكثر شهرة في الثمانينات، لحضور أمسيتها الغنائية في هذه القرية الفلسطينية التي احتلَّت عام 1948. كل شيء تم ترتيبه مسبقًا، لكننا حين وصلنا اكتشفنا أن الأمسية، التي كان من المقرر إقامتها في ساحة المدرسة، أُلغيتْ بقرار من السُّلطات الأمنية الإسرائيلية، في اللحظات الأخيرة، بهدف إرباك كلّ شيء على ما يبدو.

لكن شباب القرية تحركوا بسرعة.

- منعوا إقامتها في المدرسة، سنقيمها في مكان آخر.

ولم يطل الوقت قبل أن يحدّدوا ذلك المكان: إنه باحة مصنع للطّوب.

على عجل قاموا بتجهيز المسرح بوضع عرائض خشبية فوق طوب المعمل، أوصلوا الأجهزة بالكهرباء وأرسلوا شبابًا في كل الاتجاهات ليخبروا الناس: الحفلة في معمل الطوب، ومن يُريد الحضور فليُحضر كرسيَّه معه من البيت!

لم يمض وقتٌ طويل قبل أن يبدأ الناس بالتّوافد، كل يحمل كرسيه في يده. بعد تأخُّر كبير بدأتْ الأمسية، ولكن ما حدث كان كافيًا لتحويلها إلى احتفال تحدّ ضد السلطات الإسرائيلية التي كانت تترصد كل شيء، حتى الأغنيات.

إنها واحدة من أجمل اللحظات، حيث يغدو لكل كلمة معنى جديد ولكل رقصة معنى جديد، ولكل تلويحة منديل في الهواء معنى جديد.

لم يكن مقررًا أن أقرأ في تلك الأمسية، ولكن بمجرد أن عرفوا بوجودي أصرّوا عليَّ كي أصعد إلى المنصة لأشاركهم احتفالهم.. تحدِّيهم الرائع هذا. وللمفاجأة أحسستُ أن القصيدة التي كتبتُها قبل أكثر من عشر سنوات

كانت مكتوبة لهم لا لسواهم، وإلا، فلماذا أحس بها طازجة على هذا النحو محتشدة بمعان أخرى على هذا النحو:

علِّمونا كيف نصنعْ
من ظلامِ الليل شعلة
علمونا كيف نجني
من جراح القلب فُلّة
علمونا كيف يغدو
قلبنا للأرض أزهارًا
وفوق الجرح قُبْلَة.

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي استطعت فيها القراءة (شخصيًّا) في هذا الجزء من الوطن، لكنني سأعود ثانية عبر كلماتي في ذلك اللقاء الذي أقيم تضامنا معي في مدينة الناصرة، بعد تلك الحملة الظالمة التي كفّرتني بسبب ديواني (بسم الأم والابن)، وستتاح لي الفرصة فيما بعد للقراءة في الضفة الغربية مرتين أخريين في جامعة بير زيت حيث قرأت قصيدتي الصرخة (حوارية المرحلة) وفي أمسية أخرى قصيدة (الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق).

**

دخلت المكان، فوجدته داخل قصيدتي، يكتبُ ما كتبته من قبل بسنوات طويلة، وتلك عبقرية مختلفة عن تلك التي طالما تحدَّث عنها النقاد ونظَّر لها المنظرون بصفاء رائع، في الكتابة وخارجها.

يكتب المكان نصَّك من جديد، ويعطيه معانيَ لم تكن تتصور أنها موجودة فيه.

**

ذات يوم أيضًا وجِّهَتْ إلي الدعوة للقراءة في بلـدة (الفحيص) القريبـة من عمان، ذهبتُ إلى هناك، وحين وصلتُ اكتشفت أن الأمسية ستقام داخل الكنيسة.

إنه لأمر مختلف فعلا. هزتني الفكرة بقوة وسَرَتْ هيبتُها في بـدني. حـين بدأتْ الأمسيةُ رحتُ أقرأ قصيدتي (الرحلة الثانية) وهي قـصيدة شـكلَّتْ، من وجهة نظري، مفترقًا أساسا بين ما قبلها وما بعدها على مستوى تجربتـي الشعرية. كنت كتبتُها وفي ذهنـي الـصديق العزيـز محمـود شـقير، الكاتـب الفلسطيني الذي أعتقل وعُذِّبَ ثم قامت القوات الإسرائيليـة بإبعـاده عـن وطنه.

لكنني حين بدأتُ القراءةَ انتابني شعور غريب، كان عيسى عليه السلام على الصليب أمامي، وإذا بِي أقرأ له، للمسيح، كما لو أن القصيدة كُتِبَـتْ لـه وليس لصديقي، وفجأة حلَّ بي إيمان مـن نـوع مختلـف، خـشوع مـن نـوع مختلف، فقرأتُ القصيدة كما لم أقرأها من قبل وكما لن أستطيع قراءتهـا مـن بعد:

لأنكَ كنتَ قريبًا من الحزن أكثرَ منَّا اشتعلتْ
وكانت طيورُ الشواطئ تهبط في راحتيك خطوطا ولونا
بكينا جميعًا وأنت ابتسمتْ
أيّا سيدَ الفرح المتورِّد نارًا على جبهة البحر لا تبتعد
حملناكَ وردا ولما احترقتَ حملناكَ سيفًا وسرنا معكْ
وحجّت إليكَ الخيولُ ثلاثين عامًا وعام
ولما تورّدتَ فوق السهولْ
أتى شجرُ البرتقال إليك
ليحملَ في راحتيكَ الحقول..
....

على ضوء صوتك ننـزف حزن السنين الطويلةِ
تنسابُ فينا اخضرارا ورملا
ونسأل: هل قتلونا كثيرًا؟!!
تقول: انظروا لجراحي تُجب!
ونسألُ: هل قيّدوك طويلا؟!
تقول: انظروا للغصون تُجب.
وتسأل: هل صلبوكم طويلا؟
تجيب خروقُ المسامير في راحتيكَ
وفي قدميكَ وفي نظراتك
وهذي الشروخ التي في شفاهك.

ومنذ ذلك اليوم أرى المسيح ساكنا هذه القصيدة إلى جوار صديقي محمود شقير.

**

لم تكن أمسية كروز في القمة تمامًا.

لأن القمة كانت بعيدة.

القمة التي كان يلزم البشر المتعَبين سنوات وسنوات للوصول ببيوتهم لأعاليها ليكونوا أكثر فقرًا مما هم عليه الآن!

القمة التي تحرسها النسور وتدور حولها السُّحب دون توقف.

في نهاية ساحة المدرسة يقعُ المقصف الصغير الذي يبيع العصير والحلوى للأطفال، وبعده، وعلى اتصال بت، عدة غرف مدرسية تفوح منها رائحة طعام قوية.

سكتت الموسيقى فجأة فبحثَ الراقصون عن مقاعدهم وتزاحم الأطفال يحاولون الرؤية بشكل أفضل.

لم تكن هذه الأمسية هي الأولى التي تقام هنا، ففي كل عام يأتي الشعراء إلى هذا المكان حاملين قصائدهم، في الوقت الذي ترى فيه كثيرًا من الحضور قد فتحوا مظلاتهم وراحوا يستمعون للشعر في ذلك الظلِّ الذي توفره لهم.

حارٌّ هو الجو هنا وأشعة الشمس ساطعة ومباشرة إلى حدٍّ جارح. أما القراءة فهي أشبه ما تكون بقراءة لعائلتك الكبيرة وقد اجتمع أخوتك وأخواتك وأولادهم وبناتهم.

وتخيلت تلك اللقاءات التي تجمعنا في بيت أمي وحولها سبعون من أبنائها وزوجات أبنائها وبناتها وأزواج بناتها وأحفادها الذين لم أعد أعرف عددهم بدقة.

قال لي جون سوسا (لامانو). فأشرت له موافقًا، لقد كان المكان الأمثل لقراءة هذه القصيدة التي كتبتُها قبل ثلاثة وعشرين عاما ذات يوم حين كنت أتناول الطعام وصديقيَّ: المحامية أسمى خضر وفتحي البس، كنا الثلاثة في مرحلة إقلاع، فقد بدأنا مسيرتنا معا، كل في حقله، ولم يكن المستقبل يبخل علينا بإشارات مشجعة وهو يدعونا!!

كان ثمة ورقة على الطاولة، تُوضع تحت الصحون، توضِّحُ خطوط اليدِ وما الذي يعنيه كلُّ خط. طريقة بسيطة ومبتكرة لإلهاء رواد المطعم بهذه اللعبة البريئة ريثما يصل طعامهم، دون أن يحسّوا تماما بمرور الوقت وقد دخلوا اللعبة مقارنين بين خطوط أيديهم و (خارطة المصير) هذه!

لكنني، وبدل الدخول في اللعبة معهم، سحبتُ الورقة من تحت صحني وتوابعه من أدوات المائدة. أخرجتُ قلمًا وبدأت الكتابة على خارطة اليد التي أمامي قصيدة (اليد)، وهذا أمر نادر لم يحدث معي من قبل. أعني أن تكتب بوجود من يحدّق في رأس قلمك حيث الكلمات تُولد حتى قبل أن تحمِلَ بها!!

قبل وصول الطعام، كنتُ قد أنهيتُ القصيدة، ومن يومها أصبحتْ واحدة من قصائدي الرئيسة التي كُتِبَ عنها الكثير، بل وخصِّصَتْ لها قراءة جمالية فلسفية، أعتزُّ بها كثيرًا، قدَّمها الدكتور أديب نايف أستاذ الفلسفة في الجامعة الأردنية في واحد من المؤتمرات الكبيرة التي أقامتها الجامعة، وحين حاولتُ أن أشرح له الطريقة التي وِلِدَتْ بها هذه القصيدةُ، قال: ذلك لا يهمني. ما يهمّني هو القصيدة.

إنها محاولة لوصف اليد، ولكنها في النهاية سردٌ لسيرتها منذ استطاعت الإمساك بأول الأدوات إلى أن غدت سماء هذا العالم!

هي اليدُ
غصنُ النهار الجميلْ
ومورقةٌ بالأصابعِ .. ناعمةٌ كالهديلْ
لا تُمسِكُ الريحَ .. لا تحبسُ الماءَ ..
لكنّها حين تعلو تلمّ الفضاءَ
وتستجمعُ الأرضَ .. من زهرة البرِ حتى النخيلْ
هي اليدُ
طيبة حين نُكسرُ
دافئة حين نبكي
وعاشقة حين نتعبْ
....
هي اليدُ
معجزةُ الحلمِ .. أسطورةُ الكونِ .. سطحُ البلادِ ..
وأعمدةُ الضوء .. أو حفنة الجمرِ ..
تحنو ... وتغضبْ
هي اليدُ

حقلٌ ..
وكوكبةٌ من أغاني الصغارِ
هي اليد .. كوكبْ
هي اليدُ
ليست كتابًا ..
وليست خطوطًا ..
فلا تمعنوا في التفاصيلِ ..
لا تقرأوا صمتها
وتضاريسها
فلن تجدوا أيّ شيءْ
كل ما احتلها من مسارٍ ومن انحناءْ
حمّلوه لنا ..
منذ أولى الشقاواتِ حتى انتشارِ الشقاءْ
هي اليدُ
لا تقرأوها
اقرأوا ما الذي سوفَ تكتبهُ
اقرأوا ما الذي سوفَ تفعلهُ
وارفعوها ..
ارفعوها ..
إلى أن تكون السماء

في ساحة كهذه، حيث يتقدّم الأطفال نحو الطاولة محـدّقين في الأوراق، باحثين عن النبع السّري لكلمات الـشعراء، دون جـدوى، ويـذهبون بعيـدًا خلفَ رائحة الطعام ويعودون، حيث يمضي الجمهور باحثًا عن ظل البيـت

المجاور كي يتقي الشمس، وترى هنالك في البعيد البعيد في الأعلى أناسًا يطلّون من شبابيك أكواخهم أو يتكئون على أبوابها ويستمعون لما يُقْرَأ وهم على بعد كيلو متر من منصة القراءة على الأقل.

في ساحة كهذه ، حيث الكلب قد هدأ وقد مسّه شيء من الإيقاع فارتمى تحت طاولة القراءة تماما، كان لا بد من معجزة تكمل المشهد وتعطي (اليد) معناها الأقصى.

بعد أن قرأ شاعران، كنت ثانيهما مختتمًا قراءتي بـ (اليد)، جاء دور الشاعر الكولومبي فيكتور روجاس للقراءة، وما هي إلا لحظات، حتى تقدّم ابنه الشاب نحو ميكرفون آخر بيدين مقطوعتين عاريتين تقبضان على الفلوت برقَّة غير عادية.

نظر إلى والده، نظر والده إليه، وباشر الابن العزف وقد رفع الفلوت باتجاه فمه، فعمَّ الصمتُ المكان، وظلَّ يعزف بمرافقة والده حتى النهاية.

صفَّقنا له طويلا، صفّق الحضور، الصغار الذين رأوا معجزة اليد المضيئة رغم ظلمة قَدَرِها، ولم يعرف من في السفوح البعيدة ما الذي يحدث هنا في الأمسية وهم يستمعون لذلك التصفيق المتواصل. لقد خسروا تلك اللحظة المعجزة التي تحوّلت فيها اليدان المقطوعتان إلى جناحين.

بعد قليل، مضى العازف باتجاه زوجته تناولَ ابنه من بين يديها، أخذه برفق ليريحها بما تبقى له من يدين؛ ولعله كان يفكّر في صغيره الذي سيتعلم العزف على الفلوت بصورة أيسر مع وجود هاتين اليدين اللتين راحتا تعبثان بشعر رأس الأب ببراءة مطلقة..

**

لكل قصيدة مكان تولد فيه
ومكان آخر ستكبرُ فيه
ومكان آخر ستعثرُ على روحها فيه

وحين يغادر الشاعر المكان الأخير ستلوِّح له مودعة لا غير

وهذا ما حدث لقصيدة (اليد) هنا في أعالي المكان، كما حدث ذات يوم لـ (الرحلة الثانية) في تلك الكنيسة.

**

وكما ابتدأت الأمسية بالرقص انتهت بت، كما لو أن القصائد لم تكن أكثر من استراحة الجسد على مقعد الروح!

انطلق الفتيان والفتيات الصغار يتمايلون، لكن الشيء المختلف أن الرقصة كانت مُعَدَّة لنا هذه المرة، لتحيَّتنا، راحتْ الصَّبية ابنة الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة تقود الراقصين والراقصات بجمال وبإتقان، الأرجل حافية والأيدي تلوِّح في السماء وتهبط للأرض بجذل، تتقدَّم الصَّبية نحو الطاولة التي جلسنا خلْفها فيتبعها أولئكَ الذين وراءها متبعين حركاتها، تستدير فيستديرون، تجذبهم الأرض نحوها فيلبّون نداءها وتتطلع إليهم السماء القريبة - البعيدة فلا يحول بينهم وبين التحْليق عدم وجود أجنحة لهم.

وفي أوج ذوبانها في الإيقاع العظيم لتلك الأغنية، دارت دورتين، ودار العالم المحيط بها معها وانحنتْ مختتمة الرقصة.

.. وقبل أن ننهض تقدَّمتْ من الطاولة طفلة، خلفها طفل يحمل (ملفات) صُنِعَتْ من ورق يدويّ، بدأت توزِّعها على الشعراء، وفي داخلها وجدتُ رسالة بخط اليد وسبع لوحات لسبعة أطفال.

كل شيء كان له مذاقه الخاص، رغم أن الكلَّ كانوا من التراب نفسه.

أشار جون سوسا إلى نفسه، أشار للأرض، أشار للبيوت ودنا نحو التراب أمسك بعضًا منه بين أصابعه وقال لي شيئًا لا بد أنه عن اللون. فوقفتُ وكتبتُ ما قاله!!

أنظر إلى لون التراب

إنه لونُ البيوت

لون الشوارع

لون هذه الجذوع

ولون هؤلاء البشر أيضًا

**

هل فهمت ما قاله أم أنني اخترعته حتى أؤكد لنفسي أننا بتنا أقرب ما نكون إلى إيجاد لغة ما بين الإسبانية والإنجليزية، لغة ثالثة خَرجتْ من رحم تلكما اللغتين!!

**

بعد قليل أشار لنا مرافقونا أن (نتفضَّل). تبعناهم. وما إن تجاوزنا الزاوية الأولى حتى رأينا طوابير طويلة من الأطفال والكبار، كلٌّ منهم يحمل صحنًا بلاستيكيا في انتظار الوصول إلى طناجر الطعام الضخمة التي أُعِدَّت لهذه المناسبة.

قال لي غابرييل: هذه الأمسية مناسبة غير عادية لهؤلاء الفقراء، مناسبة لتذوّق طعامٍ دسم لا ينقصه اللحم.

- إدارة المهرجان حضرَّت هذا كله؟!

- هزّ رأسه. الشعر يُنعش الروح لكنه لا يصلح لملء معدة خاوية.

كان الغداء نفسه مُعدًّا للشعراء أيضًا، ولكنهم لم يتركونا نقف في أي من تلك الطوابير الطويلة، أدخلونا إلى قاعة أحد الصفوف، اتّخذنا أماكننا فوق مقاعد الطلبة، وبعد قليل جاؤوا لنا بالطعام في الأوعية البلاستيكية نفسها.

سألتُ الشاعر الفنزويلي (غابرييل خامينيز إيمان) الجالس جواري عن اسم الطعام.

- (سانكوتشو) قال لي.

كان مكوَّنًا من البطاطا واللحم والجَزر وثمار أخرى لم أستطع تمييز طعمها وقد أوشكتْ أن تذوبَ لفرط ما بقيت فوق النار.

نظرتُ إلى الحائط المواجه لي، كان هناك الكثير من رسومات الأطفال، رحتُ أسترق النظر إليها بين حين وحين، وفجأة اكتشفتُ أن هناك علاقة غريبة بينها.

رسم الأطفال الشمس
رسموا الشجر
الطرقات.. البيوت
الببغاوات والعصافير الملونة
رسموا زرقة السماء
ومسامات جلد الأرض
رسموا الفجر والظهيرة والليل
رسموا الكلب في الظل والنسر في الأعالي
رسموا ساحة اللعب والمدرسة نفسها
لكنهم لم يكونوا هناك أبدًا
في اللوحات التي رسموها

كدت أغصُّ باللقمة التي ألوكها، تلفتَ إليَّ جاري، همسَ: ما لك؟

- لا شيء.

هل كان من حقِّنا نحن الشعراء الذين أتوا من ذلك الأسفل الشري أن نأكل من طعام أُعِدَّ لهؤلاء في الأعلى الشقي. رحت أُفكّر.

أوشكت أن أقول: ليس من حقنا. إلى أن تذكرت أن الخطيئة الكبرى التي كان يمكن أن أرتكبها ويرتكبها أولئك الذين هم معي الآن في غرفة الصف هذه، أن نهربَ بعيدًا، كما هرب مدعوون آخرون وقد وجدوا أنهم

لن يستطيعوا ملء معداتهم بطعام كهذا (لا يعرف المرء من أي شيء صُـنِعَ، ولا هو مطمئن للأيدي التي صنعته).

هؤلاء الذين راحوا ينتظروننا بعيدا، في الخارج تحـت حـرارة الـشمس، يستحثوننا بأعينهم أن نُنهي بسرعة.

**

غادرنا جميعًا، إلى جانبي الشاعرة مَلَك مصطفى، وبعـد أقـل مـن عـشر خطوات اقتربتْ منا طفلة صغيرة لم تكـن قـد تجـاوزت الخامـسة، بـشعرها الأحمر المنفوش ووجهها الملطّخ بالغبار وابتسامتها المُشعَّة.

أشارت إلي، وقالت كلامًا ما.

سألتُ (مَلَك) التي تُتقن الإسبانية: ماذا تقول؟

- تريد أن تقرأ لها قصيدة.

- قولي لها إنني قرأتُ قصائدي قبل قليل.

نقلتْ لها ما قلته، فردّت الصغيرةُ بإصرار وهي تنظر في عينيّ مباشرة.

- ماذا قالت؟ سألتُ ملك.

- إنها تقول: لقد قرأتَ هناك للجميع ولكنها تريدُ قصيدةً خاصّة!!

- سأقرأ لها بالعربية، وأنتِ تترجمين إذن.

قرأت لها مقطعا من قصيدة (صباح الخير يا أطفال

صباح الخير يا حلوة

صباح الخير

من أنتِ)

إنها القصيدة الوحيدة التي كتبتها للأطفال ونُشرت في كتاب.

بدت الصغيرةُ راضية وهي تهزُّ رأسها برضا.

- غراثياس.

هززتُ رأسي، ونهضتُ وقد كنتُ مقرفصا طوال الوقت حتى أتمكن من القراءة لها وجهًا لوجه.

وحينها اعتدلتُ، راحت توجه كلامها لملَك وهي تنظرُ إلي.

- هل تريد قصيدة أخرى؟

- لا. إنها تريد أن تقرأ لكَ قصيدة!

- لي؟

- لتشكركَ على القصيدة التي قرأتَها لها!

قرفصتُ ثانية، نظرتُ إلى وجهها، كانت قد ذهبتْ بعيدا داخل نفسها، كما لو أنها تريد الوصول لتلك المساحة من الاستغراق النفسي والانقطاع للقصيدة ثم راحتْ تقرأ بانفعال هادئ وهي تُحدّق في عيني مباشرة دون أن يرفّ لها جفن.

نظرتُ لملك، كانت عيناها تموجان بالدمع.

- ما الذي تقوله قصيدتها؟

- إنها تقول:

اغمس قلمَ حبركَ في قلبي أيها الشاعر
واكتبُ الشِّعر الذي يحبه الناس.. وأحبه.

**

تلفتُّ ورائي أكثر من مرة ملوحًا لتلك الصغيرة التي ظلّتْ واقفة في مكانها إلى أن اختفينا تمامًا.

لكن وجهها ذاك، وشعرها الأحمر المنفوش وابتسامتها المضيئة في بحر التّعب وعينيها العميقتين كأمنية تتطلع للحظة تَحَقُّقِها بإصرار، ستظلُّ معي دائمًا.

**

لا يمكن أن تدير ظهرك لهم

أو ترسلهم إلى النسيان
أولئك الفقراء الذين تحلّقوا حول القصيدة
بالحرارة نفسها التي تحلقوا بها حول الرغيف.

قريبًا من الأرض

لا هربًا من الفضاء
ولا تَعَبًا من الطيرانْ
يهبطُ العصفورُ
نحوَ الحقل
أو غـديرِ المـــاء

لعل أجمل الأمسيات التي شاركت فيهـا كانـت مـن هـذا النـوع، لأنهـا الأكثر صدقًا، الأكثر عمقًا، حيث اللقاء يـتم بـين الـشاعر والبـشر ولـيس هنالك بينهما سوى هذا الجسر الرقيق الذي يعبره الواحد مـنهم نحـو قلـب الآخر بكامل روحه.

ذات يوم وجِّهَتْ إلي دعوة لإقامة أمسية في (مخيم غـزة) أكثـر المخـيمات فقرًا ونفيًا من بين كل مخيمات اللاجئـين الفلـسطينيين التـي عـشتُ فيهـا أو زرتها.

وصلنا إلى قاعة النادي الرياضيّ قبل نصف ساعة من بدء الأمسية، أنـا و (فتحي)، وقبل أن نصلَ، وصلتْ إلينا أصواتُ الأغاني التـي تتـصاعدُ مـن مكبرات الصوّت، أغاني من تلك التي كتبتُها لفرقة بلدنا. ذلك وحده يكفي لكي تتفتّح مسامات الروح.

لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني في الأمسية، كلّ الاحتمالات واردة، لكن التجربة علّمتني، أنك لن تُخذَلَ في أماكن كهذه.

بعد ربع ساعة من موعد الأمسية توجّهنا للقاعة، أصوات الأغانيّ اختفتْ، وعمَّ الصمتْ.

دائما كنت أتساءل: ما الذي يمكن أن تقوله بعد أن تصمت الأغاني؟

وكنتُ أجيب: عليك أن تحوّل كل شيء حولك إلى أغنية!

لكن الأمر لم يكن سهلا.

منظمو الأمسية لم يخفوا نظرات القلق، هذه النظرات التي أعرفها جيدًا، لأن أمسيات كهذه لا تقام إلا بتصريح خاص من السّلطات الرسمية في المدينة التي يقع هذا المخيم، أو سواه، ضمن حدودها؛ ولذلك كنت أعرف أن هنالك من يستمع وربما يسجِّل كل ما يُقْرَأ هذا المساء. لكن، لأعترف، كنتُ قد أصبحتُ أكثر خبرة وتحديًا وعنادا منذ أن ضيَّقوا الخناق عليّ بمنعي من السفر.

قرأت مجموعة من قصائدي متوسطة الطول، واختتمتُ بقصيدتي الأكثر تحديًا وسخطًا على كل ما يُرتكب بحق الشعب الفلسطيني وأحلامه وعدالة قضيته وأعني (حوارية المرحلة).

كانت القصيدة، وهي من أطول القصائد التي كتبتُها بمثابة صرخة عنيفة، وجدتْ صداها فورًا وأصبحتْ من القصائد الأكثر انتشارًا من بين قصائدي، بل لعلها أول قصيدة أكتبها تُحدثُ دويّا كهذا.

منذ لحظة نشرها في جريدة (صوت الشعب) التي أعمل فيها، تعكَّر الجو في غير مكان.

وصلتُ الجريدة عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وجدتُ رئيس التحرير يفتش عني، دخلتُ إليه، وجدته يبتسم.

قلت: الحمد لله. مرَّتْ على خير.

: ما الذي فعلته يا إبراهيم؟

: لا أعرف.

: ما الذي فعلتْهُ قصيدتُك؟

: لا أعرف.

: لقد اتصل بي وزير الإعلام هذا الصباح، ثائرًا، وهو يسألني (ما هذا الذي تنشرونه في صحيفتكم؟) وعرفت ما الذي يقصده، فسألته: قصيدة إبراهيم نصر الله!!

فرد وزير الإعلام غاضبًا: بل بيان إبراهيم نصرالله.

لكن الأمور وقفتْ عند هذا الحد، أو هكذا بدا لي!

كنت كتبت القصيدة في شهر كانون ثاني من عام 1982، وسط إحساس عارم بالقهر يعصفُ بالناس في العالم العربي من المحيط إلى الخليج إثر خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، ولم يكن الحسُّ بالهزيمة والعار يستثني أحدا. لكن القصيدة كانت تُعَبِّر عن مخاوف مرعبة، وقد رأيتُ أن هناك لغة سياسية أخرى تتشكّل، وضياعًا جديدا يهبُّ وبذرة استسلام تتفتّح في فوهة البندقية.

ورغم أن القصيدة كانت صادمة إلى حدٍّ كبير، إلا أنها وجدتْ مكانها في ذلك المكان الفارغ المُعَدِّ لها في ضمير الناس، وأعني الحسّ بالذنب، العجز، التقصير، وكل هذه المشاعر الكفيلة بتحويل الإنسان إلى كتلة من الخجل.

لكن رئيس التحرير آنذاك، إبراهيم سكجها، وهو الأنقى من بين من عرفتهم من بين رؤساء التحرير الذين عملتُ معهم طيلة ثمانية عشر عاما أمضيتها في الصحافة. قال لي: ولا يهمّك؟

لقد وقفَ معي بشجاعة نادرة، وسيُثْبُت أنه أكبر: حين سيمضي بعد أربع سنوات إلى قاعة المحكمة ليشهدَ لصالحي بعد فصلي من الجريدة، وقد

تراكمتْ (ذنوبي) في قصائد وأغنيات أدت إلى أن يكون حرماني من السفر هو الخطوة الأولى التي ستعقبها خطوة طردي من الوظيفة.

كان رئيس مجلس الإدارة قد اتَّخذ القرار، وعرفتُ فيما بعد من أحد الأصدقاء الصحفيين، وكما باح له رئيس مجلس الإدارة نفسه، أن أمر فصلي جاء من (فوق) وهذا يعني من المخابرات.

كنتُ أعرف أن فصلي مباشرة من قبل السلطات الأمنية سيولِّدُ احتجاجًا، ويبدو أنهم كانوا يعرفون ذلك، وهكذا استعاروا قلم رئيس مجلس الإدارة لاتخاذ القرار.

خارج الصحيفة وجدت نفسي، ولم تكن هذه هي المشكلة، لأن المشكلة الحقيقية كانت في أنني لن أستطيع العثور على أيِّ عمل في أي مؤسسة إعلامية أو غير إعلامية.

قررتُ أن أقاتل من أجل آخر قليل أملكه، رفعتُ قضية على الصحيفة، بمساعدة الصديقة المحامية أسمى خضر، وبعد شهور طويلة واستدعاءات للشّهود، جاء رئيس تحريري!! إبراهيم سكجها إلى المحكمة، ووسط دهشة الجميع قدّم شهادة أكد فيها أنني من بين أفضل الصحفيين الذين عملَ معهم، وأنني أستحق المكافأة لا الفصل!

لم يكن ما قام به سهلا، لأنه يعني أنه سيكلِّفه وظيفته أيضًا، لكنه لم يتردّد.

بعد أشهر من المداولات وتملّص مدير التحرير المتواطئ مع مجلس الإدارة، تغير مجلس الإدارة، وجاء رئيس جديد له، ما لبث أن طلب لقائي ليعرف طبيعة أصل المشكلة، شرحتُ له ذلك. ثم التقى محاميتي وتمتْ التسوية: إعادتي للعمل.

عدتُ، ولكن ما حدث بعد ذلك، ولسبع سنوات متتالية، أنني لم أحصل على أيِّ زيادة سنوية أبدًا، في الوقت الذي كانت فيه الزيادات السنوية من نصيب الجميع، وفي الوقت الذي وصل فيه راتب زملائي في

تلك الأيام إلى 450 دينارا، لم أكن قد وصلتُ سوى لراتب مقداره 280 دينارا، وهو آخر وأعلى راتب تقاضيته في الصحافة بعد هذا العمر الطويل!!

وقد كان يمكن أن تذهب الأمور إلى ما هو أسوأ بعد إغلاق الجريدة، حين وجدتُ نفسي بلا عمل لمدة تزيد على ستة أشهر، إلا أن زيارة للسيدة سهى شومان لبيتي لمشاهدة لوحات أخي محمد غيَّرتْ الأمر كله. فحين سرتُ معها باتجاه سيارتها بعد الزيارة قالت لي معاتبة: نعرضُ عليك العمل أنا وخالد في المؤسسة وترفض!!

أخبرتها أن العمل في هذه المؤسسة الثقافية الكبيرة والرائدة هو جزء من رسالة كتابتي. وحدَّثتُها عن ذلك العرض الذي حمله ذلك المدير (الصديق)! المكلّف بالاتصال معي لهذه الغاية، من الراتب المقترح إلى ساعات الدوام المطلوبة، وكيف أنني رغم حاجتي الماسة للعمل كنت مضطرًّا لأن أقول لا.

فوجئتْ بالأمر إلى حدٍّ لا يوصف، وأكاد أقول: صُدِمَتْ.

في اليوم التالي، زرتُ دارة الفنون حسب موعد اتفقنا عليه، وحين جلسنا، قالت لي: تحدثتُ مع خالد (خالد شومان نائب رئيس مجلس إدارة مؤسسة عبد الحميد شومان) ويسعدنا أن تعمل معنا في الدارة. وحين وصلنا للحديث عن الراتب قالت لي: اتفقنا على أن تُحدد أنتَ الراتب الذي تريد!! وساعات الدوام التي تلائمك!

وقد كان لهذا النُّبل وقْعُه الكبير، إذ خفف كثيرًا من سطوة ذلك الظلم الذي عشته في هذه الصحيفة وضاعفه ذلك العرض غير الأمين لذلك (الصديق).

**

بعد سنين، سألتقي وزير الإعلام نفسه، سيشدُّ على يدي مهنئًا بعد أن قرأ روايتي (طيور الحذر) التي صودرت في الأردن بعد نشرها مباشرة ولم

يُسمح بتداولها ثانية إلا بعد حملة كبيرة شنّها الكتاب العرب على هذا القرار.

- أرسلتُ نسخًا منها لأولادي. قال لي.

وحتى اليوم، كلما التقينا يبدأ بسؤالي: متى سنقرأ كتابك الجديد؟!!

**

بعد ساعة وربع الساعة من القراءة، أنهيتُ الأمسية، ولم يكن ثمة ما يُقال بعد (حوارية المرحلة)، لكن الحضور طلبوا قصيدة أخرى، فقلتُ: ليس لديَّ سوى قصيدة واحدة الآن هي (الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق) سأقرأ مقاطع منها.

- بل كلّها. جاء أكثر من صوت.

- لكنها قصيدة طويلة وتحتاج أمسية لوحدها.

أصروا.

وهكذا رحتُ أنهي قراءاتي بها.

بعد ساعتين وربع الساعة تقريبًا انتهتْ الأمسية، وقد كانت ولم تزل أطول أمسية لي حتى الآن، ولا أظن أنني سأتجاوز هذا الرقم القياسي في يوم ما.

لم يكن الأمر سهلًا، إذ أحسستُ بحنجرتي تتشقق وبدني يرتجف. قد لا يعرف بعض الناس ما تحتاجه القراءة الشعرية من طاقة روحية وجسدية، لكنني أؤكد هنا أن الأمر مرهق تمامًا.

دائما أتساءل:

من الذي كتب القصيدة؟

الشاعرُ أم القارئ الذي أحبّها إلى هذا الحد؟

حين توجَّهنا إلى مكتب الإدارة لاحتساء الشاي، اقتربَ مني شخص، وعانقني بحرارة استثنائية، وغادر. سررتُ كثيرا أنه جاء إلي بهذا الاندفاع،

لأنني أحسستُ بأن القراءة كانت له تلك الليلة! همست لنفسي: لقد وصَلَتْهُ رسالتي!! وبعده عانقني كثيرون.

حين جلسنا في الداخل أخيرًا، مال نحوي مدير النادي وهمس: أتعرف مَنْ أول الذين احتضنوك؟

- مَنْ؟ سألتُ مرتبكا كما لو أنه يعرف سرّي.

- إنه رجل الأمن الذي جاء لمراقبة الأمسية! قال.

كان الأمر مفاجأة كبرى لي، فها أنا للمرة الأولى أُضيِّعُ بوصلتي.

لكنني بعد لحظة ابتسمت في سرّي. هل هنالك أجمل من هذا؟

هل هنالك ما هو أجمل من أن ينسى رجل الأمن دَوْرَهُ، وأن تعيده القصيدة التي هي ضد كل ما تمثله وظيفته، إلى طبيعته الأولى، إلى إنسانيته؟!

وتذكرتُ أنني شاهدتُ أكثر من مرّة كيف كانت الهراوة تهتزُّ على خصر الشرطي الذي جاء ليراقب أمسية غنائية شعرية لي ولفرقة بلدنا.

يأخذه الإيقاع بعد دقائق لا أكثر، ولولا لباسه الرّسمي والأوامر التي وجّهتْ إليه لكنتَ رأيته يرقص مع الراقصين الذي لبّوا نداء الأغنية فغادروا مقاعدهم وراحوا يرقصون أمام خشبة المسرح.

كنت أعتقدُ أن كلَّ شيء انتهى، بعد أن استعدتُ أنفاسي. نهضتُ ونهض معي (فتحي)، إلا أن رجلًا يرتدي كوفيَّة شدَّ على يدي بقوة، وقال: إلى أين؟!

قلت: إلى عمّان.

قال: أنتم ضيوفي الليلة.

حاولنا التملّص لكنه أصر: لقد قالوا لي إن هنالك أمسية شعرية، وندعوك لحضورها، فقلت لهم: ما الذي يمكن أن يقوله الشعراء؟ لكنني أتيت في النهاية. وكان هذا أفضل ما حدثَ معي منذ سنوات. لقد أحببتُ الشعر، إنه شيء جميل ومُهم!

بعد قليل، ونحن نمضي معه نحو مزرعته في جبال جرش، سنعرف أنه لم يذهب في حياته للمدرسة، وأنه أمضى حياته كلّها بين أشجاره وعدة أبقار يربّيها.

كنا أمام إلحاحه غير قادرين على أن نجرح كرَمَهُ ورغبته الصادقة، لكننا توصلنا معه إلى اتفاق(سنشرب الشاي عندك) فوافق.

شربنا شاينا، وحين وقفنا لوداعه امتدتْ يده إلى وعاءين بلاستيكيين كان أحضرهما ووضعهما إلى جانبيه، وقال بخجل: لقد قدمتَ لي الكثير هذا المساء، وليس لدي ما أقدمه لك أفضل من هذا اللبن الذي صنعتُه بيدي.

وهكذا، عدنا إلى عمّان، أجهزنا على الوعاءين الكبيرين خلال أقل من أسبوع، لكن ذكراهما ستعيش إلى الغدِ دائمًا.

وتساءلت: كم من أشياء جميلة فقدناها حين كانوا يصدرون تلك الأوامر الصارمة بمنْعُ إقامة أمسياتنا؟

عساكر وقصائد

محاصرةً بالصمت

تقفُ الأغنية

لكنَّ قلبها يدندن بأغنية أخرى ستولد بعد حين

ذات يوم وصلتُ قاعة مجمع النقابات المهنية قبل ربع ساعة من بدء الأمسية، كان الجمهور يملأ الساحة الخارجية، الأدراج، المساحة الواسعة أمام الباب الخارجي.

تساءلت: لماذا لم يسمحوا للناس بالدخول؟

بصعوبة صعدتُ، وحين تجاوزتُ الدرجة الأخيرة ألقيتُ نظرة نحو القاعة عبر أحد شبابيكها المحاذية لمدخل المجمع، فوجدتها ممتلئة تماما!!

لم تكن واحدة من القاعات الصغيرة، إنها الأكبر في عمان، بحيث يمكنها استيعاب ثمانمائة كرسي وألفي شخص إذا ما توزّع الناس على جانبيها وقوفا كما كان يحدث غالبا.

لكن الجمهور كان يفوق الحد كثيرًا في ذلك اليوم!

- ما الذي يحدث؟ سألتُ.
- امتلأتْ القاعة منذ الرابعة.

- كيف؟!!

- سنقول لك!

أخذني المشرفون إلى مكاتب نقابة المهندسين، الكائنة في المبنى نفسه، ووسط دهشتي البالغة شرحوا لي ما حدث: قبل الرابعة بقليل حضرتْ عدة حافلات، ومن جوفها هبط هذا الجمهور الذي رأيته. وحين وصل جمهورنا لم يجد كرسيًّا فارغًا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تلتجئ فيها السُّلطات لإفساد أمسية بهذه الطريقة المبتكرة: أن تسمح بإقامة الأمسية وتمنعها في آن وهي تملأ القاعة برجال الأمن الذين يرتدون ملابس مدنيّة ومَن شابههم.

خرج أحد المهندسين بعد عشرين دقيقة وحين عاد قال: يجلسون كما لو أنهم في نوبة حراسة.

وأدركنا أنهم نجحوا.

نزلنا إلى حيث الناس.

بعد ثلاثة أرباع الساعة فقَدَ عدد من الجمهور الأمل، وهو يغادر ممرات وباحة المجمع مجموعات وأفرادا. وبعد ساعة ونصف الساعة لم يكن قد تبقّى هناك سوى أولئك الذين لا مكان لليأس في قاموسهم. هؤلاء الذين أحسّوا بأن مجرد وجودهم في الخارج سيمنع أولئك الذين في الداخل من مغادرة كراسيهم!! هؤلاء الذين أحسوا بأنهم، ببقائهم، يعاقبون أولئك الذين أفسدوا الأمسية.

في الثامنة مساء، كان وضع التحدّي مستمرًّا، بحيث تحوّل مَنْ في داخل القاعة إلى رهائن بيد من هم خارجها، ومع إحساس جمهورنا بهذا انفرج الجو الخانق فبدا إشعال سيجارة جديدة نوعًا من الاسترخاء بعد أن كان مظهرا لتوتر لا مجال لإخفائه.

بين حين وحين تتصاعد الضحكات فجأة، تختفي، وما تلبث أن تنفجر في موقع آخر بين جمهورنا. لقد انقلبت الأدوارُ فعلا، بحيث باتَ الذين في الداخل يتمنّون الخروج تماما مثلما تمنى الناس الدخول قبل أكثر من ساعتين.

في التاسعة كان جمهورنا قد غادر تقريبًا وعندها نهض أولئك عن كراسيهم متوجِّهين للحافلات التي تنتظرهم، بعد خمس ساعات من الجلوس الصعب في تلك القاعة التي لم يتحدث فيها أحد سوى الصمت.

كانت واحدة من الأمسيات القليلة التي يحدث فيها أمر كهذا، حيث يتم الاكتفاء، عادة، بإرسال عدد من رجال الأمن بملابس مدينية، وفي أحيان كثيرة تقف سيارة شرطة أو أكثر في حالة استنفار على الباب متطلعة لوقوع اصطدام مع الجمهور. إلا أن الأمور كانت تجري باستمرار بهدوء قبل القراءة الشعرية أو الحفلة الغنائية أو كليهما معا.

في أمسية أخرى، وفي مجمع النقابات المهنية بمدينة (إربد) كان الأمر مختلفا، فما إن وصلتُ حتى أحاطتْ بي مجموعة من الأصدقاء الكتّاب وعاملون في المجمع واقتادوني مخفورا بأجسادهم.

حين وصلنا أحد المكاتب أقفلوا الباب من الداخل.

شممتُ رائحةَ أمر خطير.

ما الذي يحدث؟

قالوا لي: إن صورتك معهم، وقد رآها بعض الناس، وفهمنا أنهم سيقومون بإفساد الأمسية بأي طريقة بما فيها الاعتداء عليك.

- ولكنهم لا يفعلون ذلك عادة!

- هذه المرة أرسلوا من يقوم بذلك، وليس هم.

- ومن هؤلاء؟

- جماعة أبو الزعيم!!

- وما مصلحة (أبو الزعيم وجماعته) في أمر كهذا؟

- ليس هذا هو السؤال الآن. السؤال كيف سنُخرجكَ من هنا سالمًا.

كان الاحتقان كبيرا ذلك المساء. الناس ينتظرون في القاعة، وقد أدركوا ما يدور، فقرروا عدم مغادرة مقاعدهم كنوع من التحدي، والمشرفون على المجمع يفكِّرون في طريقة يُخرجون بها الشاعر سليمًا من هذا الكمين الأسود، والذين جاؤوا لإفساد الأمسية يبحثون عن تلك الشرارة التي ستحرق كل شيء.

كانت جماعة أبو الزعيم قد انشقّتْ عن حركة فتح واستقرت في عمّان وغدت علامة من علامات الخلاف الحاد بين الحكومة الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية.

منذرًا بمعركة قاسية كان الوضع، ولذلك سعى المشرفون على المجمع، منظمو الأمسية، إلى تفاديه بأي وسيلة ممكنة. وبعد ما يقرب الساعة، مع حلول الظلام، قال أحدهم هناك طريقة واحدة لإخراجك من هنا سالمًا.

أشرع أحدهم باب الغرفة التي كنا نتحصّن فيها! همس لنا: أمان.

فتبعناه من ممر إلى ممر حتى وجدنا أنفسنا في مطبخ المجمع. اقترب صاحب الاقتراح من الشباك، أشرعه، تلفَّتَ يمينا، شمالا، وهمس: أمان!

وعندها أدركتُ أن عليَّ مغادرة المجمع من الشباك!

وهذا ما كان. وصلتُ سيارتي، وقلةٌ منهم حولي، كي لا يلفتوا الانتباه.

توجَّهتُ لبوابة الكراج مغادرا.

ولكي يطمئنوا أن مكروها ما لن يصيبني، تبعوني بسيارة أخرى حتى تلك النقطة التي كُتِبَ عليها: بلدية إربد تستودعكم السلامة!!

كانت إربد بالنسبة لي أجمل مدينة أردنية يمكن أن أقرأ فيها شعري، بل لعل جمهورها هو الأكثر حساسية ومحبة للشعر من أي مكان آخر هنا. ولا أنسى أنني قرأتُ بعض القصائد فيها كما لم أقرأها في أيّ مكان آخر فيما بعد، مثل (حوارية المرحلة) و (الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق) و (الطائر)، سواء في جامعة اليرموك أو فرع رابطة الكتاب أو في أي مكان آخر فيها.

أما تجلِّيها الأكبر فقد كان في تلك الأمسية عام 1987 في قاعة مجمع النقابات نفسه. قرأت في البداية عددًا من القصائد القصيرة نسبيًا، وحين جاء دور القصيدة الأساس، قلتُ لهم: لدي قصيدة جديدة، طويلة، صعبة ربما، كتبتُها حديثا، وأظن، أنني إن لم أقرأها لكم هنا، فلن أستطيع قراءتها في أي مكان آخر.

كانت تلك الليلة هي ليلة قصيدة (راية القلب ـ ضد الموت) والتي يصل عدد أبياتها إلى الألف تقريبا، وفيها حضرتْ الأسطورةُ لأول مرة بصورة مباشرة في قصائدي، ولكنها حضرتْ لشيء واحد فقط هو أن تؤكد حضور أساطير جديدة تولد في زماننا هذا.

بعد الانتهاء من مقارعة الموت في الحرب والحب والبر والبحر وفي المنفى والرجوع وفي الفناء والوجود، بعد أن أنهيت القراءة - ولم يكن صعبا علي أن أدرك أن القصيدة وصلت تماما لذلك الجمهور العذب الرائع، الذي تفاعل معها منذ مقاطعها الأولى- وقف أكثر من شخص مطالبين بإعادتها!!

كان الأمر مستحيلا بالطبع، لأنها أشبه بعرض (مونودراما) مسرحي، يستمر ساعة، ومن المستحيل أن تطلب إعادة عرض المسرحية مرة أخرى بعد انتهائها مهما أحببتها.

قرأتُ هذه القصيدة مرة أخرى في عمّان، لكنها لم تكن قصيدتي التي قرأتها في إربد، وفي أمسية أو اثنتين قرأت مقاطع منها.

لكن الجمهور الذي كتبها في ذلك المساء (الإربدي) معي، وهو يعيشها إلى ذلك الحد من الانصهار لم يتكرر أبدًا. ولذلك ينتابني في أحيان كثيرة ذلك الإحساس الغريب: راية القلب. لم تعد معي أبدا. لقد بقيت هناك للأبد.

**

كان مجمع النقابات في تلك السنوات منارة كبرى نجد فيها واحة رائعة للحياة والتنفّس بحرية رغم كل تلك الأجواء السوداء المطبقة علينا، وبين حين وآخر كان يتم السّماح لنا بإقامة أمسية أو حفلة غنائية، أو يسمح لأحد الأحزاب أو التنظيمات السرية المُعْلَنَة بإقامة مهرجان خطابي في مناسبات لا يستطيع أحد القفز عليها أو المجاهرة بالوقوف ضدها لأنها ذات علاقة قوية بالمشاعر العامة للناس. وقد كانت هذه التفاصيل المتشعبة والغنية بالدلالات تحضرني دائما أثناء كثير من الحوارات التي تعقب الندوات والأمسيات الشعرية في أوروبا، تلك الحوارات المتعلقة بموجات التطرف التي اكتوى بها الغرب والشرق لاحقًا، مما جعل أمريكا بعد الحادي عشر من سبتمبر تطلقُ مشروع تعميم الديمقراطية في العالم العربي وخارجه أيضا. وهو أمر يدعو إلى السخرية، لأن كثيرين في الغرب لا يصدقون أن الغرب نفسه هو الذي قام بحماية القمع واستلاب الحريات والتضييق على الإنسان العربي وقمع الديمقراطية وملاحقة التيارات المستنيرة وزجّها في السجون والتعتيم عليها وكم أفواهها، حين قام هذا الغرب بحماية الأنظمة العربية المستبدَّة طوال أكثر من نصف قرن وما يزال، بما يكفل استمرارها وتفوّقها على أي حركة تنويرية سواء تمثَّلتْ هذه الحركة بقصيدة شعرية أو أغنية أو حزب سياسي.

في عدد من المدن الأوروبية كنت أستمع لأسئلة كثيرة حول الإرهاب والصورة المشوّهة للعالم العربي والإسلام، كما لو أن الإرهاب والتخلّف صناعة عربية خالصة، وكما لو أن الغرب بريء مما أصابنا أولا وأصابه ثانيا وأصابنا ثالثًا.

سألني أحد الكتاب الغربيين ذات يوم عن الإرهاب باعتباره صناعة عربية، وكان الأمر مثيرا للسخط.

وحين أجبته بأنه صناعة غربية، أبدى استغرابه، فشرحتُ له كيف كان يتم التضييق علينا ككتاب في العالم العربي، وكيف كان يتم السماح للتيارات الإسلامية المتشددة بحرية الحركة، وحرية إقامة المقرات والمعسكرات (التعليمية) التي يتم فيها ملء عقول الفتيان الصغار بما لا يعلمه أحد، ولم يزل الأمر قائما.

كنت أقول له: إن أمريكا التي استعانت بابن لادن لمقارعة السوفييت في أفغانستان في الخارج، هي التي كانت تفرض على الأنظمة العربية أن تدعمه وتسمح لهذه الأنظمة بالاستعانة بالتيارات السلفية لضرب التنوير العربي أفرادا وحركات في الداخل، وحين وصلت هذه التيارات السلفية إلى الفوز بمقاعد عدد كبير من مؤسسات المجتمع المدني، كان أول ما فعلته هو أنها منعتنا من الصعود إلى هذه المنابر كما كانت تفعل السلطة وبصورة أكبر.

من واقع تجربتي الشخصية أقول: رغم أننا عانينا كثيرا في سنوات الثمانينات بسبب الأحكام العرفية، إلا أن ذلك لم يمنع أن تقام أمسيات وندوات في مقر النقابات المهنية والأندية الرياضية والثقافية بين حين وآخر، ولكن، ومنذ وصول التيارات الإسلامية إلى هذه النقابات لم أسمع بأن هناك دعوة وجهت لي أو لغيري من التيار المستنير لقراءة شعرنا أو تقديم أغنياتنا. بل اكتفوا برموزهم كما يكتفي أي نظام مغلق برموزه.

وما يقال عن النقابات يقال عن الجامعات التي كانت منارات للتفتّح والانطلاق والوعي الإنساني، إذ واصلت السلطات في العالم العربي غَلْق

أبوابها في وجوه الثقافة الإنسانية الوطنية حتى منعتها تماما في النهاية، في الوقت الذي كان التيار الإسلامي المتشدد أو المائع!! يأخذ الفرصة الكاملة لاحتلال أي مساحة يمكن أن يقدم فيها التنويريّون أفكارهم. مما أغرق المؤسسة الجامعية تماما، فيما بعد، في صراعات مدمرة قائمة على التعصّب الأعمى حينا وعلى احتكار الحقيقة حينا. وقد كان لغياب الاتجاهات التنويرية دوره الكبير في تدني المستوى التعليمي في هذه الجامعات وعدم بروز طاقات إبداعية كبيرة كالتي شهدتها الستينات والسبعينات والثمانينات بشكل واضح ومؤثر.

أتذكر ذلك اليوم البغيض الذي طُعِنَ فيه المفكر المصري فرج فودة في القاهرة بفتوى دينية صدرت من نيويورك نفسها وعلى لسان الشيخ أحمد عبد الرحمن، دون أن تفكر السلطات الأمريكية باتخاذ أي إجراءات ضد هذا الأخير في ذلك الوقت.

نأتي إلى الغرب فيطالبنا بعض الناس أن نشهد أن العنف والإرهاب صناعة إسلامية عربية من الألف إلى الياء! ولا يريدون سوى أن نردّد ذلك وراءهم كالببغاوات كي نكون صالحين للمرور تحت سماء هذا الغرب. وقد آن لهذه الفئة أن تدرك أنها بذلك تعمل على ألا تفهم ما يدور فعلا. وحين يتعلق الأمر بالكتابة فإننا نطالبُ بأن نرى أنفسنا من خلال عين الغرب، أما إذا ما تعلق الأمر بالقضية الفلسطينية فالأمر يدعو للأسى: فإذا أراد الكاتب الفلسطيني بشكل خاص، والعربي بشكل عام، إن يصل إلى العالم، فإن عليه أن ينسى. أما إذا أراد الكاتب الإسرائيلي أن يصل إلى العالم، فإن عليه أن يتذكّر!!

في مهرجان فوندامنتا بمدينة فينيسيا سألني أحد الحضور، بعد انتهاء أمسيتي الشعرية ذلك السؤال الطريف: ما وجه الشبه بين الشعر الفلسطيني والشعر الإسرائيلي؟!!

لست أدري ما هي الإجابة التي كان يتوقعها منّي في ذلك اللقاء الكبير.

التفتُّ إلى الروائي المصري جمال الغيطاني في الصف الأول ووجدته متحفّزا لسماع الإجابة. وأخيرا أجبت باختصار:

الشاعر الإسرائيلي يكتب شعره عن البيت الذي أخذه مني وأنا أكتب شعري عن بيتي الذي سأعود إليه.

كان الجمهور رائعًا في ذلك اليوم، ليس في سماعه للشعر فقط بل لتفهُّمه وانفتاح حواسه وعقله على ما يحدث، ولذلك لم ينس الغيطاني أن يكتب في زاويته في (أخبار الأدب) تلك الكلمات الرائعة عما حدث بعد عودتنا (هذا العام جاء إبراهيم نصر الله وألقى أشعاره التي قبلها الجمهور بترحيب كبير، حتى أن أكثر من خمسمائة مستمع ظلوا يصفقون عدة دقائق، ما أثار إعجابي هو صراحة إبراهيم في حواره مع الجمهور، ما يكتبه في الصحف العربية هو نفسه ما قاله هناك، والناس يحبون الصدق ويستشعرونه، لذلك لاقت كلماته ترحيبا كبيرا..)

دائما أؤكد في مثل هذه اللقاءات ومنذ البداية: إذا ما أراد الغرب أن يفهمنا حقا فإن عليه أن يكفَّ عن الاستماع لنفسه، وأن يتركنا نتحدث بصدق عما يحدث فينا، وأن يتقبّل حقيقة قول الصدق حتى وإن لم يأخذ بها في النهاية.

المفاجأة

لا يقولُ الكثيرَ

سوى للذين

سمعوا همسته

لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني حين بدأت التجوال وحيدا في مدايين ما بعد الظهر متجاوزًا الوصية الأولى:

لا تمش وحدك في المدينة.

ولكن، كيف لي أن أحس بالمدينة إن لم أفعل ذلك؟!

موقع الفندق يشجِّع على ذلك، خلف بناية عالية يمكن أن تراها من أي مكان كان، هذا ما خُيِّل إلي، وقد اعتدت منذ سنوات طفولتي، كغيري، أن أضع علاماتٍ فارقة كهذه، أستدل بها في طريق عودتي.

قطعتُ الشارع العريض الذي يضجُّ بالحركة والباصات المزركشة بيسر، فما دامت هناك شارات مرور فالأمور ستسير، غالبًا، على ما يرام.

في الجهة الثانية من الشارع وقفتُ، نظرتُ إلى الفندق لم أره، لكنني رأيت البناية العالية وعرفتُها أكثر. أمامها شارع صغير وعلى الجانب الآخر منه بناية لا تقلُّ ارتفاعًا.

أطفالا نعود في المدن الغريبة، ولن نستطيع الإفلات من قرويتنا التي تغلغلتْ فينا حتى لو زرنا جميع مدن الأرض، سنظلّ نحسُّ بكوننا غرباء في أيِّ مدينة ندخلها ما دمنا لم نعش بعد في مدينتنا أو قريتنا التي حرمنا من العيش فيها.

ولم يكن عليَّ أن أفعل الكثير فيها بعد، سوى أن أراقب الناس وأسير مثلهم، أتلفَّتُ مثلهم، كي لا أبدو سائحا في المكان، كان عليَّ أن أحذر الوقوع في حب مفاجئ لشيء ما فأقف أمامه مشدوها فيكتشف العابرون ذلك!!

ولأن الأرصفة محتشدة بالباعة الذين لا يكفُّوْنَ عن حشر بضائعهم أمام عينيك لتشتريها، فإن أول امتحاناتك كغريب، أن تعرف كلمة (لا)، ولكن، بإمكانك أن تفعل مثلي على غير عادتك فتشير بيدك وتهز رأسك كما لو أنك تعرف اللغة ولكنك لا تريد استخدامها في مناسبات صغيرة كهذه! وستبدو هزّة الرأس هذه وحركة اليد مؤشّرًا مثاليا على أنك لم تعد تطيق مزيدًا من العروض التي لا يفصل الواحد منها عن الآخر سوى خطوات قليلة!!

لا تمش وحدك في المدينة

ولكن كيف يمكن أن تقع في حبها

شيئان كان لا بد لي من أن ألاحظهما أولا.

باعة الكتب الذين يقفون على الأرصفة ويبيعونها مغلَّفة أنيقة وقد احتضن كل منهم مجموعة لا بأس بها: باولو كويلو. يصيح أحدهم كما ينادي أي بائع خيار في شوارعنا.

- غابرييل غارسيا ماركيز. يصيح آخر وهو يحتضن مجموعة من نسخ (ذكريات غانياتي الحزينات).

ويصيح آخر مُعلنًا عن فوينتس وآخر عن أوسترياس.

يتوقف رجل وتبدأ عملية المساومة التي تطول، يُقلِّب الكتاب بتذمّر كما لو أن عدد صفحاته غير متلائم مع سعره. يُرجعه. يقول له البائع شيئا. يتناوله الشاري من جديد، يقلبه كما لو أن شيئًا فاته في المرة الأولى!

الصديق العزيز الفنان الكبير محمود طه، قال لي شيئًا عن ذلك حدث بعد النكبة الفلسطينية، حيث وجدَ نفسه مضطرًّا، مثلنا فيما بعد، للنزول إلى الشارع والمساعدة في كسبِ قوت الأهل ببيع الجرائد أو الآيس كريم أو السجائر أو الجرابات أو أي شيء من هذا القبيل.

لكن شقاء خمسينات محمود طه كان أرفع مستوى من شقائنا في الستينيات، فقد كان بإمكانه أن يبيع الجرائد والكتب أيضًا على مفترقات الطرق قبل اختراع الإشارات الضوئية.

قال لي نادبًا أحوال هذا الواقع المرّ الذي تراجع الاهتمام فيه كثيرا بالكتاب: كنت أبيع خمسين نسخة في اليوم من ديوان (عشيات وادي اليابس) ديوان الشاعر الأردني مصطفى وهبي التل الملقّب ب (عرار).

وأمام دهشتي، يعيد ثانية: نعم خمسين نسخة، وللمارة فقط.

وها هي أمريكا اللاتينية تعيش الأمر نفسه في مطالع الألفية الثالثة. ها هي تتحلّق حول القصيدة أيضًا كما لا يتحلَّقُ شعب، ربما، في الأرض.

تركت مرحلة المفاوضات النهائية ورائي وسرتُ!!

بعد شارع كان لا بد لي من أن أتوقف، حيث عُرضتْ أسطوانات ال DVD فوق الأرصفة.

قلت: هنا يمكن أن يجد المرء ضالته من أفلام لاتينية لا يراها في عمّان، وكنت رأيت بعضها يباع أمام السفارة الكولومبية في مدريد، وحين هممتُ بشراء بعضها قال لي الصديق عبد الهادي سعدون ستجدها هناك في انتظارك وبأسعار أقل!

وهذا ما كان.

لكن المفزع في الأمر أن أفلاما مهمة مثل (البحر الداخلي) و (مريم ذات النعمة) و (تاريخ العنف) كانت تباع جنبا إلى جنب مع أفلام البورنو التي تكشف مقدار إباحيتها تلك الأغلفة الفاضحة جدا التي تُزيّن أغلفتها البلاستيكية!

بعد قليل، سأرى طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها وفتى أصغر منها بقليل مُقرفصَيْن يحدقان بأعين مشرعة على اتساعها في عدد من هذه الأغلفة دون أن يطلب منهم أحد الابتعاد، وستجد صورا تباع كبطاقات لا ينقصها ما في أغلفة هذه الأسطوانات، صورا يزجها البائع أمام عينيك محاولا أن يغريك بها أمام أطفالك.

لكن الأمر لم يكن غريبًا أو مستغربا

كان عاديا تمامًا

لا يلتفتُ إليه أو يلاحظه أحد سواي.

أمام انهماك كهذا كان لا بدَّ من أن أفقد الجهات. فقدْتُها. ومعها فقدتُ تلك البناية العالية وقد أصبحتُ بين مجموعة هائلة من الأبنية الأكثر ارتفاعًا منها.

إلا أن الأمر لم يكن يقتضي العودة إلى نقطة الانطلاق.

بعد نصف ساعة أدركتُ أن الوصية لا ضرورة لها، ما دمتُ أكتفي بأن أرى وأمتنع عن الخوض في أي حديث، وما دمتُ أتصرف كما لو أني مللتُ هذه العروض التي تقدَّم منذ زمن طويل!! فأجريتُ بعض التعديلات على الوصية: لا بأس أن تتجول وحدك عاقدا لسانك ما دمت تشبه أهل المدينة.

أول ما ينهار دائمًا هي الوصايا.

إذ عليك أن تفتح فمك أخيرًا لتسأل عن شيء ما، تشتريه. دخلتُ إلى (سوبر ماركت) كبير تجولتُ فيه، وصلتُ المكان المخصص لبيع أسطوانات

السي دي، كنت أريد موسيقى وأغنيات كولومبية مثل تلك التي سمعتها في الجبل ورقصتْ على إيقاعها فتياتُ وفتية (كروز).

كان الحديث بالانجليزية أمرًا مستحيلا، لكن وجود أسعار الأسطوانات مثبتة عليها ووجود الصور وبعض الكلمات التي يمكن فك معانيها أحيانا يساعد في اتخاذ كثير من قراراتٍ نصف صحيحة!

ابتعتُ اسطوانتين وخرجتُ

**

فجأة، تجلَّتْ المعجزة ، التي لم أكن أتوقعها، فها هو فرناندو بوتيرو بأعماله الموزَّعة في المكان ماثلا أمامي كما لم أتخيّل: 23 منحوتة كبيرة ارتفعتْ في حديقة بوتيرو وسط المدينة.

من بعيد لمحتُها فرُحْتُ أحثّ الخطى إليها، إنها منحوتة (اليد). وبفرح الطفل الذي استطاع أن يقرأ حروف أول كلمة كاملة في حياته قرأتُ بطرب ما كُتِبَ على قاعدتها السوداء: (لامانو).

درتُ حول اليد مرةً، مرتين محاولا ما استطعتُ قراءة صعودها الجليل والاستماع لاتساع فضائها المسكون بأصوات تأتي من بعيد..

هذه اليد التي روضت الوعر

وشقتْ (دروب الأمل)

هذه اليد التي زوَّجت السُّكّر للفتنة

وأغوتْ الملح بالتجلي

اليد التي أيقظتْ الحياة وخاصرتها

ولاحقت الضوءَ إلى أن عادت بت

اليد التي أشرعتْ النافذة

ودافعت عن حق الشمس في عناق من في الزوايا

وابتكرت اسمًا لكل ما مسّته وهي تغزل له قامته

هذه اليد التي أشارتْ للوردة بحنان
وللقاتل دون أن ترتجف
اليد التي تدرك سرَّ النسمة
وهشاشة النياشين المُعلَّقة على صدر جنرالات الهزائم
اليد التي ارتحلتْ
اليد التي عادت
اليد التي ارتفعتْ ها هنا كالحقيقة
اليد التي أضاءتْ ها هنا كشمس
اليد التي روت الغيم
ولم تحسد الطير وهي تحلق بأجنحتها الخمسة
اليد التي طالما انعطفتْ كنهر
كلما أبصرتْ عطشا أو ذبول
اليد التي لم تسألنا شيئا وهي تمنحنا كلَّ شيء
اليد التي رفعتْ لنا سقف البيت
واحتضنتْ لنا الحبيبة
ودللتْ لنا الأولاد
وكتَبتْ ما حلمنابهمن قصائد
ومسدت أعناق الجياد وضفَّرَتْ جدائل الصغيرات
اليد المجداف.. الجناح.. الدرع الذي تلقى الطعنة
وامتد ليقطف أسماء المعجزات
اليد الكبيرة
يد بوتيرو التي كان لا بد من أن تكون كذلك
كي يرتعد الشرطيُّ وهو يفكر في رغبته في صفع تلك الابتسامة

وصاحبُ المصنع وهو يفكر في جوع الآلة
والسجانُ وهو يفكر في أفواه القيود الفاغرة
اليد التي تمتد الآن نحوي
اليد التي تمتد الآن نحوك
كي تردم هوة باتساع محيط تفصل قلبين
يدي
يدك

ساحرًا كان التنقُّل ما بين منحوتة وأخرى.
تركتُ اليدَ خلفي وسرتُ للحصان..
لا شيء يشبه اليد كالحصان

الحصان نفسه الذي لا يريد بوتيرو أن يستبدله بأي حصان آخر، حصانه الأبديّ الذي خرج من اللوحة لينتصب في هذه الساحة حصانا وليس أقل، الحصان الذي تتبعته ذات يوم في رسوماته ورأيته لأول مرة في لوحة رسمها عام 71 ورأيته فيما بعد في إحدى عشرة لوحة رُسمت بعدها، وقد يكون هنالك أكثر من هذا بكثير، إنه حصان بوتيرو الذي لا مثيل له.

بقوائمه العريضة
يصعد كما لو أنه يد الأرض
وبجسده العظيم
يتلفَّتُ نحو الوديان كما لو أنه جبل
نظرته الحانية تُذكركَ بقلب الأم
ومدى صهوته يُذكِّركَ بضيق المكان الذي أنت فيه مهما اتسع
محتشد بذاته

لا ينقصه شيء
فكلُّه حصان

..

تركت الحصان حين لمحت (القطّة).

وللحظة أحسست أن بوتيرو لم يكن يرسم أو ينحت سوى أرواح النوع كله.

فهنا روح الخيول كلها، هنا روح القطط، الأيدي.

هنا الروحُ الأم.

...

في مدريد توقفتُ عند عدد من أعماله بحضورها الاستثنائي، بعد خروجي من مبنى السفارة الكولومبية، تنتصب في (جادة كاستيانا) الرئيسة التي تقطع المدينة إلى نصفين تقريبًا، مدريد القديمة ومدريد الجديدة ، وها أنا ثانية أمام عظمة هذا الفنان الذي يحتلُّ اليوم أرفع مكانة في الفن التشكيلي اللاتيني، إنه سارد اللون والبرونز الذي لا يضاهى.

كل شيء كان متوقعًا في هذه الرحلة، إلا أن أجد نفسي أمام أعمال لبوتيرو بهذا العدد، بوتيرو الذي اندفع، وهو في عقده الثامن ليهز العالم من إذنيه، حين فجر مفاجأته الفنية قبل شهور معلنا أن معرضه المقبل سيكون عن سجن أبو غريب.

لقد صمتَ العالم وأدرك كل من يعرف هذا الاسم أن عمله المقبل سيكون الأكثر حضورًا في هذا المجال منذ (غارنيكا) بيكاسو.

لم نكن قد التقطنا أنفاسنا بعد من أتون الرعب ونحن نرى بأعيننا المجردة ذلك الهول الذي استطاع (الجمال الأمريكي) ابتكاره في سجن أبو غريب. إذ لم يسبق للعين البشرية أن رأت صورا بهذه البشاعة وقد تحول

السجان إلى كائن يتفوق على الشيطان وغدت تلك الابتسامات المطلّة من فوق تلال الأجساد العارية المكسورة قادرة على احتضان كل شرور العالم.

قبل أسبوع من سفري إلى مداين تابعتُ أخبار افتتاح ذلك المعرض بلوحاته الخمسين في (رواق بالاتزو فينيتزيا بروما، وهو المقر السابق للديكتاتور بنيتو موسوليني، بعد أن تمَّ تحويله إلى قاعات للعروض الفنية. وكان بوتيرو أول رسام على قيد الحياة تُعرض أعماله فيه).

كان بوتيرو بمعرضه هذا لا يعيد الاعتبار للفنان في هذا الزمان المرّ فحسب، بل يعيد الاعتبار للفن أيضًا بأعمال كبيرة قادرة على أن تُقارع الذاكرة الرَّخْوة للأبد، مدركا، أنه وبعد أن تنطفئ شاشات التلفزيون معلنة نهاية هذا المشهد وبداية مشاهد جديدة سيُعَمِّرُها الأمريكان بدم جديد وأهوال جديدة (ستبقى هذه اللوحات شاهدا حيا ودائما على الجريمة العظمى بعد أن يكفَّ الناس عن الحديث عنها) كما قال.

يعرف المتابعون أن لوحات بوتيرو من أكثر اللوحات ارتفاعا من حيث سعرها في العالم، لكنه قرر: هذه (المعاناة) ليست للبيع (لم تكن لدى غاية تجارية فى رسم هذه اللوحات. فقد أنجزتها فقط لكى أقول شيئًا ما عن الفظاعة. وبما أن كلَّ عمل فني هو أداة للاتصال والتبليغ، فإنه يكون من الأهم والأجدى أن يراها الناس فى المتاحف والمعارض العمومية الكبرى بدلًا من أن تظل حبيسة وبعيدة، تختبئ في بيت أحد الخواص المولعين باقتناء وجَمْع اللوحات).

ولعل ما يذهب برؤياه هذه إلى مدى أبعد هو قيامه بطرد الجلادين من لوحاته، تاركًا المساحة كلها لمعاناة أولئك المعذَّبين، كما لو أن الجلاد لا يستحق أن يحضر مُجَسَّدًا إلا عبر آثاره التي لن تمحى حتى بموته.

لعل التحدي الكبير الذي واجه بوتيرو، ربما، وهو يرسم أولئك الضحايا، قد تمثّل في الطريقة التي يمكن أن يرسم بها نحولهم وشحوبهم وأجسادهم الملقاة أو المشبوحة على أسلاك الكهرباء أو المسحولة على أرض

الدم والأشلاء الباردة وهم يُقتادون بأطواق تنتهي بحبال تنتهي بدورها في أيدي سجانةٍ تتطلع للكاميرا بزهو وقد استطاعت تحويل العالم إلى جحيم.

لم يتخلّ بوتيرو عن أسلوبه، فأجساد السجناء كانت ضخمة تمامًا مثل هذه التماثيل التي أراها الآن في غير ساحة، ضخمة منتفخة، أو كما توصف بـ (البالونية). لكن بوتيرو كان يقدم معنى آخر في لوحات أبو غريب، يمكن أن نراه في لوحته (المسيح) التي رسمها عام 76 ثم عام 90، 1991، فالشحوب والدم الناشف المبعثر في المكان أسود، والوجوه والأعين المطفأة والأعضاء الهزيلة الضعيفة، كلها، كانت تتحوّل عبر رؤياه إلى نقيضها، كما لو أن الجلادين الذين طردهم من اللوحة سيُطْرَدون من خارجها أيضًا، لأن اللون الحقيقي لهذا السجين أكثر زهوًا من الشّحوب العابر الذي رأيناه في الصّور، وكما لو أن الجسد الهزيل أكبر من ضموره، وأقرب إلى عافيته بمجرد خلوِّ اللوحة من سجانه، بما يحوّل اللوحة إلى مجاز لوطن بأكمله.

على متن طائرة، مسافرًا، كان بوتيرو، حين أشرع الصّحيفة ووجد نفسه فجأة مع صور السجن، وعندها قرر: (إن الغضب الذي شعرتُ به في تلك اللحظة جعلني أتخذ قرار معالجة تلك القصة فورًا.. فهذا السلوك الشائن للأمريكيين أصابني بصدمة شديدة.. جعَلت الدم يغلي في عروقي. هذه اللوحات هي وليدة الغضب الذي فجَّره هذا الطغيان الرّهيب في أعماق وجداني).

حين رحتُ أسأل عن سرٍّ وجود هذه الأعمال كلها في مدينة مداين، التفت إليَّ أحد الأصدقاء الكولومبيين مستغربًا، وقال: وأين تتوقَّع أن تجدها ما دامتْ مداين مدينته التي وُلِدَ ونشأ فيها!

تلك كانت مفاجأتي الثانية.

لقاء غير متوقع مع شاعر راحل

على ضفة النهر
يجلس بهدوء
وعلى صفحة الماء
يكتب كلَّ تلك القصائد
التي لم يُتِحْ له الزمان
كتابتَها ذات يوم

لا تخلو رحلة، ما، من مفاجأة جميلة ما..

حين وصلتُ وزوجتي (مُنى) إلى مطار دبلن، كان (ريموند دين) الموسيقي الأيرلندي اللامع في استقبالنا ، تحدثنا باندفاع كبير خلال الطريق إلى الفندق. تبين لنا أنه كتب رواية ومشغول بأخرى، وسيتبين لنا أيضا أن شقيقه (جون دين) من أهم شعراء أيرلندا وأن أمسية مشتركة ستجمعنا مساء اليوم التالي.

على عادة الأصدقاء الذين ينتظروننا في المطارات اقترح علينا ريموند أن نستريح ساعتين، نمضي بعدهما لتناول الغداء. ودّعناه، وبمجرد أن وضعنا حقائبنا في ذلك الفندق الصغير الهادئ، اقترحتُ جولة لاستكشاف المكان.

خرجنا.

كانت رحلة فينيسيا قبل شهر قد أثارتْ في داخلي شهوة التصوير، ولـذا حملتُ إلى أيرلندا آلتي تصوير: ديجيتال وعادية.

لا يتوقّع المرء الكثير مـن جولتـه الأولى في مدينـة جديـدة ، لكـن دبلـن نفسها كانت رائعة في بداية ذلك الشتاء وهادئة للغاية.

مركز المدينة لم يكن يبعد عن الفندق أكثر من عشر دقائق على القـدمين، لكننا لم نكن نعرف ذلك فسرنا في الاتجاه المعاكس.

وجود الحدائق الواسعة أمـام المنـازل، عراقـة البيـوت وقِـدَمها، هـدوء الشوارع، كلها أمور كانت تغري بمزيد من التجوال، لكن الـشيء المحـزن أنني لم أجد ما أصوره. قلت: تأتي مدججًا بآلتي تصوير ولا تستطيع التقـاط صورة واحدة ؟!

لكن ذلك لم يدم طويلا، فحين تترك لقدميك حريـة اختيـار الجهـة التـي تريدان الذهاب إليها، فإن جسدك كله يتبع هاتين القدمين وهو واثق بصحة الاتجاه الذي اختارتاه.

فجأة وجدنا نفسينا على طرف جسر، عبرناه، ومن منتصفه كـان يمكـن مشاهدة امتداد تلك (القناة الكبيرة) التي تنساب تحته بهدوء لا تجرحه تلـك النسمة الرقيقة التي تتأرجح بشفافية على سطح الماء.

كان السير بجانب القنـاة نموذجيـا، وعـلى ضـفتيها، مـع وجـود تلـك الممرات الإسمنتية المخصصة للمشاة تحت أشجار غاية في الارتفاع.

أثار انتباهنا كثيرا تمثال ذلك الرجل الجالس على حافة القناة فـوق مقعـد طويل ووجهه للماء. كانت ملامحه أليفة وطيبة للغاية وجلـسته تُغـري المـرء بالجلوس إلى جانبه، مشاركته تأمله العميق، بل والتقاط صـورة إلى جانبـه، وهذا ما فعلته، على الرغم من أن أقل ما أفعله في الـسفر هـو التقـاط صـور شخصية.

عندما ابتعدنا، كانت ثمة قوة ما تشدنا نحن الاثنين لمواصلة النظر ثانية وثالثة لذلك التمثال الحي الذي خلّفناه وراءنا.

كان يجلس أنيقا بنظارتيه الناعمتين واضعًا ساقه اليسرى على اليمنى وعاقدا يديه على صدره، يعطيه تدرج لونه البرونزي الذي اكتسى باخضرار مائل للزُّرقة حضورا عميقا لا يمكن للمرء أن يتجاوزه بسهولة.

راقبتُ من بعيد ووجدتُ أنهم قلّة أولئك الذين لا يلفتُ هذا التمثال انتباههم، كان يمكن أن ترى من يقترب منه ويلمس كتفه كما لو أنه يقول له مرحبا ويواصل المسير.

واصلت النظر إليه بين حين وآخر إلى أن اختفى تماما .

قبل أن نصل إلى الجسر الثاني، كانت القناة قد تحوَّلتْ إلى ملعب للكاميرا، إذ كل ما فيها مثير على نحو فريد، تعرّجات الماء، ظلال الشجر المتكسِّرة السابحة، ذلك اللون الأحمر للنباتات التي تتسلّق البيوت، ظلال البيوت نفسها، الخضرة النابتة باندفاع على الضفتين، المساحات الزرقاء التي تتوهج بين الغيوم العابرة.

**

سأل ريموند: هل استرحتما؟

قلنا: تجولنا.

وحدثناه عن تمثال ذلك الرجل على ضفة القناة، إلى أيّ حدٍّ أحببناه، أخرجتُ الكاميرا وعرضتُ له صورنا معه، ورأينا ريموند يضحك.

- هل تعرفان بأنكما التقيتما بواحد من أهم شعراء أيرلندا!

كانت المفاجأة رائعة فعلا، فها نحن مع باتريك كافاناه (1904-1967) جنبا إلى جنب دون أن نحتاج إلى دليل.

حدَّثَنا ريموند عن حكاية التمثال، قال إنه وُضِعَ هناك لأن كافاناه كان يحب هذه القناة كثيرًا وقد كتب عنها عددًا كبيرًا من القصائد، ولذا

كان أفضل مكان يمكن أن يُوضع فيه تمثاله، بعد موته، هو المكان المفضّل الأقرب إلى قلبه في حياته.

صبيحة اليوم التالي سنمضي لكافاناه واثقين بمعرفتنا له، وسنجلس بجانبه كأصدقاء قدامى، وبعد يومين سنعثر على مختارات من شعره وسنقرأ على غلافها ما كتبه الشاعر الأيرلندي، حامل نوبل، شيموس هيني: (هذه القصائد تجعلك تشعر من جديد بالحقيقة التي يُدمن العقل تجنبها) ونقرأ في المختارات:

(كرِّم ذكرايَ بمقعد على ضفة قناة يمرُّ به العابرون
لا بقبر بطوليٍّ)

**

كان الوصول إلى أيرلندا في نهايات أكتوبر يُنذر بأيام باردة صعبة، لكن ما حدث أن الطبيعة كانت متواطئة معنا بصورة رائعة، فعندما أنهينا زيارتنا لدبلن لننتقل إلى كورك، بدأ الثلج يهطل بقوة على المدينة، وعندما أنهينا زيارتنا لجالاوي بدأ الثلج يهطل بقوة عليها أيضًا، وحين عدنا لدبلن من جديد للمشاركة في أمسية نظمتها مجموعة (شعراء ضد الحرب) على العراق، وجدْنا الطقس مثاليا.

كان البرنامج – الذي نظمته جمعية التضامن الأيرلندية مع الشعب الفلسطيني- حافلا، وعابرا لخمس مدن: دبلن، كورك، جالاوي، كانسيل، بلفاست؛ وفي كل مدينة كنتُ أقدم قراءتين شعريتين، الأولى في الصباح، في واحدة من جامعات هذه المدن، والثانية في المساء للجمهور العام، وإن كانت بعض القراءات المسائية أقيمت في جامعة أيضا.

في أيرلندا تأكدتْ لي من جديد جماليات القراءة باللغة العربية، وقد قام الدكتور عبد الواحد لؤلؤة بالكثير حين ترجم عددًا من القصائد لهذه الرحلة، من بينها مجموعة قصائد عنوانها (عتبات تحاول الدخول)

يتحدث الجزء الأول منها عن ثمانية أطفال فلسطينيين، ولم يكن غريبا أن ترى الدمع يتدفّق صافيًا من العيون الأيرلندية.

ولعل أفضل ما كان يحدث في تلك القراءات تلك المناقشات التي تعقبها والتي كانت تستمر أحيانا ثلاث ساعات.

كان الجمهور يفاجأ كثيرًا حين أتحدث له عن أوسكار وايلد، وجورج برناردشو، وليام بتلر ييتس، وجيمس جويس، وبيكيت ، وجوناثان سويفت والأثر العميق الذي تركته رواية وايلد (صورة دوريان جراي) في نفسي حينما قرأت، في الصفوف الإعدادية، طبعتها العربية الأولى المنشورة عام 1956، وما أطلقته (رحلات جوليفر) فينا من خيال وقد كانت بعض فصولها مقررة في كتبنا المدرسية.

يمكنني القول هنا إن أيرلندا ليست خارج النظرة العامة والجاهزة تجاه العالم العربي ثقافيا، إذ يفاجأ الجمهور باستمرار بحجم معرفتنا لآداب بلاده والوقت المبكر الذي تمّتْ فيه ترجمة هذه الآداب للعربية في وقت لم يزل هذا الجمهور يجهل، حتى الآن، الأدب العربي، وأحب أن أقول هنا إنني لم أر في أي مكتبة دخلتها أي كتاب لكاتب عربي باستثناء إدوارد سعيد، ووجود كتبه مسألة مفهومة ولا تحتاج لتفسير.

**

أعود إلى الحوارات بعد القراءات الشعرية، وقد كانت دائما حوارات عميقة مهمة، لكنني اكتشفتُ، واكتشف معي المترجم أو المترجمة، كل مرة، صعوبة الاستمرار في الترجمة، وكلما كانت تُسند مهمة الترجمة من العربية إلى الإنجليزية لواحد من الحضور، كانت النتيجة واحدة، إذ يحسّ المترجم أن لغتي صعبة وأحس بأن الترجمة ليست دقيقة ، وهكذا كان على مُنى أن تتقدم وتنقذ الوضع، ولعلها اكتشفتْ قدرتها على الترجمة الفورية الدقيقة هناك، إذ لم تكن مارستها من قبل.

لقد جاءت متطلعة لرحلة وإذا بها غارقة في عمل! وقد كانت هذه رحلتنا الثانية معا بعد تلك الرحلة إلى دولة الإمارات العربية لاستلام جائزة العويس عام 1998 والتي أتيح لنا فيها الالتقاء مع إدوارد سعيد للمرة الأولى والأخيرة بمناسبة منحه الجائزة نفسها في ذلك العام.

لكن الأمر لم يكن يخلو من طرائف، كأن يُوجَّه إليَّ سؤال بالانجليزية، فأنطلق مجيبًا عليه بالإنجليزية ناسيا أن هناك من يترجم. فأقطع الإجابة تاركا الأمر لمنى.

إن ثقتك بإمكانية وصول فكرتك واضحة، عبر ترجمة جيدة، بالطريقة التي تتمنى وصولها فيها، يدفعك للخوض في أفكار أكثر جوهرية.

ولذا، أسجِّل لمنى هنا، كما سجَّل لها الأيرلنديون، دورها في إضفاء الحيوية على تلك اللقاءات. وهي لقاءات متنوعة، لكل منها مذاقه الخاص؛ ففي كانسيل بعد القراءة الوحيدة المسائية في مكتبة عامة يملكها ويديرها الشاعر (ماثيو غيدن) اكتشفنا أننا نقصد حانة اختارها عدد كبير ممن حضروا الأمسية، وهكذا تواصلت السهرة الرائعة مع مَنْ حضروا اللقاء حتى ساعات متأخرة من الليل.

وفي بلفاست تبين أن هناك ثلاث أمسيات، واحدة لطلاب الجامعة وبعدها بأقل من ساعة واحدة أخرى لأساتذة الجامعة، أعقبها لقاء طويل استمر أكثر من ثلاث ساعات مع عدد من الشخصيات السياسية والأدبية في المدينة، قبل أن ننتقل في الثامنة إلى قاعة أخرى للقاء عام في جناح آخر من أجنحة الجامعة. وهناك وجدتُ نفسي أمام سؤال حول العمليات الاستشهادية في فلسطين، وهو سؤال يبدو أن طرْحه قد تأخر.

جاء السؤال من سيدة لم يبْدُ عليها أنها تريد أن تسمع إجابتي لتعرف أكثر، بقدر ما جاء سؤال إدانة، حادًا، إجابته جاهزة في صدر صاحبته.

- ما موقفك كشاعر يقرأ كل هذه القصائد الإنسانية لنا الآن، من العمليات الانتحارية ضد الإسرائيليين؟

والحقيقة أن سؤالا كهذا هو سؤال مشروع، ولا يطرحه الغربي علينا بل نطرحه نحن على أنفسنا باستمرار في العالم العربي، ولكنه واحد من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة مُتأمِّلَة قد توصلنا إلى نتيجة ما، لا إلى إجابة مُتسرعة كل ما ستفعله هو زيادة حجم الهوة بيننا وبين وعينا أولا وأخيرًا.

قلت لها: قبل أن آتي إلى هنا شاهدتُ صورة في إحدى الصحف، صورة مُعَبِّرة في الحقيقة (دبابة إسرائيلية على الشاطئ الرّمليّ لمدينة غزة المحتلة تُلاحِقُ مجموعةً من الأطفال الفلسطينيين الذي يفرُّون من أمامها، كلّ في اتجاه، والرعب باد عليهم). كان السؤال الأول الذي طرحته على نفسي هو: ما الذي يمكن أن يحسّ به طفل أعزل تلاحقه دبابة في العَراء؟ ما الذي يفكر فيه هؤلاء الأطفال في لحظة مرعبة كهذه؟ ولأول مرة أكتشف أن ما يدور فيهم شيء خاص متعلق بأرواحهم وحدها، شيء لا أستطيع تصوّره ولا أملك القدرة على معرفته كله مهما أطلقتُ العنانَ لخيالي وأنا أرى هذا الجسد يوشك أن يُسحق في أيّ لحظة تحت جنازير هذه الدبابة أو أن تخترقه رصاصة من رشاشها الثقيل.لقد أحسستُ سيدتي، أن الدبابة تضعه في موقع لا يُتيح لِيَ الفرصةَ كي أحاوره أو يحاورني أو يُسمعني صوته أو أُسمعه صوتي. لقد قررتْ هذه الدبابة بنفسها ما الذي سيفعله مستقبلا بجسده. وليس أنا أو أنتِ، لأننا بالتأكيد كنا نتمنى أن يعيش مثل أيّ طفل ويموت ميتة طبيعية مثل أي إنسان على هذا الكوكب. كلنا نتحدث عن الحق في الحياة وهو حق مقدّس لكل البشر، فما الذي أقوله لهذا الطفل المُلاحَق عن حقّه في حياته وطفولته؟ ما الذي يمكن أن أقوله له عن الاحتلال؟ وأنا أرى شخصيًّا أن الاحتلال هو أعلى مراتب العنصرية؟ أصدقكِ القول إنني،

إنسانيا، أشعر بأنني لا أملك حق قول أي شيء له، لأنني لا أستطيع أن أتصور كلَّ ما يحدث فيه، وهو المُطارَد هنا على الشاطئ والمطارد في بيته وفي طريقه لمدرسته وفي الليل الذي حوَّله الاحتلال إلى كابوس وفي غرفة الصفّ التي حوَّلها الجنود إلى موقع عسكري يطلقون النار منه نحو شعبه الفلسطيني وحولوّها إلى حمّام قبل أن ينسحبوا منها، فهل تستطيعين أنت؟

عند ذلك وقفت تلك السيدة بعصبية واضحة وغادرت القاعة.

في ذلك الصيف
في تلك الظهيرة
حيث لا ظلَّ يغدو للشجرة
ولا سقف يغدو للبيت
ولا خضرة لجبين الأُم
كانت العتباتُ تحاول الدخول
والشوارع تجري ملتصقةً بالجدران
عشرُ بنادق سوداء
أطلَّتْ من هناك
ولم يكن الصبيُّ يدركُ ما يدور
....
في تلك الظهيرة..
خرجت الشمسُ.. ولم تعُدْ بعد

**

قبل أيام قليلة من مغادرتنا إلى أيرلندا وصلتني رسالة إلكترونية من صديق مصري يقول لي فيها: ذاهب إلى أيرلندا! أرجو أن تكون رحلتك هذه مناسبة، تعود بعدها لتشرح لي رواية (عوليس).

بعد أربعة أشهر من الاحتفالات باليوم الذي انطلقتْ فيه أحداثُ رواية عوليس 16/ 6/ 1904 وصلنا دبلن، ولم نُضِع الكثير من الوقت، كي نصعد واحدة من عربات هذا الاحتفال العالمي الذي كانت دبلن بؤرته.

صبيحة اليوم الثاني غادرنا إلى قلعة (مارتيلو) حيث تتفتّح أحداث هذه الرواية، مع الصديق عدنان شباب، وهو واحد من الذين هاجروا مبكرا إلى أيرلندا بعد أن سبقه أخوه إليها بسنوات، مُكابِدًا الكثير من المصاعب، كونه من مُهجَّري مدينة غزة الذين يعانون أسوأ حياة في المنفى من بين جميع الفلسطينيين، ولم يخفف من حدة منفاه، أخيرًا، سوى تلك الطيبة الهائلة التي وجدها في الأيرلنديين الذين منحوه جواز سفر ضنّ به عليه العالم العربي. قال لي: (أكثر ما كان يلفت انتباههم لون جلدي) وهو لون مختلف فعلا، أقرب إلى الرمادي الخفيف. وقال لي: (أحيانا كانوا يطلبون مني أن أسمح لهم بلمس اللون حتى يتأكدوا من أنه حقيقي).

كان عدنان بذلك أشبه بجوليفر اللون في تلك البلاد الطيبة.

في ذلك الشارع الضيق الصاعد قليلا وقفنا بجانب القلعة نراقب البحر وتلك الصخور الكبيرة التي يعصف بها الموج الذي رآه السيد بلوم بطل (عوليس) صبيحة ذلك اليوم البعيد من حزيران. كان كثير من الناس يتجوّلون في المكان يلتقطون الصور ويتأملون المدى الأزرق الممتد كما لو أنهم سيبدأون بعد قليل رحلة بلوم التي يقطعها المعجبون بهذه الرواية كل عام من القلعة إلى المدرسة، الشاطئ، المقابر، المطعم، المكتبة، فندق أورموند، البار، صخور البحر، مستشفى الولادة، الماخور، وغيرها وصولا إلى المنزل فالفراش، ما بقي من هذه الأماكن وما اختفى.

لكن الأمر المثير أن أولئك الذين أوصلوا هذه الاحتفالات إلى أوجها في السادس عشر من حزيران 2004 مُغدِقين على المدينة من الحب ما يكفي وطنا، كان حبهم للمكان مختلفا عن علاقة جويس المتطرِّفة بمدينة دبلن التي كرّس لها كل أدبه ولم يتوان عن إعلان كرهه لها أيضا. تقول هيلين موناجان مديرة مركز جيمس جويس في دبلن: (علاقة جويس بدبلن علاقة يمتزج فيها الحب الشديد بالكراهية الشديدة.)

لم يكن قد تسنى لي قراءة عوليس إلا عام 1994 حين صدرت في طبعتها العربية الثانية، وقد وجدتُ فيها كما وجد غيري مشقّة كبرى، جعلتني أغلقها وأعود لموسوعة جيمس جويس التي وضعها المترجم نفسه (د. طه محمود طه) لإدراكه أن رواية أمضى أربعة عشر عاما في ترجمتها وستة أعوام قبل ذلك في الإعداد لهذه الترجمة، تحتاج لمفاتيح كثيرة، وقد كانت قراءتي لموسوعة جيمس جويس واحدة من المتع النادرة.

كانت (عوليس) مدار حديث لا ينقطع في العالم العربي، رغم أن عددا كبيرا من المثقفين لم يقرأها؛ وقد كنتُ أتطلّع للحصول عليها بعد أن عثرتُ على مجموعة جويس القصصية (أهالي دبلن)، ثم (صورة الفنان في شبابه) التي قرأتها في الثمانينات باستمتاع هائل، وفي واحد من التحقيقات الصحفية التي كتبتها حول القراءة في الأردن افتتحتُ التحقيق بذلك المقطع الآسر من الرواية:

(ولما انعطف الأولاد إلى طريق (كلونيف) معا بدأوا في الحديث عن الكتب والمؤلفين.. أعلن ناش أن الكابتن ماريات هو أعظم الكتب. فقال هارون: هراء، فسأل ديدالوس.. من هو أعظم كاتب يا ديدالوس؟

ولمس ستيفن نبرة السخرية في السؤال، وقال: تعني من بين كتاب النثر؟

- أجل.

- أعتقد أنه نيومان؟

...

وسأل بولاند: ومن هو أحسن شاعر يا هارون؟

ورد هارون: اللورد تينسون بالطبع.

.. فقال ستيفن: تينسون شاعر! ما هو إلا مجرد ناظم قواف.

فقال هارون: ما هذا؟ الجميع يعرفون أن تنسون هو أعظم شاعر.

فرد ستيفن: بايرون طبعا).

وهنا يبدأ الفصل الدامي حين ينهالون على ستيفن بالعصيّ واللكمات وهم يصيحون بت: أعترف أن بايرون لم يكن طيبا.

ويرفض بإباء : كلا.

(وتوجَّهَ معذبوه ناحية طريق جونز ضاحكين يسخرون منه، بينما تعثر هو وقد أعمته الدموع، ملوِّحًا بقبضته في جنون وهو ينشج باكيا)

إنه واحد من المشاهد التي لا تُنسى، براءة وعمقا، ولعل مقارنته بأي سبب لأيّ عراك يمكن أن يحدث اليوم بين الأولاد في أيّ مدينة في العالم، ستبين لنا أن ستيفن كان يخوض معركة أخلاقية لا مثيل لها.

**

في شوارع بلفاست كان بإمكان المرء أن يشاهد تلك الملصقات الكبيرة التي تملأ الشوارع تأييدا للشعب الفلسطيني، بالعربية والإنجليزية، وأن يتحسس حجم الألم الرابض في قلوب الناس من أزمنة سحيقة، كما لو أن الجراح لم تتوقف لحظة عن النزيف.

في جولة سياحية ينظمونها للزوار في (التاكسي الأسود) يطوفون في شوارع بلفاست ويتوقف التاكسي في المواقع التي شهدتْ أبرز أحداث المقاومة الأيرلندية والمآسي الأيرلندية، كان سائق التاكسي يتحدّث عن

كل ما مرّ في الماضي البعيد كما لـو أنـه يحـدث الآن، يريـك الملـصقات، طلقـات الرصـاص، المبـاني العاليـة التـي كانـت تُـستخدم لاصـطياد الأيرلنديين بالقنص، المقابر التي تضم رفات أبطال المقاومـة، ويتجـاوز العام ليُحدِّثك بحميمية وحزن بالغين عن أخيه الصغير الذي قُتـل عـلى يد القوات البريطانية وكيف قام أخ ثان له بالتخطيط لمهاجمة مطعم يؤمه الجنود البريطانيون وكيف انفجرت القنبلـة قبـل وصـوله عتبـة المطعـم وكيف قُطِّعَتْ يداه ومزقت الشظايا جزءا مـن عمـوده الفقـري وكيـف يعيش من يومها على كرسيّ متحرك. ولعل أكثر مـا يلفـت الانتبـاه هـو حجم الوعي الذي يتمتّع به سائق التاكسي الذي يتحدث عن كل ما مرّ بدقة ووعي كما لو أنه الناطق الرسمي باسم هذه البلاد.

**

ستظل رحلة أيرلندا من أجمل وأعمق الرحلات التي قمتُ بهـا، فهـا هنا يتحرك المرء في أجواء مُحبَّة دافئة، لا يحسُّ فيها لحظة بكونه وحيـدًا أو غريبًا، إنه في المكان الذي يجب أن يكون فيه دائما: مساحة رحبـة كـما لـو أنها وطن، يتجول فيها بهدوء آمنًا كما لو أن النسمات ستتلقّفه إذا ما تعثـرَ في أي لحظة، وواثقا، على نحو استثنائي، أن هؤلاء الذين حوله أكثر من أصدقاء، أكثر من أخوة، شركاء مصير وأهداف نبيلـة وعـشاق لحريتـه وتحرره وحقه في العيش فوق التراب لا تحته.

**

تعود من أيرلندا بعد زيارتك لها أيرلنديا كـما يعـود الأيرلنـديون الـذين رأيتهم بعد زيارتهم لفلسطين فلسطينيين. ثمة شيء عميق يوحِّـد الجـرحين بقوة، مصدر الألم فيه واحد، فبريطانيا التي هنـا هـي بريطانيـا نفـسها التـي أصدرت (وعْدَ بلفور) هناك ومنحتْ اليهودَ بموجبه حقَّ إقامة وطن لهم في فلسطين وفجَّرَتْ في داخلنا ألما أوشك أن يـصبح عمـره مائـة عـام دون أن تتراجع حدته لحظة أو يكفّ الجرحُ عن الاتساع.

الوصايا المنسية

أعبر الشارع ثلاث مرات

الأولى بقلم وورقة

والثانية بآلة تصوير

والثالثة باحثا عنكِ

ودائما ثمة شارع جديد

طلبت إحدى المجلات الفرنسية ذات يوم مني مقالًا حول السفر، وبالتحديد حول ما الذي يمكن أن أقوله لمسافر يأتي لزيارة العالم العربي أو سواه.

وقد راقني الموضوع كثيرًا، إلا أنني لم أكتبه لظروف كثيرة في تلك الأيام، رغم أن عناصره أو فكرته الأساس كانت حاضرة. الفكرة التي تقول: حين تذهب لبلد وأنت تحمل فكرتك الكاملة عنه، لن ترى فيه سوى فكرتك التي تحملها. أما إذا تحررت من فكرتك وذهبتَ بروح طفل لا يعرف شيئًا سوى لذة الاكتشاف فإنك ستكتشف الكثير الذي سيبهج روحك، وبغير ذلك ستكونِ قد زرتَ البلد الذي بنيته في مخيلتكَ فقط، لا البلد الذي حلمتَ بزيارته، البلد الذي زرته.

ما تبين لي وأنا أزور كولومبيا أنني نسيت تلك الأفكار، لأنني، ربما، لم أكتبها!!

وكما يمكن أن يكون الأمر هكذا مع البلاد فإنه يكون مع البشر، كما لو أن البلاد والناس أنهر، وإذا ما أردنا السباحة فيها فإن أول شيء لا بد أن نقوم به هو أن نتخفف مما حملناه لنتخفف مما فينا، أن نخلع ما على أجسادنا من ملابس ثقيلة، قد تكون سببا في غرقنا، أو على الأقل إرباك تلك العلاقة التي يمكن أن تنشأ عن ملامسة الجسد للماء، أو الروح لذلك الجديد الذي لم يسبق أن عرفناه حقا.

تبدو بعض المدن الصغيرة أقل من أن نحلم بها، لأن العواصم هي التي تجتاحنا وتوقد بين ضلوعنا الرغبة في الطيران إليها متجاوزين، بسرعة ما أمكن، كل ما يفصلنا عنها من غابات وأشجار وأنهار وقرى وبلدات. كما لو أننا بحاجة دائما لهدف كبير يستحق الرحيل ناسين الطريق الذي أوصانا به (كفافي) ذات يوم وأكد أنه الرحلة. وكتب عنه ذلك الشاعر العراقي الرائع معد الجبوري قصيدته الرائعة تلك:

بحارٌ هَرِمٌ
منذ عصورٍ يرحلُ
وهو يفتِّشُ عن لؤلؤةٍ
تتخَلَّقُ في أرضٍ واعدةٍ موعودةْ
قالَ خذوا الحكمةَ عني:
إن الإبحارَ هو اللؤلؤةُ المفقودةْ

كانت مداين مفاجأة الليل، كما كانت مفاجأة النهار، بمجرد أن تخففتُ من عناء الطريق الطائر الذي لم يكن يعنيه كفافي. فها أنت الآن في وادي (أبورّا) القديم الذي لم يكن يسكنه حين وصله الأسبان أكثر من ثلاثة آلاف من السكان الأصليين الذين أبدوا مقاومة عنيفة، أولئك الفقراء الذين

عُرفوا بصناعة النسيج وزراعة الذرة والفاصوليا وتربية الأرانب والخنازير والكلاب أيضًا، هؤلاء الذين ينحدرون من قبيلة (أبورا) الممتدة جذورها لـ (حضارة فريريا) التي عمَّرَتْ الوادي قبل أكثر من خمسة وعشرين قرنًا، ثم جاءت بعدهم جماعة أخرى استطاعت أن تتقن عمليات تحلية المياه المالحة واستخراج الملح بالتبخير.

حين أطل القائد الإسباني جيرونيمو لويس تيجيلو على الوادي في الثالث والعشرين من آب عام 1541، أطلق عليه اسم (سان بارتولومي) وفي وقت لاحق أطلق عليه اسم (أبورّا) وهي كلمة محلية تعني (لوحة/ رسم Painting) لارتباط المنطقة بصناعة النسيج، ربما، حيث لم تزل مداين حتى اليوم هي المركز الأبرز لصناعة النسيج في كولومبيا كلها.

لكن هذا الوادي المحاط بالجبال الخضراء التي تُلامس السماء، والذي، كان في ذلك الزمان، قبل أن يجتاحه العمران، قطعة من الجنة، لا بد، عانى كثيرا من الظلم الإسباني وقوانين الفصل العنصري التي كانت تمنع الاختلاط بالسكان المحليين الذين أُجبِروا على العيش في تجمّع خاص كان يدعى (مكان آنا) والذي يشكل الآن وسط هذه المدينة.

حين صعدت الجبل إلى (كروز) التقطتُ مجموعة من الصور، رغم عدم ميلي للمشهد البانورامي الواسع، إلّا أنني أحسّ بأن هذه الصور من أكثر الصور التي التقطتها جمالا لمشاهدَ عامة.

ثمة اتساع لا تحدّه الجبال التي تُزنّر المدينة، وخضرة لا مثيل لتنوّع ألوانها، وألوان للتراب لا أظن أنني رأيت يومًا مثلها، ولذا لم يكن من قبيل المصادفة أن يُسمى هذا الوادي (اللوحة) وليس من قبيل المصادفة أيضا أن ينبثق من هذا الامتداد عدد من أهم الفنانين التشكيليين والكتاب من أمثال (فرانشيسكو أنتونيو كانو 1865 - 1935) صاحب اللوحة الشهيرة (الأفق) والكاتب مانويل فيما فاليجو الذي استطاع إبداع أشكال سردية جديدة والكاتب والشاعر غونزالو أرانجو والرسامة ديبورا أرانجو

والنحات رودريغو ارينـاس بيتـانكور، وبـالطبع فرنانـدو بـوتيرو الـذي استطاع تحقيق حضور عالمي لا يُضاهى وترك لمسته الجمالية على هذه المدينة، وسواها، لا من خلال لوحاته ومنحوتاته فحسب بل من خلال عطائه الذي أدهش القارة اللاتينية بأكملها قبل سنوات حين قدَّم لمسقط رأسه وعاصمة بلاده معًا تبرعا تصل قيمته إلى مائتي مليون دولار!! من بينـه أعـمال بقيمـة ستين مليون دولار لفنـانين عـالميين، بحيـث حـوّل مـدايين إلى كنـــز فنـي استثنائي وكذلك الأمر مع بوغوتا، وإلى ذلك ما قام به من إنشاء كثـير مـن المؤسسات والمتاحف في مدينته وسواها من المدن الكولومبية.

كان يمكن أن أكون أكثر تلهُّفًا لرؤية مدايين لو أنني كنـت أعـرف مـن قبل أن بوتيرو ابنها، ولكنني لن أكون على هذه الدرجة من الدهشة.

**

عدت للفندق بصعوبة عند المغيب، كنتُ قـد فقـدتُ الاتجاهـات تمامـا وتحوَّلت البنايـاتُ العاليـة إلى سـتار يحجـب الجهـة التـي ظننـت أننـي لـن أُضيِّعها.

لكن هذا الضياع لم يكن مثل ذلك الـذي يتمنـاه المـرء أحيانًـا، الـضياع الذي يمضي بك للبحث عن بيت فتكتشف مدينة أو عن شخص فتكتـشف شعبًا أو عن ساحل فتكتشف قارة.

لقد أحسست بامتلاء كان لا بدّ لي معه أن أعود. ربما لأنني لم أكن أتوقَّع رؤية كل ما رأيت دفعة واحدة وبلا مقدمات.

إنه أشبه ما يكون بالوقوع في الحب، أو العثور على حبيبـة أضـعتَها زمنـا فوجدتها في المكان الذي لم يخطر ببالك يوما أنها ستكون فيه.

لقد حدث معي الأمر نفسه في أواسط الثمانينـات: كنـت ولم أزل مولعًـا بأعمال غوغان، وقد فعلتُ الكثير لأحصلَ على كتب تضمُّ لوحاته.

في ذلك الوقت وجِّهَتْ إليّ دعوة لزيارة الإتحاد السوفييتي، وكنت أحسّ برهبة وأنا أطأ أرض ذلك البلد الكبير، فتاريخه حاضر فيَّ بصورة استثنائية لا شبيه لها في علاقتي مع أي بلد.

كان دوستويفسكي وتولستوي وغوغول وليرمانتوف وبوشكين وغوركي وتشيكوف ويَسينين ومايكوفسكي وشولوخوف يضجُّون في دمي، ولم أزل أذكرُ أن من أوائل الكتب التي قرأتها في صباي المبكر في المرحلة الإعدادية روايتي (الجريمة والعقاب) و (الأخوة كرامازوف) ولم يكن حضور كتّاب جاؤوا بعد هؤلاء الكبار، ممن عملتْ (دارُ التقدُّم) على ترجمة أعمالهم للعربية، أقل حضورا. أعرف أن كثيرين قد تخلصوا من تلك الأعمال التي باتوا يعتبرونها جزءًا من الماضي بمجرد انهيار الاتحاد السوفييتي، ولكنني سعيد بأنها لم تغادر مكتبتي، لأنني على يقين أن الأنظمة تنهار، والقارئ الذي اعتاد أن يحمل مظلّته في عمّان، أو سواها، كلّما كانت تُمطر في موسكو، يمكن أن ينهار، لكن الأدب الحقيقي من العيب أن يجري إنزاله من الرفوف العليا، إلى الرفوف الدنيا، كصور زعماء الانقلابات العسكرية، أو أن يجري طرده من البيت لمجرد أن زمنا سياسيًا آخر قد أرخى سدوله.

كنت مغرما بأعمال بوريس فاسيليف وبخاصة (الفجر هادئ هنا) وفيرا بانوفا في روايتها الساحرة (سيريوجا) وجنكيز إيتماتوف الذي كان الأكثر تأثيرا وبخاصة في روايته (جميلة) و (السفينة البيضاء) ورائعته (وداعا يا غولساري).

في تلك الأيام، ومنذ نهاية السبعينات تحديدًا، عَبَرَ حياتنا الثقافية كتاب معجزة، أصبح بمثابة دستور للروح لدى كثيرين منا، كتاب لا يشبهه أي كتاب قرأناه، كان ذلك الكتاب هو (داغستان بلدي) لرسول حمزاتوف، وفيه رأينا كيف يمكن أن يستطيع هذا القدّيس أن يُقَطِّر حياةَ شعبه، وأن

يُحيلها إلى عمل كبير بكل هذا البهاء حتى وهو يكتبه بلغته المحلية (الآفارية) التي لا يزيد عددُ الناطقين بها على ثلاثمائة ألف إنسان.

لم أكن أتوقع أن أرى أيًا من هؤلاء الكتاب الأحياء، لأنني أعرف خط الرحلة الدقيق: موسكو، لينينغراد، مينسك، ثم موسكو من جديد.

لكن المفاجأة أنني حين مضيتُ إلى متحف بوشكين في موسكو وجدت نفسي وجهًا لوجه مع عدد كبير من أعمال غوغان، وقد كان يكفيني سعادة أن أرى لوحة واحدة له.

تسمَّرتُ في مكاني، إلى ذلك الحد الذي دفعَ مرافقي صاحب العينين الصغيرتين الخضراوين أن يقول لي أخيرًا: أتريد المغادرة؟

- بل أريد الإقامة. قلتُ له.

ولعلي كنت محظوظا إلى حدّ غير عادي حين راحت الأيام فيما بعد تتيح لي التمتّع برؤية أعمال غوغان في غير متحف زرته، في ليننغراد، ثم في لندن، واشنطن، نيويورك، وأخيرًا في برلين. كما أن الزمان لم يبخل عليَّ فيما بعد حين أتيحت لي الفرصة لمشاهدة أعمال اثنين آخرين يحتلان مكانا بارزا في روحي وهما جيكوميتتي وموديلياني.

حين خرجنا من متحف بوشكين كنتُ أحسّ بهذا الامتلاء العذب المسْكِر الذي أحسسته أمام أعمال بوتيرو.

تجولنا كثيرًا بصمتٍ أدركتُ معه أن مرافقي لا يريد أن يخدشه، إلى أن وصلنا لواحدة من المكتبات الكبرى، دخلناها، اشترينا عشرات من كتب الفن المجلدة الملوّنة لأشهر الفنانين العالميين بأسعار أقل من أسعار علب التبغ أو أسعار الهامبرغر في بلادنا! وحينما بلغْنا البابَ قلتُ له في موجة سعادة حاولتُ كبْتَها ما أمكن، وباحثًا عن كلمات لا تجرح صفاءه: لم أكن أعرف أنني سألقاك حين أتيت، ولذلك لم أحمل معي لك هدية، وأتمنى أن تقبل هدية مني تحبّها لأنها ستذكرك بهذا اللقاء دائمًا. ولذا استميحك العذر في أن تختارها!

نظر إلي بصمت خجول وقال: هناك هدية واحدة يمكن أن تفرحني، ودونك لا أستطيع الحصول عليها. هل أستطيع أن أطلبها؟

كان مرافقي يبذل كل ما يستطيع لكي يقدّم أفضل صورة عن بلد، بدأت صورته تتعكّر، فقد استطاعتْ سوسة الغرب أن تتسلل لتنخرَ أرواحًا كثيرة في ظلِّ الأوضاع السائدة هناك، وأصبح نمط الحياة الأمريكية في عيون الجيل الصاعد هو النمط الأعلى، أو النموذج الأعلى للحياة. ولم يكن سرًّا، أن بنطال الجينز قد تحوّل إلى حلم أحلام قطاعات عريضة من الشابات والشباب؛ وقد عرفت طالبا كان يدرس هناك، لم يجد وسيلة أفضل للتجارة من أن يحمل معه أكبر عدد من أكياس البلاستيك التي تزيّنها علب التبغ وخيّالة السجائر والدخان، ليبيعها هناك ويعيش على ما تدرّه عليه من أرباح..

قلت له: بالطبع.

قال: هناك هدية صغيرة، سأعتبرها أفضل هدية يمكن أن تقدِّمها لي، ولكن اسمح لي أن أدفع ثمنها!

- أي هدية هذه التي سأقدِّمها إليك وأنتَ الذي ستدفع ثمنها؟!

حين أدرك حجم حيرتي أمام اللغز، قال لي (هناك كتاب لا أستطيع الوصول إليه إن لم تساعدني) وفي اللحظات التالية شرح لي، أن حصول القارئ على كتاب يقتضي في حالات كثيرة أن ينتظر دوْره، وقد يستغرق ذلك ستة أشهر أو عام، حتى يصدر الكتاب في طبعات لاحقة، وأنه لا يستطيع أن ينتظر كل هذا الوقت حين يكون الكتاب هو ديوان شعر لرسول حمزاتوف!!

كان الأمر أكثر من مفاجأة لي، ولكنني حين أخذتُ مكاني في الصف الطويل الذي كانت مقدمته في واحدة من المكتبات الكبرى، ونهايته في الشارع، أدركتُ معنى أن أقدِّم له، في بلده، هدية من هذا النوع.

حين ناولته الكتاب، اخضرَّتْ ملامحُـه، وابتـسم كطفـل، وراح بـشغف يُقلِّبُ صفحاته في البداية، ثم راح يقرأ فيه ويقرأ حتى نسي وجودي تمامًا.

كان رسول حمزاتوف يقول:

القلب نفسه تستهدفه الرصاصة والوردة

والوجه نفسه تأتيه الضحكات والدموع

والشفاه نفسها تذوق العسل والسم

وفي السماء تطير الصقور والحمام

وفي الغيمة السوداء نفسها، تنبثق النار والماء

وعلى المسمار نفسه تعلق القيثارة والخنجر

وكان يقول:

أروع الجرار تصنع من الطين العادي

وأروع الأشعار من الكلمات البسيطة

والشعوب الصغيرة تحتاج إلى خناجر كبيرة دائمًا

**

من الأمور الأخرى التي أثَّرت فيّ بقـوة أثنـاء تلـك الرحلـة زيـارتي لمَعْلَمَين أساسين، الأول هو (تلّ المجد) الذي جمعوا ترابه من كل مكان قاوم فيه الروس ببسالة القوات الألمانية الغازيـة خـلال الحـرب العالميـة الثانية. فوق هذا التل تم بناء نُصب مـن ثـلاث كتـل إسـمنتية تـستدقُّ تدريجيا في صـعودها لنهاياتهـا، تحيط بهـا دائـرة حُفـرتْ عليهـا وجـوه مقاتلين ومقاتلات ذات ملامح قوية؛ وبعد وصولنا بقليل رأينـا موكبـا يصعد التل، حين وصل، هبطتْ منه عروس بثوبهـا الأبـيض وعريـسها ببزته السوداء. سألتُ مرافقي: ما الذي يحدث؟ فقال: قبل الـذهاب إلى بيت الزوجية يأتي العروسان هنا تعبيرا عن تقديرهما لأولئك الذين ماتوا

وهم يقاتلون في تلك القرى والمدن التي قاومتْ والذين لولاهم ما كانت هذه الأعراس ممكنة اليوم.

أما المَعْلَم الثاني فقد كان (مقبرة القرى)، وهو من أكثر المواقع التي رأيتها تأثيرًا، إذ حُفرتْ قبورٌ، ووضِعَتْ لها شواهد حجرية تحتضن صناديق زجاجية يمكنك أن ترى فيها بعضًا من تراب القرى التي تمَّ تدميرها تماما خلال الحرب الثانية. لكل قرية قبر حُفِرَ اسمها على شاهدته، وفي مدخل تلك المقبرة ترى ذلك التمثال العالي لرجل عجوز نصف عارٍ يحمل جثة صغيرة لأحد أحفاده ويسير نحو اللامكان.

تمنيت دائما أن تستطيع فلسطين، مستقبلا، تنفيذ هذين المَعْلَمَين حين تتحرر، وقد قام الدكتور وليد الخالدي بعمل الكثير حين ألَّف كتابه الضخم عن القرى الفلسطينية المدمرة وبذلك أوجد هذا المَعْلَم بين صفحات كتابه (كي لا ننسى) وقدّم فيه (وصفًا تفصيليًا دقيقًا لِـ 418 قرية فلسطينية دمرتها إسرائيل، عمدًا، وأجْلَتْ سكانها عنها خلال حرب 1948.. كما يقدم بيانات إحصائية، ولمحة تعريفية طبوغرافية وتاريخية واقتصادية، عن كل قرية من تلك القرى عشية حرب 1948. ثم يبين ظروف وقوعها تحت الاحتلال العسكري الصهيوني، والمصير الذي آلت إليه، وصولا للوضع الراهن للموقع الذي كانت تقوم عليه القرية، بما في ذلك المستعمرات الاستيطانية التي أقيمت على أرضها.)

**

أعود للمدن الصغيرة التي لم تكن ذات يوم على طريق رحلاتنا المحدّدة بإتقان! فذات يوم وصلتُ و (مُنى) إلى (كانسيل) تلك المدينة الأيرلندية البحرية، وصلناها مساء، وبعد جولة فيها، بدتْ لنا واحدة من المدن التي تنام في الثامنة، بحيث تساءلتُ: أي جدوى من أمسية شعرية تقام هنا؟!! ولكنني حين أشرعتُ الستائر في الصباح تبيّن لي أنني في الجنة.

إنها واحدة من أجمل المدن التي عرفتها، المدينة التي اتخذتْ بنفسها قرار إقامة معرض فوتوغرافي لي حين جعلتني أحمل الكاميرا وأمضي في شوارعها مسحورًا بكل ما أراه.

من النادر أن يحدث ذلك بهذه الكثافة، وبهذه السرعة، ولعل مدينة واحدة استطاعت أن تشارك كانسيل هذا السّحر وتشاركها قرار إقامة المعرض أيضًا، ألا وهي فينيسيا. وعلى الرغم من أن الإقامة في كلتا المدينتين كانت خاطفة، إلا أن الحصاد كان وفيرًا.

في فينيسيا، حيث كنتُ أشارك في مهرجان فوندامنتا تجولتُ ذات ضحى مع جمال الغيطاني وبعد ساعة تَعِبَ فقال لي: لنذهب إلى المطعم.

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ظهرًا.

قلت: بدري على الغداء!

قال: المهم أن أستريح.

قلت له: سأتبعكَ بعد قليل.

ولعل أجمل ما حدث لي في تلك الجولة الصغيرة مع الكاميرا، الجولة التي لم يتجاوز طولها خمسًا وأربعين دقيقة، أنني اكتشفت فينيسيا كما لم أكتشفها خلال الأيام الثلاثة التي مرَّتْ عليّ فيها.

اندفعتُ مسحورًا نحو مَشاهد لم يسبقْ أن رأتها عيناي بهذه الطريقة، وتحوَّلت المدينةُ إلى شيء آخر يخصُّني، كما لو أنني استطعتُ أن أعثر أخيرًا على مدينة فينيسيا الخاصة بي وحدي.

عندما عدتُ لجمال الغيطاني، كانت دهشته أكبر.

لا أحد يستطيع أن يُفسِّر كيف يستطيع مصوّر ما أن يلتقط نصف لوحات معرضه في هذا الزمن القياسي.

ها هنا ولِدَتْ البذرةُ التي ستتفتّح بعد شهرين في مدينة أخرى بعيدة هي (كانسيل)، كما لو أن المدن تتبادلنا فيما بينها دون أن ننتبه لذلك.

مشهد الجزْر والمدِّ كان واحدًا من أهم المشاهد التي يراها المرء في خليج كانسيل الضيق، وإلى ذلك بيوتها التي تشبه الألعاب، فها هنا بيت أخضر بجانب بيت أبيض بجانب بيت أصفر، برتقالي، أحمر، أزرق..

صبحًا كنتُ أتجوّل على الشاطئ والتقط الصور غير مُصدِّق حجم هذا الجمال الذي تمنحه المدينة للكاميرا!! إلى أن وصلتُ إلى بوابة ميناء للقوارب، نظرتُ إليه عبر السّلك الشائك والبوابة المقفلة بإحكام، وتمنيت الدخول، كما لو أنني في سجن وحريتي هناك خلف الأسلاك!!

ولأن المدن لا تخذل بعضها وهي تتبادلنا فيما بينها، فقد سمح لي المشرف على الميناء الصغير بالدخول، بعد أن رمقني بنظرة سريعة خرج بعدها بنتيجة أنني شخص يمكنه الوثوق به. وهناك، على الأرصفة الصغيرة الكثيرة التي تتكئ عليها القوارب بمختلف أشكالها وأحجامها وألوانها، عشتُ أجملَ ثاني خمس وأربعين دقيقة يمكن أن تُعطي المرء كل هذا الجمال!!

في طريق عودتي للفندق، كنت أُحدِّق في الكاميرا خائفًا عليها لأول مرة، خائفا من أن يحدث لها أي شيء يمكن أن يجعلني أفقد المدينة التي أصبحتْ داخلها، أفقد الكنز الذي يملأ روحي بهجة. بعد عامين سيزورني أحد الأصدقاء الأيرلنديين من جمعية التضامن مع الشعب الفلسطيني وسينظر إلى الصور التي جمعها معرض بعنوان (تحت شمسين) ويسألني: أين التقطتَ هذه الصور؟

- في أيرلندا.
- في أيرلندا!! لا.
- بل في أيرلندا.
- أواه، ربي.. أهذه بلدي؟!!

لقد وقع جاك أونيل فيما وقعتُ فيه من دهشة، وهو يعيد اكتشاف مدينته عبر تلك الصوّر، مدينته التي أصبحت مدينتي، وكان المشهد نفسه

قد تكرر مع الدكتورة إيزابيل زوجة السفير الفرنسي بعمان التي ما إن دخلت عتبة صالة المعرض حتى تجمَّدتْ في مكانها قبل أن تلتفت إليّ وتقول: إنها فينيسيا التي في رأسي، فينيسيا التي لم يرها أحد كما رأيتها أنت. ولن يمرَّ وقت طويل قبل أن تكتب مقالا رائعا عن المعرض وتنشره بالفرنسية في جريدة (ستار).

إنها كانسيل إذن، التي ستتبادلني هي وفينيسيا هذه المرة مع مدينة أخرى في أقصى الشرق، في كوريا.

فما أن تمّ تقديم المعرض في (دارة الفنون) ونُشِرَتْ بعض صوره على موقع الدارة في شبكة الإنترنت، حتى وصلتني تلك الرسالة التي حسبتها نوعا من المزاح (نرحِّب بك في بينالي جوانغيو للفنون التشكيلية) لقد رأينا صورك وأُعجبنا بها، وهي، للمصادفة، تلتقي مع عنوان بينالي هذا العام (قطرة ماء.. ذرة غبار).

كان مصدر المفاجأة أنني لم أكن أتصوَّر نفسي مصوّرا محترفا في أي يوم من الأيام، فحين عرضت صوري للمرة الأولى في معرض (مَشاهد من سيرة عين) لم أكن أفكر بأن هنالك معرضا آخر سيليه، لكن فينيسيا وكانسيل قررتا شيئا آخر، وذهبتا إلى ذلك الحد الذي أوصلني بعد ذلك بتسعة أشهر إلى بينالي عالمي للفنون الجميلة!!

الآن، أعرف ما قررته مدينة غوانغيو لأنني حين وصلتها كنت قد التقطتُ الكثير من الصوّر التي سأختار من بينها خمسًا وعشرين تحت عنوان (حياة البحر الميت) الصور التي عُرِضَتْ في جناح خاص بي وأخطط لعرضها هنا ثانية في عمان في معرض هو الثالث لي!!

ولكن هنالك شيئًا لا بد من قوله هنا وهو أن التصوير احتل مكانة تفوق الرسم في تجربتي، إذ اكتفيتُ، تقريبا، بذلك المعرض الذي أقمته مع الصديقين الكاتبين (فاروق وادي وجمال ناجي) بعنوان (كُتّاب يرسمون) وهكذا لا أعتبر نفسي رسامًا محترفًا فتجربتي في الرسم تجربة محدودة ولعلي

عملتُ على أن تكون محدودة حين لم أمنحها حقّها في أن تحتل مساحة كبيرة من يومي، إنها بمثابة نافذة صغيرة كافية لأن تجعلني أحس بحرارة ودفء وضوء شمس أخرى قد لا توفرها لي نافذة الشعر أو نافذة الرواية، أما الشيء الأكثر جدية بالنسبة لي فهو التصوير، فبالكاميرا أستطيع أن أرسم ما لم أستطع رسمه بالريشة، وعلى الرغم من أنني تعاملتُ مع التصوير أيضًا كهاوٍ لمدة خمسة عشر عاما ظلّتْ خلالها الصور معلقة على جدران بيتي، دون أن يكف الأصدقاء عن محاولاتهم المستمرة لإقناعي بعرضها، إلا أنني وجدتُ نفسي ذات يوم أمام القرار الذي تهرّبتُ منه طويلا، وكان للفنانة السيدة سهى شومان رئيسة مؤسسة خالد شومان ـ دارة الفنون، الفضل في ذلك إذ قالت لي فجأة أثناء زيارة لي للدارة قبل عام من عملي فيها: معرضك سيكون في شهر كانون الأول!

- دعيني أفكر في الأمر.

- فكِّر الآن!! معك عشر دقائق.

تجوّلت في دارة الفنون وبعد قليل سألتني: فكّرت؟

- فكّرتُ؟

- وما هي النتيجة؟

- سأقيم المعرض!!

كانت حماستها لتجربتي في مجال التصوير هي السبب الأول والأخير الذي جعلني أعرض، فقد كنتُ أصوِّر لنفسي كما كنت أرسم لنفسي، اعتقادًا مني بأن أيّ صورة تلتقطها بعدستكَ أو يلتقطها ابنك أو ابنتك أو أيّ لوحة يمكن أن يرسمها أحد أفراد العائلة أو أي صديق لكَ فيها من الحياة ما يفوق أي صورة مستنسخة لأي لوحة لأي فنان كبير من هذا العالم.

أناس جميلون

لعلنا أعمدة الكون

فارفعوا رؤوسكم عاليا

لتظل السماء عالية

كان راؤل جيمي قد فاجأني حينما تسلَّمتُ قصائدي من إدارة المهرجان عبر البريد الإلكتروني قبل سفري إلى كولومبيا.

فتحتُ الملف، وجدتُ عناوين القصائد بالإنجليزية أمام العناوين الإسبانية، رحتُ أُقلِّبُ الصفحات الأثيرية مُقارنًا ومستمتعا ومحاولا إيجاد الفرق بين عنوان القصيدة بالاسبانية وعنوانها بالإنجليزية.

لم أكن أملك الجرأة لتجاوز ذلك باتجاه القصيدة نفسها!

ما أثار انتباهي أن الملف لم ينته، حتى بعد الوصول إلى الصفحة العاشرة، مما دفعني للمضيِّ إلى نهايته، وهنا كانت المفاجأة. فحين طلبت إدارة المهرجان بعض القصائد لترجمتها من الإنجليزية أو الفرنسية للإسبانية، احترتُ، بحيث اخترتُ خمسين قصيدة قصيرة مترجمة للإنجليزية، ثلاثة أرباعها من القصائد القصيرة جدًا، وقلتُ: هم أدرى بما يمكن أن يُتَرَجَم من ذلك الذي لا يُتَرَجَم، وأدرى بما هو قريب من الذائقة الكولومبية المتقدة.

كنت أعرف أنني أرسل مجموعة من القصائد التي تنتمي للهدوء والتأمل والحكمة، لكنني كنت فرحًا بتجربة سابقة قرأتُ فيها هذه القصائد في فرانكفورت، ووجدت أنها تصل وتحدثُ تأثيرًا عميقًا وكبيرًا.

كان اختيار هذه القصائد ليس أقلَّ من مغامرة رغم اتكائي على تجربة ناجحة.

حين وصلتُ لنهاية الملفِّ أدركتُ أنهم ترجموا كلَّ ما أرسلته؛ وقد استغربت ذلك، لأنهم في العادة يترجمون ما يكفي للقراءات، لا ما يكفي لإصدار مجموعة شعرية كاملة!!

لكنني لم أكن مطمئنا تمامًا لترجمة الشعر عبر لغة ثانية رغم ثقتي الشديدة بالترجمات الإنجليزية التي قام بها الدكتور إبراهيم مهوي والدكتورة أمنية أمين والدكتورة مي الجيوسي. إذ دائما يكون هناك حذر في هذه النقطة بالذات لا يحتاج إلى إثبات.

كان أول ما فعلته في مدريد أن بسطتُ القصائدَ أمام الصديق عبد الهادي سعدون ليطمئنَ قلبي.

بعد دقائق قال لي: إنها ترجمة ممتازة.

أفرحني هذا كثيرًا، وناولته القصائد كلها مع أصولها العربية ليتصفحها لاحقًا، وقد كانت النتيجة رائعة كما أخبرني.

الأمر الذي ظلَّ يحيرني هو كيف استطاع راؤل جيمي أن يترجمها بهذه الجمالية وعبر لغة ثانية ولماذا أقدمَ على ترجمتها كلِّها؟

كان أول أسئلتي عندما وصلتُ الفندق: أين أجده؟!

- قبل قليل كان هنا. قال لويس وهو يشير إلى مقعد في بهو الفندق.

لم أعثر عليه، لكن الشيء المهم الذي عرفته أنه شاعر؛ فقلت: هنا يكمنُ السرُّ إذن. لكنني لم أصل لإجابة عن النصف الثاني لسؤالي: لماذا ترجمها كلها؟!

في صبيحة اليوم التالي أشاروا: ذلك هو راؤول، في اللحظة نفسها الذي رأيته ينهض ويتّجه نحوي.

عانقني كما لو أن فراقنا كان في المرّة الأخيرة أطول من أن يُحتَمل! وقال لي: أنا مترجمُ قصائدك.

- أنتَ شاعرها. قلتُ له.

ورحنا في أحاديث كثيرة عرفتُ من خلالها أن راؤول الشاعر الشاب (1967) قد أصدر ديوانين وهو يملك دارًا للنّشر ويُصدرُ مجلةً أدبية، وحينما وصلنا للحديث عن تجربتي سألته: ولكن لماذا ترجمتها كلها؟

- قصائدك؟

- قصائدي.

- لأنني أحببتها. بدأت بترجمتها ولم أستطع التوقُّف. حدث لي الأمر نفسه حين بدأت بترجمة قصائد الشاعرة الأمريكية ريتا دوف.

كان راؤول جيمي نموذجًا رائعًا لشاعر لا يتردد في إعلان حبه لقصائد شاعر آخر، ولا يخجل من المجاهرة بذلك بعذوبة وحرارة وصدق.

**

ذكرني ذلك بموقفين من شاعرين آخرين لا يمكن أن أنساهما.

عام 1985، في القاهرة، وخلال زيارة خاصة، ذهبت لحضور أمسية شعرية في نقابة الصحفيين كمستمع، وعندما جاء دَوْر الشاعر المصري زين العابدين فؤاد، قال زين العابدين: لا أستطيع أن أقدّم قصائدي هذا المساء وبيننا شاعر (...) من الأفضل لكم أن يقرأ هذا المساء مكاني! اسمحوا لي أن أدعوه إلى المنصة للقراءة في الوقت المخصص لي.

مفاجأة كبرى كان الأمر، بحيث مضيتُ أبحثُ في ذاكرتي عن قصيدة أحفظها، ولم أجد فيها سوى (الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق)

رغم أنها قصيدة – ديوان، لكن، ولكثرة ما قرأتها في العام السابق حفظتها تقريبا.

- سأقرأ بعض مقاطعها. قلتُ لنفسي.

ولكنني كلما أنهيتُ مقطعًا، راح الجمهور يصفّق طالبا المزيد.

في نقطة ما كان لا بد من التوقُّف فتوقفت.

عندما انتهت الأمسية اقترب مني عبد الرحمن الأبنودي وزوجته المخرجة اللامعة عطيات الأبنودي، وأصرا على دعوتي، وفي بيته كانت أول جملة يقولها لي هذا الشاعر الكبير: الله يا أبو خليل. دي مراتي معجبة فيك أكتر ما هيّ معجبة بيّ!!

أما الشاعر الثاني الذي فاجأني فكان الشاعر الأمريكي (ريك لندن) في واحد من مؤتمرات جامعة فيلادلفيا، فحين رآني في القاعة، وهو يعرف أنني سأقرأ بعد يوم، قال: اسمحوا لي قبل قراءتي لقصائدي أن أبدأ هذا المساء بقصائد أحببتها كثيرًا. وقرأ بمحبة بالغة مجموعة من قصائدي القصيرة جدًا التي صدرت في أنطولوجيا أمريكية تحت عنوان (كفى).

أما الموقف الحضاري الذي لا أنساه أبدًا فقد حدَثَ أثناء مهرجان للشعر الأوروبي العربي أقيم في عمّان. حين وصلتُ قاعة (بيت الشعر) سألتُ: مَن سيقرأ قصائدي بالفرنسية؟ فقالوا لي: سعادة السفير الفرنسي نفسه. جان ميشيل كازا!

في تلك الليلة أكبرتُ فيه هذه اللفتة الجميلة وأكبرتُ فيه أنه هو الذي اختار القصائد كما علمتُ فيما بعد، وجميعها قصائد ذات أبعاد إنسانية وطنية فلسطينية.

**

والحقيقة أن راؤول جيمي حين قام بترجمة كلّ هذه القصائد فتح الباب لي واسعا لاختيار ما أريد منها في الأمسيات التي سأقرأ فيها. وقد كانت

الأمسية التي ستقام في جامعة (أنتيغويا) في اليوم نفسه واحدة من الأمسيات الأهم كما سيتبين لي فيما بعد. فحين وصلنا في الموعد المحدد، فوجئنا بطوابير طويلة من الطلبة في الساحة الخارجية للجامعة أمام البناية التي تضم المسرح.

أشرعوا لنا الطريق فاتخذنا أماكننا في الصف الأول تمهيدا لصعودنا للمنصة.

كان المسرح كبيرًا، يتّسع لثلاثة آلاف طالب، ولم يكن قد تبقّى الكثير من المقاعد الفارغة، في الوقت الذي بدا لنا فيه أن عدد الذين ينتظرون في الخارج أكبر من عدد أولئك الذين في الداخل.

قبل بدء الأمسية بقليل، طلب أحد الشعراء أن يقرأ في البداية لأنه مضطر للخروج مبكرًا، لكن مديرة الندوة تجاهلت الأمر تمامًا ومضتْ تُطبّق البرنامج كما هو، غير عابئة بذلك الطّلب، وقد كانت المفاجأة، فيما بعد، أنه لم يغادر الأمسية قبل انتهائها.

كان هنالك أربعة شعراء آخرون هم بابلو مونتويا - كولومبيا، ريتا دوف – أمريكا، كاسيميرو دي بيرتو – البرتغال، وول سوينكا – نيجيريا.

سأظل أحتفظ بذكرى خاصة مؤثرة لهذه الأمسية التي أعتبرها واحدة من أهم الأمسيات التي شاركتُ فيها، وإن كان هذا الحكم مجروحًا لسبب مهم، وهو أن لكل أمسية من الأمسيات الستّ مذاقها الخاص المختلف تمامًا.

ما كتبه الصديق الشاعر أمجد ناصر عن أجواء اليسار القويّة ومعاداة أمريكا في كولومبيا كان واضحًا، وقد شاركَ أمجد في المهرجان قبل عام، لكن المسألة في ظني، أيضًا، تتجاوز الإيديولوجيات هنا لتذهب نحو ذلك الإرث الذي لا يُحتَمل من العذاب الذي خلَّفتْه أمريكا في هذه القارة، الإرث الثقيل الذي يمسُّ بعمق السكان الأصليين من الهنود والسود وأولئك الذين ينحدرون من هؤلاء ومن الأوروبيين في آن؛ فمشكلة أمريكا

ليست قائمه فيما تفعله الآن، بل فيما فعلته دائمًا، وقد كـان لي أن ألمـسَ ذلـك كله حين اختتمتُ قراءتي بقصيدة قصيرة من ديوان (كتاب الموت والمـوتى) اسمها (موت):

أيــامَ جـــدّي
كانوا يُسمونه: تركيا
أيـامَ أَبي
كانوا يسمونه: بريطانيا
وأيـامَنـا نـحنُ
يسمونه: أمريكا

لقد فعـلْنـا الكثـيرَ إذن
لقد عرفنا اسمه على الأقل
كي لا يـموتَ أبناؤنا
وهم يفتشونَ عن اسم لــه !!

وبمجـرد أن جلـستُ تـذكَّرتُ ذلـك الـسؤال الـذي لا تكـفّ الإدارة الأمريكية عـن إلقائـه في وجـوه العـرب والمـسلمين بـشكل خـاص: لمـاذا يكرهوننا؟

وإذا بي أكتشف أننا لسنا وحدنا الذين نكـره هـذا النظـام الـذي مَنَحَتْـه قوته جنونًا فائضًا ليقوم بانقلاب على السماء من أجل احـتلال دورهـا عـلى الأرض. هذا النظام الذي لم يعد يكتفي بدوره التقليدي كشرطي للعالم، بـل نصَّبَ نفسه إلها لهذا العالم. النظام الـذي وصـفه شـاعر أمريكـي صـديق في رسالة تلقيتها منه بعد هذه الرحلة بقوله: أكـره هـذا الـوطن الـذي يمـضي بخطى مجنونة نحو الفاشية.

غادرنا القاعة بعد أن انتهينا من توقيع قصائدنا التي يضمّها كتاب المهرجان، وهذا جزء أساس من كل أمسية، والتقاط الصور أيضا، حيث يشتري الحاضرون نسخًا ويطلبون من كل شاعر مُشارك أن يوقِّع أمام قصيدته، في ظاهرة رائعة تجمَعُ الأطفال والشيوخ والفتيات.

كانت ريتا دوف مفاجأة جميلة بالنسبة لي، وكذلك سوينكا الذي أتيح لي أن أسمعه بهدوء أكثر صفاء من المرة الأولى، وأظنُّ أن العالم العربي قصّر كثيرًا حين أَوْلى الاهتمام الأول لترجمة أعماله النثرية وأغفل شعره؛ كما سرّني تبادل ذلك الحديث الطويل مع دي بريتو، البرتغالي الذي يحبُّ مدينة بيروت كثيرًا والذي لا يُخفي حماسه لكل قصيدة جميلة يستمع إليها.

إنها واحدة من الأمسيات المثالية؛ وإن كانت تجربة الرحيل إلى مدينة بونافينتورا على شاطئ المحيط الهادئ لا تقلُّ إثارة، المدينة التي يعني اسمها (الحلم الجميل، أو كلّ ما تتمناه)، وسيكون لتلك الرحلة مساحة مهمة في هذا الكتاب، لأنها تمثِّل ذروةَ التّماس مع قلوب الناس ومع المخاطر الكولومبية التي وجدناها ماثلة أمامنا في ذلك الطريق الطويل.

أما السؤال الذي راح يتكرر بدءًا من هذه الأمسية فهو: من الذي ترجم قصائدك؟

وأجيب: راؤول جيمي.. إنه شاعر.

فيكون التعليق: إنها ترجمة رائعة.

وحين أنقل تلك الانطباعات لجيمي يقول: إنني أفكر بشيء أكبر فيما يتعلق بشِعرك وبشعر ريتا!!

أما الشيء الجميل الذي بات طقسًا مهمًا لي ولجون سوسا قارئ قصائدي الرائع، فهو أننا كنا نمضي بعد الأمسيات نتجول في المدينة، وحينما نتعب نمضي لنشرب شيئًا دون أن نكفَّ عن الكلام أبدًا، بحيث يمكنني القول: لا يوجد موضوع يمكن أن يتحدث فيه اثنان يلتقيان في مناسبة كهذه ويتقنان اللغة ذاتها إلا وتحدثنا فيه رغم عدم وجود تلك اللغة!

بعد عودتي من كولومبيا شاهدتُ فيلما رائعا للمخرج جيم جارموش عنوانه (شبح الكلب.. طريق الساموراي) وفيه علاقة نادرة تجمع ما بين مهاجر أسود لا يتكلّم سوى الفرنسية مع أمريكي أسود لا يتقنها، لكن الحديث بينهما متكامل إلى حدٍّ مدهش.

يأتي فورست ويتكر الممثل الرائع الذي يؤدي دور قاتل محترف يؤمن بتعاليم الساموراي ويتلقى (طلبات القتْل) من خلال حمامة زاجلة!! يأتي لصديقه الوحيد بائع البوظة في العربة المتنقلة ويبدأ الحديث معه بالإنجليزية وذلك يجيب بالفرنسية، وهكذا يستمر الأمر طويلا، دون أن نعثرَ على شيء من سوء الفهم بينهما.

يناول ويتكر صديقه بزَّة واسعة وهو يقول له بالإنجليزية: أظن أنك ستكون مضطرًّا لتضييقها قليلا!!

فيرد الثاني بعد أن يتأملها: أظن أنني سأجد خياطًا مناسبا!!

وهكذا يستمر الأمر بسلاسة لا تستطيع معها إلا أن تؤمن بعمق هذه الصداقة التي ترتفع على اللغتين وهي تبتكر لغة ثالثة هي لغة القلب.

حين أستعيد مشاويرنا الليلية بعد كل أمسية أكتشفُ أن التَّفاهم بيني وبينه لم يكن أقل من أي تفاهم وانسجام كان بيني وبين أيٍّ من المشاركين الذي يتقنون لغة مشتركة أو حتى الأصدقاء العرب الذين جمعتني بهم مدايين، حين لم تفعل ذلك مدن عربية كثيرة.

كرة القدم في ملعب الشعر!!

لم أدخل مدينة إلا ومنحتني عينين جديدتين

لم أدخل مدينة إلا واكتشفت فيها ما لم أكن أعرفه عن قلبي

لم يكن من السهل متابعة الأمسيات الشعرية، إذ غالبا ما كانت الحافلات الصغيرة أو سيارات التاكسي في طريقها إلى هناك محتشدة بالشعراء والشاعرات ومرافقيهم الكولومبيين، إلا أن ذلك لم يمنع وجود فرصة أحيانا للذهاب إلى أمسية غير أمسيتي، ولعل ما يعوض هذا الغياب، أن المشاركة في ستّ أمسيات مثلا يساعد المرء على أن يلتقي مباشرة بما لا يقل عن خمسة وعشرين إلى ثلاثين شاعرا من المشاركين في المهرجان، وهي نسبة طيبة مقارنة بعدد المشاركين، وإلى ذلك الذين يمكن التعرّف إليهم في أروقة الفندق والسهرات الممتدة إلى ساعات متأخرة من الليل.

**

بجوار شجرة لا يقلُّ عمرها عن ألفي عام! شجرة ناشفة حوَّلَ أحدُ الفنانين جذعَها إلى منحوتة استثنائية في ساحة يجتمع فيها باعة العصير والسندوتشات والكوكا كولا والتماثيل التذكارية والعشاق الصغار والذاهبون إلى الكنيسة التي تحتل أحد أضلاع هذه الساحة، الكنيسة الكبيرة ذات الدرجات القليلة المؤدية إلى بابها العظيم.

هنا، حيث عازف الغيتار وضجة العربات والأغاني الصادحة وبهجة احتساء الجعة في أكثر من خمس حانات..

هنا يتجلى الحضور الطاغي لتلك الشجرة – المنحوتة وقد أطلّتْ من جذعها عشرات الوجوه الإنسانية المختلطة بالخيول النافرة والطيور الغريبة والأجنحة المحلِّقة، حضور يسلب الناس ألبابهم فتراهم يدورون حولها كما لو أنها مزار ويلتقطون الصور لها ومعها.

حاولتُ أن أتبيّن فيهم غرباء عصفتْ بهم الدهشة، حلّوا ضيوفًا عابرين على المدينة، مثلي، لكن الأمر لم يكن كذلك، إذ بدت مداين بالنسبة لي، ومنذ البداية، مدينة خالية من السيّاح، رغم أن كل ما فيها يؤهلها لأن تكون مدينة سياحية مثالية.

في الخامسة من بعد الظهر تمامًا

صعد الشعراء للمنصة التي تم إعدادها في زاوية من زوايا هذه الساحة، وتم تزويدها بكل ما يجعل أصوات الشعراء والشاعرات قادرة على التغلُّب على كل ما حولها.

قليلًا كان الجمهور في البداية، لكنه ما لبث أن راح يتزايد شيئا فشيئا غير عابئ بعدم وجود الكراسي. بعض الناس جلسوا على الأرض الصلبة، بعضهم وجدَ في درجات باب الكنيسة ما يعوِّضه عن جلسة مريحة، وبعضهم كان يراقبُ من بعيد من فوق المقاعد الحجرية.

لكن الأمر لم يكن طبيعيًا.

السماء الملبدة بالغيوم المُنذرة بمطر خفيف قد يفسد الأمسية كانت بدورها تتطلَّع لتلك العاصفة التي بدأتْ تتشكل على الأرض، في الشوارع المحيطة بالساحة، في الساحة، وفي مداين كلّها، بل ربما في أنحاء كولومبيا جميعها!! حيث العيون المتجهة لهذه المدينة تترقَّب لحظة انطلاق لم يسبق لها أن رأت مثلها!

: إنها المرة الأولى التي تصل فيها مدايين إلى المباراة النهائية لبطولة كرة القدم على مستوى البلاد!! كما أخبروني.

ماجت الأعلامُ الخضراءُ في الشوارع، رفرفتْ، وتزايد عدد الفتيات والفتيان الذين يتابعون المباراة، التي ابتدأت، على شاشات أجهزة التلفزيون التي وضعتها الحانات في واجهاتها تعبيرًا عن تضامن عام، في حين كان بائع العصير بجانب عربته الصغيرة قد أثبتَ أنه لا يقلُّ إيمانا بفريق مدينته وقد أحضر جهاز تلفزيون لا يقلُّ حجمًا عن تلك المتواجدة في واجهات الحانات.

جمهور مختلفٌ، متعدد الأجيال، لكن القلب كان واحدا وكذلك الترقُّب الذي يحبس أنفاس الجميع.

في هذه الأجواء غير العادية بدأت الأمسية، وكان الأمر مستحيلا في نظري، لكنني اكتشفت أن قيام حربٍ لا يعتبر سببًا مقنعا لإلغاء هذه القراءات.

تراجعتُ للوراء قليلا لتتاح لي فرصة أفضلَ لمشاهدة كل ما يدور، وحمدت الله أنني غير مشارك في هذه الأمسية، ودائما هنالك أكثر من سبب كما يقول بطل روايتي (حارس المدينة الضائعة)، وأول هذه الأسباب وجود كل تلك الضجة التي، لم تكن قد بدأتْ بعد فعليًا، الضجة التي تمزِّق أجواء الأمسية بلا رحمة، وثانيها، أن واقعة كهذه بمثابة فرصة نادرة لتأمل المشهد أكثر من الانشغال بجزء واحد منه، وثالثها، أن القراءات بلغات كثيرة كانت سببا مقنعا للتجوّل حول الأمسية ووصول أطراف الساحة ومعرفة ماذا يدور هناك.

التوتر المعجون بحرارة الترقُّب كان كافيًا لكي يجعل جمهور المباراة يكرع مزيدًا من كؤوس الجعة، ولم يكن رجال الشرطة الذين انتشروا في المكان أقلّ انفعالا. لكنني وسط هذا كله، كنت قد تركتُ أذني تتابعان ما يحدث في زاوية الأمسية الشعرية؛ وفي اللحظة التي انطلق فيها جمهور الشعر يصفِّق

لأحد الشعراء انطلق الجمهور في الساحة كلّها يصفق، ودوَّت أجراسُ الكنيسة وتعالى الهتاف والرقص واحتضان البشر الواحدُ للآخر.

ولم تكن نهاية القصيدة القوية هي السبب!!

كان علي أن أنظر هذه المرّة نحو شاشة التلفزيون لأرى إعادة للهدف المتقن بالتصوير البطيء.

وفي البعيد، من كل أنحاء المدينة انطلقت الألعاب النارية تضيء سماء المدينة ومعها أبواق السيارات.

كرة القدم في أمريكا اللاتينية ليست لعبة فقط

إنها الدم الذي يجري في عروق الناس

تذكّرت تلك الواقعة الغريبة التي شهدتها بطولة كأس العالم عام 1994 حين سجَّلَ المدافع الكولومبي أندريس أسكوبار، خطأ، إصابة في مرماه، كانت سببا في هزيمة منتخب بلاده، وكيف دفع حياته ثمنا لهذا الخطأ حين قُتل بعد عودته إلى بلاده على يد أحد مروجي المخدرات الذي راهن على فوز كولومبيا.

لكن ما سيدهشني أن (نبيل)، ذلك الشاب اللبناني الذي سألقاه على الجانب الآخر من المحيط قد ألقى على عاتقه مهمة تعليم الكولومبيين كرة القدم. ولهذا الأمر حكاية أخرى!!

بدأ الشاعر بقراءة قصيدة ثانية، وسط جمهور أكثر انشراحا أثبتَ وفاءً نادرًا للشعر وهو يصرُّ على المتابعة بشغف، غير عابئ بهذا العرس الذي يصعب فيه حتى الغناء.

عاد الترقُّب ثانية، الترقُّب الذي تكاد تسمع نبضه يرجُّ المكانَ بصمت، وتقدَّم شاعر آخر إلى الميكروفون، صفّق الجمهور له، وقبل أن يُنهي قصيدته الأولى كان منتخبُ المدينة يحققُ هدفه الثاني والعاصفة الخضراء تنفجرُ بقوة

أكثر تعززها أجراس الكنيسة التي أثبتت أن السماء لم تكن أقل حماسًا لما يدور في الملعب البعيد.

لكن الشاعر لم يتوقف.

غرُبت الشمسُ..

وواصل جمهور الشعر تحالفه مع القصائد وتشبثه بالأرضية الحجرية الخشنة التي لا ترحم.

**

وصولنا قبل ساعة ونصف الساعة إلى المكان ساعدَ كثيرًا على التجوّل فيه، وقد كان أول ما أثار انتباهي ذلك الرجل الطويل بلحيته البيضاء وبشرته الفاتحة المنتصب بجلال على حواف عقده السابع، الرجل الذي وقف بمحاذاة المساحة المخصصةِ لجمهور الشعر وراح، وبلا توقف، ودون أن يبدو عليه التّعب، يُطلقُ فقاعات الصابون بإتقان وكثافة تدعو للدهشة في فضاء المكان.

كان له جمهور آخر غير جمهور الشعر وغير جمهور المباراة تمامًا،

كان جمهوره من الأطفال الصغار الذين لا تتجاوز أعمارهم الرابعة أو الخامسة في حدّها الأعلى. وكلما كان عدد الأطفال يتزايد حوله كان يبذل جهدًا أكبر لتغطية احتياجاتهم من الفقاعات التي انطلقوا يتقافزون للإمساك بها، بعيدًا عن أيِّ فوضى، كما لو أن كلا منهم يعرف فقاعته الخاصة بين هذه الفقاعات المتشابهة التي تبزغ فيها ألوان قوس قزح بين حين وآخر وتتلاشى.

الشيء الغريب حقًا، أن ذلك الرجل لم يكن يفعل ما يفعله لقاء أيِّ شيء، فعلى مدى ثلاث ساعات لم يُبْدِ أيَّ حركة تفيد بأنه يتطلع لمكافأة ما من ذوي الأولاد، كما لم يحدث أن امتدتْ يدُ أحدهم إليه بـ (بيزو) واحد.

لكنّه رغم ذلك كان يواصل الأمر بالحماس نفسه وهو يمنح البشر الصغار ما يكفي حاجتهم تمامًا من الفقاعات.

فجأة أطل طفل صغير، مندفعًا، من بين الجموع، بعد أن استطاع الإفلات من قبضتي أمه وأبيه اللذين راحا يراقبانه وهو يبتعد باطمئنان كبير، رغم أن أيّ عثرة له فوق هذا البساط الإسمنتي ستكون غير مأمونة العواقب. حيّرني اطمئنانهما أنا الذي كنت أراقبه متمنيًا ألا أراه مدمى أمامي في أيٍّ لحظة.

دخل اللعبة، ولم يكن قد تبقّى الكثير من الأطفال، قفز في الهواء، لكنه مع ساقين لم تبلغا الثالثة كان من المستحيل أن يصل إلى شيء.

وللحظة، بدا وكأنه يفكِّر في قامة هذا العملاق الذي يطلق هذه البالونات الصغيرة، العملاق الذي، ربما، لا يراه هنالك في الأسفل بحيث يمنحه فقاعة واحدة على الأقل.

تراجع خطوات وهو يراقب الجهة التي تمضي إليها الفقاعات سابحة في الهواء ولامعة ملونة وقد انعكست عليها أضواء الساحة.

والداه يراقبانه، وهو يراقب هذا السحر الطائر وأنا أراقبه، كانت تلك هي الحقيقة، أما ما بدأت الشكَّ فيه فهو أن ذلك الرجل الطويل بلحيته البيضاء لم يكن معنيًا بما يدور حوله، إذ بدا لي أنه لا يطلق هذه الفقاعات إلا ليُطلقها فقط.

هكذا بلا هدف!

هكذا إلى الأبد!

وتذكّرت أنه كان هنا في الساحة قبل وصولنا.

أما الصغير فقد استطاع بعد لحظات أن يُحدد هدفه بدقة:

يراقب الفقاعات فور انطلاقها

يحدد واحدةً منها، دون أن يدعها تغيب عن عينيه

تتجه نحوه، يستعد، تمرُّ من فوق رأسه، يستدير، ثم يندفع خلْفها بثقة لا تساعده على رؤية أو الانتباه لأي شيء تحت قدميه.

بعد عشر خطوات صغيرة يقفُ فاغرًا فمه. لقد تلاشت فقاعته الخاصة وهو ينظر إليها!

يتلفَّتُ حوله، يُحدِّق في الأرض، في المكان الذي يُفترض أن تكون قد سقطت فقاعته فيه: لا شيء!!

يصمتُ أكثر وقد كان صامتا أصلًا؛ ولا يلبث أن يستدير ثانية بخطى لا ينقصها البطء باتجاه صانع الفقاعات.

وكما في المرة الأولى، يقف، يحدق، يحدد، يجري، تتلاشى الفقاعة، يحدق في الأرض، يعود.

كان بودي أن أعرفَ ما يدور في عقل ذلك الرجل الماهر الطويل بلحيته البيضاء، كان بودي أن أعرف ما يريد، ولماذا؟ كان بودي أن أسأله إلى متى؟ لكن الصغير لم يمنحني هذه الفرصة، فقد انتهتْ الأمسية واشتعلتْ الشوارعُ بعاصفة الأعلام الخضراء أكثر وأكثر، في الوقت الذي لم يكن فيه الصغير قد تَعِبَ أو بكى أو بدا عليه أنه تعلَّم شيئًا!!

لقد كان على ثقة تامة بأنه سيحصل عليها: فقاعته الخاصة مهما طال الزمن.

تطايرت الألعاب النارية تضيء السماء أكثر، واندفعت أجراس الكنيسة نحو مستوى آخر أعلى، ورددت الكنائسُ البعيدة معها الإيقاع نفسه.

وتتابع الشعراء على الميكروفون حتى بيت الشعر الأخير.

على الجانب الآخر

أحمر ثوبكِ

أسود شعركِ

دقيق خصركِ

وتأتين راكضةً من نهاية الشارع

للقاء أخضرَ

لم يكن معي

هل باستطاعة الشاعر أن يكتب وهو يتأمل الشجرة، الطفل، المرأة، المشهد، كما يفعل الرسام تمامًا وهو يرسم هذا كله وهو يراه أمامه، في اللحظة ذاتها؟!

هل يمكن أن يكتب وهو يسير، في العتمة في أواخر الليل، في القاعة التي سيقرأ فيها بعد قليل؟

هل يكتب في الإقامة؟ في السفر؟ في المنطقة العازلة بينهما؟

سنوات طويلة مرَّتْ وأنا أظن أنني لن أستطيع الكتابة إلا على طاولتي، وصدَّقتُ ذلك، في الوقت الذي كنت أفعل فيه شيئًا مختلفًا، وحين دخل الكمبيوتر إلى حياتي الروحية! واعتدته، بتُّ على يقين أنني لا أستطيع الكتابة إلا وشاشته أمامي، في الوقت الذي كنتُ أفعل فيه شيئًا مختلفًا.

في الأمسية التي كُرِّسَتْ للشعر العربي في مبنى آخر من مباني جامعة أنتيوغويا كانت القاعة الطويلة مشكَّلة من جناحين، تحتلُّ المنصة المتصف جوار أحد أضلاعها، إنها واحدة من القاعات التي لا أُفضِّل القراءة فيها، إذ من الصعب أن تختارَ ذلك الشخص الذي تقرأ له، من الصعب أن تواصلَ النظر خلال القراءة إلى يمينكَ تارة ويسارك تارة، إذ ليس من المعقول أن تُدير ظهرك لجناح من جناحيها وتعتبر الآخر غير موجود ولو للحظات.

إنها معضلة حقًا.

ثم كيف يمكن أن يستمع الناس لشاعر لا ينظر إليهم؟ أو يقرأ الشاعر والشيء الوحيد الذي أمامه هو ذلك الحائط الخشبي الذي يتحرك أمامه المصورون، رغم ما فيه من جمال عريق؟

لكن الشيء الجميل في مكان كهذا هو رائحة الماضي الذي فيه وذلك الدفء الذي تشعر به في قاعة مكسوَّة بالخشب المعتَّق وتلك الإضاءة الرقيقة التي تمنحك ذلك الإحساس الذي تشعر به في دار للعبادة.

كنتُ لمحتها أثناء صعودنا الدرجات نحو الطبقة الثانية للمبنى حيث توجد القاعة، اقتربتْ بحماس شاقَّةً الحشود الصاعدة ونظرات رجال الأمن اليقظة، رجال الأمن الذين ينبئ حضورهم بأن الأمور تحت السيطرة، رغم كونهم لا يتدخلون بصورة مباشرة في أي شيء.

اقتربتْ مني وقالت بفرح: لقد أتيت!!

عرفتُها. إنها فتاة الجبل التي جاورتها في صعودنا إلى أمسية (كروز).

وكما لو أنها أدركتْ انطباعي الإيجابي الأول حول جمال ساقيها!! جاءت مُفسحةً لهما مساحة أخرى كي تستطيعا قول ما لم تقولاه في ذلك النهار.

الفتاةُ الجميلة

التي أنصتتْ للقصيدة مفتونةً في الجبل

تبعت الشاعرَ راكضة

مُبعثرةً السّفح.
الفتاة الجميلة
كانت تعرف تمامًا:
أن للقصائد أجنحة
تمامًا كالطيور
هكذا كانت تهمس وهي تحدِّق في السماء.
الفتاة الجميلة
كانت تحدق في الشاعر وهي تبتسم:
لكن الإنسان هو الذي كتب القصيدة!
أليس كذلك؟!!
الفتاة الجميلة كانت على حق
الفتاة الجميلة التي لم تكن قد أدركتْ، بعدُ، تمامًا
أنها بساقيها الجميلتين
كان بإمكانها اللحاق بأي قصيدة
حتى وإن لم يكتب عنها الشاعر
قصيدة مثل هذه!!

**

فوق المنصة، كنتُ أنظر إليها وأكتبُ، وقد اختارت الزاوية المقابلة للمنصّة من الصف الأول، ماضيةً بفتنتها إلى ذلك المدى الذي لم يحظ به الجبل!

وها هي تسوي جلستها بحيث تتيح للقصيدة أن ترى ما تحتاجه كي تكتمل:

ذاك الطريُّ المستديرُ

الرابضُ الغافي الخجولُ
كهضْبَةٍ - طفل
وشمسٍ لم تلِدْ بعدُ
الرحيمُ برحنا
ذاك الأليفُ كقطةٍ والمستجيرُ بجمرهِ!!
العالي كنهدةِ مهرةٍ
ذاك الصعودُ المُنْحَنى
ذاك الصغيرُ كجنةٍ
ذاك الرحيبُ ككفِّنا
ذاك الضعيفُ المطمئنُّ
وإنْ علا طوفانُنا
ذاك الفريدُ بصمتهِ.. بكلامهِ
الأنْدى، الألذُّ
المستعينُ بنارِنا
كي يطفئَ النيرانَ فيهِ!!
له اسمهُ.. وسماؤهُ
ونعيمهُ.. وجحيمهُ
وحلالهُ.. وحرامهُ
وحلالُنا.. وحرامُنا!!

**

كنت اخترتُ مع جون سوسا قصيدة لم يسبق لي أن قرأتها ترجمها لـويس ميغيل كانادا عنوانها (صباحا على باب فدريكو غارسـيا لوركـا) ومجموعـة أخرى من القصائد القصيرة. كـان البرنـامج يـشير إلى أن قـراءتي سـتكون

الأخيرة، لكن الشاعرة جمانة حداد التي تبدو دائمًا أشبه بفراشة على صدر قصيدة طلبتْ أن تقرأ في النهاية، هززتُ لها رأسي موافقًا، وقد بتُّ مشغولًا بأمر آخر بدا كما لو أنه وضع ستارا بيني وبين تلك الفتاة التي استطاعت بهالة حضورها أن تمحو كل أولئك الذين جلسوا إلى جوارها في الصف الأول.

على الجانب الآخر، رأيتها فجأة، بعينيها الفارغتين، بجانب والدها الفقير، طفلة صغيرة لم تتجاوز الثانية عشرة، كانت عمياء إلى ذلك الحد الذي تظن معه أن الشيطان نفسه هو من قام باقتلاع عينيها، كانت تُحدِّق في الصوت مباشرة، تحدق في القصائد رؤيا لرؤيا. وللحظة، بدا لي أنها الوحيدة التي ترانا كما لم يرنا أحد من قبل، الوحيدة التي تستمع إلينا كما لم يستمع أحد.

قلت: لقد وجدت القصيدةُ ذلك الإنسان الذي سيستمع إليها، والشاعر من يقرأ له.

في الأمسيات السابقة، لم يحدث أمر كهذا، ففي مسرح الجامعة نفسها، في الجانب الآخر للمدينة كانت الأضواء تضيء المسرح الذي جلس عليه الشعراء تاركة القاعة معتمة، وفي أمسية الشارع كانت القراءة للمفاجأةِ المتمثِّلة في أمسية تقام في الشارع! وفي كروز لم يكن باستطاعتي أن أصطفي من بين هؤلاء المعذبين واحدا، وهم يتحركون في الساحة، حول الطاولة أشبه بأطياف مرهقة.

أما هنا، فقد كان الأمر مختلفًا.

تلاشت الأصواتُ القادمة من الخارج التي كنتُ أظنُّها تعكِّرُ الجو، القصائدَ التي تتلى وذلك الإحساسَ المربكَ الذي تولَّدَ لدى دخولي قاعةً موزعةً بالتساوي إلى قسمين، تلاشت الوجوه إلاّ وجهها.

الفتاة الصغيرة

جلست تستمع للقصائد بلا عينين

تُقْفل جفنيها أحيانًا

وأحيانا تُشرعهما

لكن الشيء الذي لن نعرفه

هل كانت ترى الكلمات

أم الطيورَ المحلِّقَةَ في سماء القصائد؟

أم تحاولُ الإمساك بذلك الذي حَلُمَ به الشعراء منذ الأزل

ولم يستطيعوا الإمساك به

رغم أعينهم المشرعة؟!

**

طويت الورقة، وضعتُها في جيبي، ونهضتُ باتجاه الميكرفون. كان جون سوسا قد اتخذ مكانه بصمته الجليل بجانبي، في الوقت الذي أحسستُ فيه بارتفاع حرارة جسدي وبشيء ما يشبه الرَّهبة ينبض في أطراف روحي.

لقد التقت المساحةُ المشتعلة للكتابة مع ذلك الحس العميق الغامض للحظة القراءة على نحو لم أعرفه من قبل.

كنت أراها وحدها، رغم ما أبذله من جهد لكي أبدو بأنني أقرأ للجميع.

أرى وجهها، حفرتي عينيها، وصراعي مع الشيطان نفسه

الشيطان الذي بلغ أعلى مراتب الشرِّ حينما امتدتْ يداه لتخطفا النور من أضعف المخلوقات وأرقّها.

لن أستطيع القول إنني كنت أدرك ما يدور حولي تماما.

كنت أشبه ما أكون بإنسان غارق في (كوما) متقطِّعة، أو خارج من غرفة للعمليات، أو إنسان لم يدرك، بعد، إن كان ما زال على قيد الحياة أو أنه مات حينما طوَّحَتْ به قذيفةٌ للسماء.

إنها واحدة من حالات انعدام الوزن اليقيني.

وللحظة بدا الأمر لي بأنني لستُ هنا، وأن صوتي يهبُّ من بعيد، يعبرني، ويبتعد أكثر، فأراقبه وكأنه يُرى إلى أن يختفي تمامًا في ظلمة تلكما العينين المشرعتين.

حينما انتهت الأمسية، رأيتها تتقدَّم نحوي ممسكةً بيد أبيها، يا للهول، لعلها تعرفُ ما يدور فيَّ. وقفتْ أمامي، تحدِّقُ بي، كما لو أنها تعرف تمامًا ارتفاع قامتي. قال لها والدها شيئًا بالاسبانية، لم أفهمه، مدَّتْ يدها وراحت تشدُّ على يدي وتشد، كما لو أن الأمر سيستمر للأبد. لكن والدها قال كلمات أخرى وأشار إلى يمينه، تلفتُّ، يا للهول، كان ثمة فتى آخر بعينين فارغتين تمامًا مثلها، كان أخوها هناك.

كان الأمر صاعقا بالنسبة لي: كيف لم أره؟

ورحت أشد على يده.

**

أمام البوابة الخارجية رأيتها، لقد حضرتْ الأمسية إذن، تلك الشاعرة العجوز التي تنحدر من أصول عربية.

على كرسيّها المتحرك قرب الباب الخارجي كانت تنتظرنا لتشدّ على أيدي الشعراء والشاعرات العرب المشاركين. لم تترك فرصة رؤيتنا مجتمعين تفلتُ من بين يديها، فَرِحَةً كانت وفخورة، وما كان لها إلا أن تكون كذلك!! فقد كان مستوى الأمسية من أفضل ما يكون، وفيها أثبت الشعر العربي، كما تبين لي دائما، بأنه على مستوى رائع إذا ما قورن بأي شعر آخر يكتب في أي مكان على هذا الكوكب الصغير.

منذ يومين رأيتها تقرأ بالاسبانية، بروح وثّابة وجسد تحول إلى شيء آخر لا علاقة لها ببرودة كرسيها المتحرك. أحببتها:

الشاعرة العجوز .

الشاعرة التي كتبتْ كلَّ تلك القصائد

التي قرأتْ كما لو أنها تولَد الآن
وحَلُمَتْ كما لو أنها تنام للمرة الأولى
كانت القصائد تتدفق من دفترها راكضةً
وكل ما تفعله أن تطلق تنهيدة مكتومةً إثر أخرى
وهي تراها تبتعد
مخلّفةً جسدها في الكرسي ذي العجلات
قصيدةً - طفلةً تحلُم بالطيران

ضد الحرب

النجمة التي أضاءت السماء
بضوئها كانت تشير لما يشبهها على الأرض:
ابتسامة الطفل
وقلب الشاعر

ذاتَ ليلة وجدتُ نفسي في الفندق، جنبا إلى جنب، مع الشاعر الأمريكي سام هاميل، حين دخلت فوجدته وحده يحتسي الجعة.

كنا قرأنا في أمسية الشارع الشهيرة تلك، لكـنَّ الفرصـة لم تكـن مواتيـة لتعارف حقيقي، مجرد تحية عادية يتبادلها البشر سريعًا كما لو أنهم لـن يلتقـوا بعد ذلك.

لقد تبيَّنَ لي دائمًا أن ما يحتاجه الناس هو فرصة جيدة للقاء جيـد، وعـدم وجود هذه الفرصة هو وحده الذي يَحُوْل بيـنهم وبـين أن يكونـوا أصـدقاء فعلًا أو عابرين فعلًا.

أن يمضي المرء نحو فرصته بلا خوف، تلك هي الجرأة.
وفي القطارات والسفر الطويل دائمًا هناك عِبْرَة:
يجلس اثنان متجاورين، أو متقابلين

يُلقي أحدهما التحيّة فيرد الآخر عليها بأبرد منها!

يمضي الأول الساعات الثلاث، مثلا، في التحديق عبر النافذة

ناسيا أن الحياة بجواره

يفتح الآخر كتابه ويقرأ حول ذلك الرَّجل الذي التقى فتاةً في قطار ويبكي من فرط تأثره، يتنهّد، يرفع رأسه ويهمس لنفسه: لم توافيني فرصة كهذه، بعدُ، أنا الذي لا يغادر القطار إلا للبيت

ويعود للكتاب ثانية

ناسيا أن المرأة التي تجلس إلى جانبه تبكي للسبب نفسه!!

تنتهي الرحلة:

المرأة تمضي لكتاب جديد

الرجل يمضي لكتاب جديد

والآخر يمضي لتأمل صورة فوتوغرافية رائعة التقطها أحد المصورين من نافذة قطار.

... ...

هكذا تواصل الحياة تدفّقها المريض.

وقد يحدث العكس تماما، فإذا بقصة الحب، أو الصداقة، تغادرُ الصفحات وتهبط القطار لتتجول في الشوارع ولتجعل الكتب أكثر اتِّساعًا والعالم أيضًا

دائما أردد:

ليست قوقعة السلحفاة هي الأصلب،

ولا قوقعة المحار،

ولا قوقعة المُدَرَّع الذي يمضي في الأرض واثقًا

مثل خُلْدٍ لا تعني زرقةُ السماء له شيئا.

كلها تسير على طريقتها وتنام على طريقتها،

وتحلم.

لكن الإنسان يرتدي درعه ويسير مشدودًا كما لو أنه نفسه قد تحوَّل إلى لغم سيصطدم بلغم آخر في أيّ لحظة.

هل رأيت؟!!

لقد احتك هنالك كتفان في الشارع المزدحم

أترى؟

لقد اندلعتْ مشاجرة

هل باتت الحضارات، أو الهمجيات، تُقلِّده

**

سام هاميل يقف على الطرف الآخر من هذه النهايات الحزينة، إنسان صلب، مقاتل، وشاعر رقيق تفتنه الحكمة الآسيوية وشعر الهايكو العظيم وأشعار الصين، إنسان قريب من العالم المحيط به، أنيس على نحو استثنائي، لأنه قريب من نفسه. وهو إلى ذلك أثبت للمثقفين في كل أنحاء العالم، في مرحلة انعدام الوزن التي يعانون منها، أن رجلا واحدا يستطيع أن يُحدثَ فَرْقًا.

سام هاميل أحدث ذلك الفَرْق الكبير حين ألقى حَجَره في ماء السياسة الأمريكية العكرة برفضه تلبية دعوة (لورا بوش) السيدة الأولى التي وجَّهتْها لعدد من الشعراء الأمريكيين، في أوج تحضيرات الحرب على العراق، للمشاركة في مهرجان شعري عنوانه (الشعر والصوت الأمريكي) الذي يقام في الثاني عشر من شهر شباط من كل عام داخل البيت الأبيض.

لم يكن رفض سام هاميل تلبية الدعوة كافيًا بالنسبة له، بل ذهب إلى أبعد من هذا حين وجَّه عددًا من الرسائل لأصدقائه الشعراء في أمريكا داعيا إياهم لكتابة قصائد ضد اجتياح العراق.

وبوقوف خمسين شاعرًا إلى جانبه، استطاع هاميل أن يشكل حركة (شعراء ضد الحرب)، مستعيدًا بذلك أصداء الحركة التي أشعلتْ ستينيات القرن الماضي ضد مذابح أمريكا في فيتنام.

(من أجل أن تتكلموا بضمير بلادنا وتوقِّعوا بأسمائكم على وثيقة ضد الحرب، اكتبوا قصائد تشجب العنف وتندد بالحرب كي نضمّها في (انطولوجيا الاحتجاج **Anthology of Protest**).

لقد كُتِبَ الكثير حول هذه الحركة في الصحافة العالمية، ولعلّها أقوى وأهم جبهة ثقافية في التاريخ ضد العدوان والحرب، إذ ظلّتْ هذه الحركة تتسع ليصل عدد المشاركين فيها من الشعراء إلى عدة آلاف ولتُكتب خلالها عشرات الآلاف من القصائد.

لم يكن هاميل يظنُّ أن حركته ستتسع بهذا الشكل، لكن حسَّ القهر في العالم قد بلغ مداه أمام هذه القوة الوحيدة التي أشرعت كتابها (كتاب الدم) وراحت تنزله في الأرض التي تشاء على الشعب الذي تشاء في الزمن الذي تشاء.

في غضون أيام قليلة كان قد انضمَّ إلى هذه الحملة أكثر من ألف وخمسمائة شاعر، وكان هاميل يعمل على تقديم هذه الانطولوجيا في يوم الشعر هديَّة للسيدة الأولى.

لقد أُلغي مهرجان السيدة، لكن سام هاميل استطاع أن يطبع أكبر انطولوجيا من نوعها ضد الحرب، وتحوَّلت حركته إلى بحيرة تصبُّ في داخلها كل أنهار الشعراء الذين أعلنوا وقوفهم إلى جانبه من كل أنحاء العالم، بحيث لم تعد الكتب قادرة على استيعاب هذا التسونامي الطيِّب الذي ضربَ البيت الأبيض وعقيدة الدم والتسلط التي يؤمن بها.

كان سام هاميل قد تحوَّلَ إلى رمز كبير لكل شعراء العالم، حين لم يكتف بدور الشاعر الكبير وحسب، الشاعر الذي يقبلُ بمكانته راضيًا، وحريصًا على بقائها بعيدًا عن ملوثات السياسة وألاعيبها!!

**

أمضينا تلك الليلة في أحاديث طويلة، متشعِّبة، لكنها تـصبُّ في الإطـار ذاته، وأخبرته أنني زرتُ أمريكا.

- متى؟ سألني كما لو أن تلك الزيارة تمَّتْ منذ زمن قريب.

- قبل خمسة عشر عاما؟ قلتُ.

- وهل بقيتَ طويلا؟

- ثلاثة أشهر تقريبًا.

- وما الذي فعلته في ثلاثة أشهر؟

- قرأت شعري في خمس وعشرين مدينة أمريكية؟

وحدثته عن تلك الرحلة.

**

كنا وصلنا إلى نيويورك في الرابع عشر من شهر تموز بعد يومين في روما، وفي يد كل منا تذاكر لا أظن أن أحدًا حمل ذات يوم هذا العدد منهـا. كانـت أشبه ما تكون بمجلد ضخم.

كل شيء أُعدَّ تماما في تلك الرحلة التـي تـم تنظيمهـا لـدعم الانتفاضـة الفلسطينية الأولى، من قبل مجموعة الشباب النشطاء هناك.

كانت (فرقة بلدنا) قد غدت واحدة مـن أهـمِّ الفـرق الوطنيـة، وباتـتْ تجربتي معها واحدة من أهم تجارب الشعر مع الأغنية، وقـد أدركـتُ أهميـة هذا الغناء حينما سمعتُهم يقدمون أغنية هي الأولى من أشعاري:

علِّمونا كيف نصنع

من ظلام الليل شعلةْ

علمونا كيف نجني

من جراح القلب فـُلّة

علمونا كيف يغدو قلبنا للأرض أزهارا

وفوق الجرح قُبْلة.

كانت واحدة من القصائد التي ضمّها ديوان (جسدي كان الغربال) وقد كتبتُها حين كنت في السعودية، وفي نهاية السبعينات اكتشف (وضّاح زَقَطان) ذات ليلة مصادفة أن القطعة الموسيقية التي ألَّفَها منذ زمن طويل وتعزفها الفرقة بين حين وآخر هي اللحن المثالي لهذه القصيدة.

بهذه الطريقة العجيبة وجدَتْ (علِّمونا) القصيدة، جسدها في اللحن وغدتْ منذ تلك اللحظة نشيد الفرقة.

في مخيم الوحدات، استمعتُ للأغنية مع مئات الناس، وفور انتهاء الفرقة من غنائها طالب الجمهور بإعادتها ثانية وسط حماس لا مثيل له.

ولعل أبناء أولئك الشباب الصغار الذين كانوا يستمعون لها في تلك الأمسية، كانوا هم من يرددونها، قبل شهور، بعد ستة وعشرين عاما بالحماس نفسه ويرقصون على أنغامها والفرقة تختتم أمسية غنائية مشتركة أقمتها وإياها في ذكرى استشهاد فنان الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي.

**

في أمسية أخرى مشتركة لا تقل تأثيرا، في الثمانينات، أقيمت في مخيم البقعة للاجئين الفلسطينيين، وبسبب حركة تهدف لوقْف الأمسية، كما تبين لاحقًا، تمَّ قَطْعُ التيار الكهربائي عن القاعة، فأطبقتْ العتمة على الجميع، لكن الأمسية ما لبثت أن استمرتْ بصورة عبقرية حين وقف ذلك الشخص الذي لا نعرفه من بين الحضور، ولن نعرفه فيما بعد، وأضاء ولاّعته وراح يُغني وحده وسط الصمت:

علِّمونا كيف نصنع
من ظلام الليل شعلة
علمونا كيف نجني
من جراح القلب فلة

فإذا بكل من في القاعة يُنشدون معه، وإذا بالضوء يعود ساطعًا وبهيا كما لم أره من قبل وقد أشعل كل من يستطيع ولاعة أو عود ثقاب.

إنه واحد من المشاهد الجليلة حقا، المشاهد التي يحقّ للمرء أن يقول بزهو: إنني عشتها.

**

باتت الفرقة في الثمانينات مرتبطة بي كما أنا مرتبط بها، وقد كان حصاد ذلك أكثر من خمس وأربعين أغنية كتبتُها خصيصًا لها أو اخترتها من قصائدي المنشورة، وباتت أغنياتنا معروفة ومنتشرة إلى ذلك الحد الذي سمعتُ فيه أمي وأخواتي يرددنَ أغنيات كتبتُها أنا، في عرس أخ لي، دون أن يعرفن أنني من كتبَ تلك الأغنيات!!

هذه الأغنيات التي تحوّلت إلى جزء صميم من تراث شعبي قد لا يخطر ببال المرء أن يسأل عن اسم كاتبه.

ورغم أن الفرقة لم تحظ بأيّ ظهور تلفزيوني أو إذاعي، أو حتى فرصة تسجيل أغنياتها في استديو إلا في التسعينات، وفي ظل ظروف مالية صعبة للغاية، إلا أن ذلك لم يحُلْ دون وصولها للناس.

لكن مشكلة الفرقة التي لم يدركها أحد هي أن أعضاءها بشر ولهم الحق في الحياة، وأن لهم ولأولادهم حاجات يومية. ولذا حين فكرت الفرقة بأن تكون هنالك تذاكر رمزية لحضور حفلاتها، تعامل كثيرون معها وكأنها تريد أن تجمع ثروة من (أغنيات الثورة)، في الوقت الذي كان يدفع أيّ شخص من هؤلاء لسيارة التاكسي التي تقله للقاعة ما يفوق سعر التذكرة.

رحلة أمريكا كانت بمثابة أول اعتراف كبير بدور الفرقة، التي لم تنل في أيّ يوم قرشًا واحدًا عما قدمته، وفي أفضل الحالات كان يتم تأمين مبلغ كاف أو نصف كاف لاستئجار تجهيزات الصوت، وما ينطبق عليها كان

ينطبق على كاتب الأغنيات أيضًا إذ لم يحدث أن نال فلسا واحدا مقابل أغنياته التي كتبها، بل إنه اشترى نسخة من شريط التسجيل الأول الذي يضمُّ سبعًا من قصائده وأغنياته، وهي كل أغاني الشريط، كما اشترى أي شخص هذا الشريط، في محاولة لكي نقول للجميع (هكذا سندعم الفرقة). إلا أن الأمور راحت تسوء أكثر فأكثر، وفي الوقت الذي تمَّ فيه زجّ كمال خليل (رئيس الفرقة ومُلحِّنها ومغنيها) في السجن، كان عليَّ أن أبتكر طريقة جديدة لإيصال الأغنيات إليه رغم الحراسات المشددة التي تمنع وصول أي ورقة.

زرته، وسألته عن الكيفية التي يعرف بها أخبار الخارج، قال: الصحف؟

- وأيُّ الصحف تلك التي يُسمح بها؟

عدد لي أسماءها.

وعندها لمعت تلك الفكرة البسيطة، سأنشرها في الصحيفة، وأنتَ تلحِّنها هنا، ويأتي (نُعمان) شقيق (كمال) ويحفظ اللحن خلال الزيارة، تتدربُ الفرقة عليها وتُغنّيها، وهذا ما كان.

ورغم أنه لم يكن قد سبق لي أن نشرتُ أغنيات بالعامية في الصحف أبدًا، إلا أنني تجاوزت الأمر.

الوطن من لون الناس

والسجن لون الحُرّاس

كتبتها، نشرتها، لحنها كمال، حفظ نعمان اللحن يوم الزيارة، وغنتها الفرقة فيما بعد.

**

إنها الرحلة الأطول!!

حيث تنقَّلنا من نيويورك إلى سان فرانسيسكو ومن ديترويت حتى تامبا على خليج المكسيك، مرورا بواشنطن، بوسطن، لوس أنجلوس، شيكاغو،

دالاس، سكرمنتو، لاس فيجاس وحين وصلنا إلى (أورنج كاونتي) سمعنا ذلك الخبر الزلزال (دخول الجيش العراقي للكويت).

الأسابيع التالية كانت مشهدًا واسعا لرؤية نُذر الحرب على العراق واستعدادات أمريكا للتدخُّل، وحينما وصلنا عمّان عائدين، كانت طلائع القوات الأمريكية قد سبقتنا للمنطقة. لكن ذلك لم يقلل من أثر الرحلة ولا من الانطباع الذي تركته لدينا جميعا والمتمثّل في أننا قادرون على أن نعطي وأن نُحْدِثَ فَرْقًا، فقد وصلت حصيلةُ الجولة، كما علمتُ فيما بعد، إلى حوالي مليون ونصف المليون دولار لصالح الانتفاضة، تبرعات وأثمان تذاكر، وقد كان منظمو الرحلة رائعين بحيث تذكروا أننا جميعا تركنا أُسَرَنا وراءنا وأن كلا منا جاء في إجازة غير مدفوعة الراتب، فسألونا عن رواتبنا التي نتقاضاها ودفعوا لنا المبلغ نفسه.

**

في أمريكا أقيمتْ أمسيات نادرة، ففي واشنطن كان عدد الحضور في القاعة الكبرى لذلك الفندق الضخم أكثر من ألفين وخمسمائة شخص، كثيرون لا يعرفون العربية أبدا، لكنهم رقصوا على أنغام الفرقة واستمعوا بإصغاء عميق للقصائد، وكثير منهم جاؤوا يعانقوننا بعد الأمسية دون أن يفهموا أيّ كلمة.

في تلك الرحلة اكتشفتُ لأول مرة جمال إيقاع الشعر العربي وأثره في الناس، وسأتأكد من ذلك أكثر فيما بعد في إيطاليا، فرنسا، ايرلندا وغيرها كما أتأكد الآن في كولومبيا.

**

حدَّثْتُ سام هاميل عن قصيدتي (فضيحة الثعلب) ووعدته بأن أرسلها إليه بعد عودتي لعمّان. .

- قصيدة عن أمريكا؟ سألني.

- نعم. وشرحت له ظروف كتابتها.

**

كنت قد قررتُ أنني لن أكتبَ عن أمريكا!! لا لشيء إلا لأن كل شاعر يذهب إلى هناك يكتبُ عنها، ولذلك رحت أقاوم رغبتي في الكتابة يوما بعد يوم لأكثر من خمسة أشهر، وذات فجر، في الرابعة صباحًا وجدتُ نفسي أنهض من سريري وأتَّجه إلى طاولتي، حتى قبل أن أتذكر أنني قررت ألا أكتب عن أمريكا!! ورحتُ أكتب وأكتب القصيدةَ النثرية الأطول التي كتبتها حتى الآن.

لم أغادر الطاولة إلاّ منتصف النهار، كنتُ قد أُرْهِقْتُ تمامًا، فعدت للنوم، وفي اليوم التالي واصلتُ العمل عليها:

U.S.A

ها هي صورتُكِ المنقوشَةُ على بقايا الأرض
وملامحُكِ النافرةُ فيما تَبقّى من فضاء
لا تُشبهينَ الشمسَ المعلّقةَ خلفَكِ في الصّور
ولا النوافذَ المضيئةَ عبر الجدران

...

...

أيها الجندي
أيها العمر الأخضر المرهونُ للجنرالات
من علّمَكَ أن كعبَ البندقيةِ
أرقُّ من خصرِ حبيبتك
من علّمكَ أن القنبلةَ أجملُ من الوردة
والرصاصةَ أكثرُ زهوًا من البرعم
الرحلةُ طويلةٌ أيها الجندي ...

يقولونَ لك
ولكن عددَ القتلى الذي يُمكنُ أن تحظى به هناك
يستحقُّ المغامرة !
يقولونَ لك : تَقدمْ
كما لو انكَ انتصرتَ في فيتنام
فأمامكَ إبلٌ لا تعرفُ الثورة!!
وبَدْوٌ لا يحبّونَ الحرية!!

كانت فضيحة الثعلب هي الكتاب الرابع لي الذي يكتبه السفر بعد (براري الحمى) و (الأمواج البرية) و (مجرد 2 فقط).

**

حين عدتُ لعمّان من كولومبيا وجدتُ القصيدة قد نُشرتْ في أمريكا، ضمن انطولوجيا ضد الحرب. كانت ترجمة الدكتورة (أُمنية أمين) بمشاركة الشاعر الأمريكي (ريك لندن) رائعة، لكن القصيدة لم تُنشر إلا بعد مرحلة من المفاوضات التي قادتْها الدكتورة أمنية بشجاعة أحببتها، رغم أنني لم أعرف بها إلا فيما بعد:

فحينما قام المشرفون على الموسوعة بقراءة المقطعين الأول والثاني من القصيدة طلبوا أن تُترجَم كلّها، لكنهم اكتشفوا أنها طويلة جدا، فطلبوا نشر جزء منها، لكن (أمنية) وبجدعنة أهل مصر المعروفة قالت: كلّها وإلا فلا!!

- بعد أيام نخبرك بقرارنا. قالوا لها.

وبعد أيام اتصلوا: سننشرها كلها. سنُخصص لها قسمًا خاصًا في نهاية الانطولوجيا، لأن نشرها في البداية أو المنتصف سيُربك النصوص بسبب طولها. وهذا ما كان.

**

لا أظن أن أحدا كتب عنها في العالم العربي، ولن يكتب، ما كتبه لي سام هاميل بعد أن أرسلتها إليه، لقد فُتن بها، إلى ذلك الحد الذي وعد أن يجعلها معروفة في أمريكا كلها.

وكتبَ لأمنية بأنه مستعد لطباعة مجموعة شعرية لي فورا، وهو صاحب دار نشر شهيرة متخصصة بنشر الشعر منذ خمسة وثلاثين عاما، كما أنه محرر مجلة (الشعر الأمريكي الحديث).

الآن أتبادل الرسائل باستمرار مع هاميل، ونُعد العدة مع الدكتورة أمنية أمين لمشروع كبير (انطولوجيا للشعر العربي ضد الحرب)، وأنا أحس بأن لقائي به في مدايين كان واحدا من أهم اللقاءات التي جمعتني بالبشر في حياتي.

**

(فضيحة الثعلب).. كم كنتُ مخطئا حينما اتخذت ذلك القرار بأنني لن أكتبكِ!! لقد كنتِ على حق حينما ولدتِ رغمًا عني، كما لو أنكِ تعرفين أكثر مني ما الذي ينتظرني هناك في المستقبل.

كم كنتِ على حق حينما مَضيتِ إلى الطاولة وكتبتِني.

صباح جميل

كل شيء هادئ في الفجر:
قاعة الانتظار، رائحة القهوة،
السيدة التي أدركتْ أنها لن تتأخر كثيرا
إذا ما عانقت زوجها قبل السفر.
كل شيء هادئ في الفجر:
الغابة، أجهزة الهاتف، أبراج البثِّ
والرجل الذي سيفتقدُ، بعد أقلّ من ساعة، كلَّ هذا الهدوء!!
كل شيء هادئ في الفجر:
الشجرة، سطح البحيرة، حقل قصب السُّكر،
النافذة التي تنتظر الشمس
والغيوم الشاسعة التي حوّلت كل هذا الهدوء إلى قطن.

أن يحظى المرء بنافذة طائرة في صباح كهذا، أن يراقب الحياة تتفتّح والخضرة وهي تضيء، البحيرات المظلمة وهي تنهض من نومها، الأنهار، وقد عادت لشقاوتها تجري! الغابات وهي تتنفس مطلقة من رئتيها العظيمتين كل هذا الضباب.

أن يراقب هذا السّلام، أن يستنشقه، أن يُحلِّقَ فيه.
أن يتحللَ من جسده، أن يتحوّل إلى ريشة بيضاء
أن ينعم بهذا كله على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم..
تلك أسباب تكفي لأن يتشبث بالأرض أكثر!

**

في الخامسة صباحا تجمَّعْنا في بهو الفندق، المطر الصباحي ناعم، المطر الذي غالبا ما يهطل في الليل، نراقبه من الباب المعدني الكبير للفندق، من الباب الفولاذي الشّبكي الذي يشبه أبواب المحلات التجارية، الباب الذي يُغلق كل ليلة ويفتح صباحًا لضرورات الأمن والأمان.

بعد قليل وقفتْ الحافلة الملوّنة أمام الفندق، انشغل أحد الموظفين بمعالجة الأقفال، في الوقت الذي كنتُ أفكر فيه في الطريق إلى المطار، الطريق التي عليّ أن أعبرها مرة ثانية، وثالثة ورابعة، الطريق المتعرجة المخيفة.

البرنامج الذي وضِعَ بدقة لم ينس المدن الأخرى، إذ كان على الشعراء أن يسافروا بالطائرات شمالا وجنوبا وشرقًا وغربًا لإقامة أمسيات شعرية هناك، وقضاء ليلة واحدة في هذه المدن، قبل العودة ثانية إلى مدايين. ومثلهم، كان علينا أن نسافر إلى (كالي) بالطائرة للقراءة في مدينة بونافينتورا.

المفاجأة الأولى التي حدثت أن هناك طريقًا آخر للمطار، طريقًا واسعًا، سهلا، لا يمتُّ لذلك الذي عبرته كما لو أنني كنتُ أمتطي حصانا جامحًا لم يعرف السَّرج من قبل، وكان هذا بحد ذاته أمرًا يساعد المرء على بدء يومه بالهدوء الذي يتمناه.

أما المفاجأة الثانية فقد كانت بانتظارنا حين وصلنا مطار (كالي) بعد ساعة من التحليق؛ فالمدينة التي سنقرأ فيها، ليستْ في ضواحيها كما كنا نظنّ، بل على بعد ثلاث ساعات بالسيارة!

في محاولة لملء هذا الفراغ القادم، سألته: متى أصدرتَ ديوانك الأول؟

حدَّق بي، كما لو أنني شتمته، عبَّ نَفَسًا مرعبًا من سيجارته، كاد لعمقه أن ينهيها، نفخ الهواء الأسود الذي فاحت رائحته معكِّرة نسيم الساعة الثامنة، اتكأ بيده اليسرى على ظهر السيارة، ثم أجاب: من زمان.

- وهل أصدرت بعده الكثير؟
- لا. فأنا أكره الشِّعر!
- تكره الشعر؟!!
- نعم أكرهه، ولذلك لا أكتب كثيرًا.

لم أعرف إن كان يقصد فعلا ما يقوله أم أنه لا يريد المُضيَّ في أي حوار، ولكن الإجابة استفزتني.

- ولكنك تقرأ الشعر، أعني شعر غيرك.
- لا، أنا لا أقرأ الشعر أبدًا، لقد قلتُ لك إنني أكرهه.
- ولكنك تودُّ أن يحبَّ الناس ما تقرأه من شعرك، وها نحن نمضي لمدينة تبعد ثلاث ساعات من هنا لهذا السبب.

عبَّ نفَسًا آخر من السيجارة، كان كفيلا بأن يجعل جمرها يلفح إصبعيه، وبدا لي أنه قادر على نفث الدّخان والتحدُّث في آن: ذلك لا يعنيني!

فجأة أحسستُ أن كلَّ ذلك السلام الذي سكنني قد تلاشى، وأنني أتمنى العودة إلى هناك، إلى تلك النافذة المُحلِّقة على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم.

- أفهم أن يكره الإنسان مهنته، لكنني لا أستطيع أن أفهمَ كيف يمكنه أن يكره قلبه. قلتُ له ذلك، كما لو أنني أريد أن أنهي أي فرصة للحوار قد تلوح في رحلة طويلة كهذه.

**

في الطريق الطويل إلى بونافينتورا باستطاعتك أن تتنفس رائحة الخوف، فبعد أقلَّ من نصف ساعة تنعطف السيارة نحو الطريق الجبلي الضيّق الصاعد. الغابات العظيمة ترتفع على جانبي الطريق بشكل عمودي، بحيث يتحول الطريق إلى ممر بين سدّين من خُضرة متوحّشة متشابكة من الصعب أن تعثر على أي فسحة فيها، ثم يعود المشهد لينبسط ثانية كاشفا عن جمال لا مثيل له، جمال ممتد إلى ما لا نهاية.

بعد قليل ستبدأ دوريات الجيش الرَّاجلة بالظهور، ويمكن للمرء أن يتوقع ذلك الحديث الصاخب الذي يدور بين ثلاثة جنود مسلحين تماما مع فتاة سوداء بفستان أحمر قصير على بعد عشرة أمتار من كوخ متعب.

الغسيل بألوانه الكثيرة مُعَلّق على حبال واهية، أو منشور مباشرة على الأرض. ودائما هناك الكثير من الكلاب التي تلوح بأذنابها دون سبب.

في وادي (كاوكا)

بين جبال كريس ابيرياتارس

الكلب في الظل

و(ساموروس) - الصقر الأسود الضخم، في الأعلى

وبينهما

ليس هناك أحد!!

كان يمكن أن يكون وجود الجيش عاملا مطمئنًا، لكن الشيء الذي كان يجعلني أكثر اطمئنانا هو وجود السائق الكولومبي وذلك الشاعر الفنزويلي الرائع (وليام أوسانا).

حين انبثق أمامنا فجأة ذلك الحاجز العسكريّ الطائر وأشار الجندي لنا أن نوقفَ السيارة خارج الشارع المُعَبَّد، بدأت أولى تجاربنا مع الجيش، ولم تكن لدينا أمنية أكبر من أن يُحدِّقوا في جوازات السفر ويسمحوا لنا بمواصلة السير حينما أشرعَ صاحبُنا الذي يكره الشِّعر باب السيارة وغادرها تتبعه زوجته الشابة ذات الشعر الذهبي الفاقع المضيء، وقبل أن ندرك السبب، أشعل سيجارة، عبَّ منها نفسًا عميقًا ثم ناولها لزوجته التي عبَّتْ نفسًا أعمق وأعادتها إليه وسط دهشتنا ودهشة الجنود الذين راحوا يراقبون المشهد باستغراب لا يَخفى. وفي الوقت الذي كنا ثلاثتنا: السائق وأوسانا وأنا نترقب بقلق إشارة الجنود لنا لمواصلة الرحلة، بدأ الجنود أنفسهم ينتظرون انتهاء حفلة التدخين غير المتوقّعة هذه باستغراب، دون أن تفارق أعينهم السيجارة التي تتنقَّل بهوس بين الأصابع الغليظة للزوج والأصابع الدقيقة للزوجة.

لم أرَ نَهَمًا من قبل يشبه هذا.

وحين اندسَّتْ الزوجة في المنتصف، كان الزوج يحاول التقاط آخر أنفاس السيجارة وقد أصبح نصفه داخل العربة ونصفه الآخر خارجها.

عبَّ النَّفس الأخير وسحق السيجارة بقدمه، السيجارة التي لم يبق فيها، أصلا، ما يُسحق.

بعد أقلّ من ثلث ساعة سيتكرر المشهد تمامًا، ولكن بصورة أكثر فجاجة، لأن سيارتنا كانت تقف في ممر ضيق للتفتيش لا يتّسِعُ سوى لها.

خلفنا العربات تنتظر، وعلى الرصيف الذي لا يتجاوز عرضه نصف متر كانت حفلة التدخين بإيقاعها السريع تبدأ بتلذّذ غير عادي.

لم يكن الجنود قد طلبوا منا مغادرة السيارة، لأن الأمرَ لا يحتمل ذلك، ولذا بدا غضبهم واضحا.أمام هذا الاستهتار المكشوف بهم وبدورهم وبتلك العربات التي راحتْ تُطْلِقُ أبواقَها بخجل لا ينقصه الخوف.

وحين اندسَّتْ الزوجة في المنتصف، كان الزوج يحاول التقاط آخر أنفاس السيجارة وقد أصبح نصفه داخل العربة ونصفه الآخر خارجها.

عب النَّفس الأخير وسحق السيجارة بقدمه، السيجارة التي لم يبق فيها، أصلا، ما يُسحق.

مع اقترابنا من المدينة، كنا نلاحظ تلك الأحياء الفقيرة التي تتسلق الجبال على طرفي الشارع تتزايد وكذلك حركة المرور:

الأدراج الملوّنة تصعدُ

لبيوت بلا لون، لحياة بلا لون،

لحياة بلون وحيد،

هو البؤس.

الحافلات الملونة تمضي،

لجهات بلا لون، لحياة بلا لون،

لحياة بلون وحيد،

هو البؤس.

ثلاث ساعات على درب طويل كهذا تتحوَّل في النهاية إلى كابوس، رغم أن دوريات الجيش لم يكن يفصل الواحدة منها عن الأخرى أكثر من ألف وخمسمائة متر.

- إنهم يعملون على الحدِّ من عمليات الاختطاف. قال السائق. وأضاف: إنها طريق مثالية للخاطفين بسبب مرورها من وسط الغابات.

وتذكرت كتاب الوصايا:

لا تمش وحدك بعيدا

لا تمش وحدك في الليل

لا تدخل في أي حوار مع أحد وأنت لا تعرف اللغة

وإلى هذا الكتاب أضفت: احذر السفر مع امرأة ذات شعر ذهبي فاقع مضيء، ومع أناس مستعدين لعمل أي شيء مقابل تدخين سيجارة.

مرة أخرى، كان علينا أن نتوقَّف، وأن نغادر السيارة بطلب من الجنود، الجنود الذين راحوا يفتشونها بدقّة، في حين راح آخرون يتصفّحون جوازات سفرنا الغريبة بأشكالها وبأحجامها وبألوانها أيضا.

تنوّع الجوازات كان مناسبة لكسر ذلك الوقت الثقيل الذي يمضونه هنا.

كنا قد بدأنا نعتاد التعامل مع الجنود أكثر فأكثر، لكننا لم نكن قادرين على التعامل بتوتر أقلّ مع حفلة التدخين التي ذهبت هذه المرة باتجاه أبعد حينما اندفع الشاعر الذي يكره الشِّعر بمرافقة زوجته نحو مقهى صغير على الطرف الثاني من الشارع تاركين جوازي سفرهما بين أيدي الجنود.

تبادلنا التفاهم بلغتنا المشتركة التي اخترعناها، وحين لم نجد أنها باتت تكفي انطلقنا نلعن الهواء الأسود المعبأ برائحة السجائر دون هوادة؛ في الوقت الذي وقف الجنود ينتظرون رحيلنا!!

كنا نراقبُ على الطرف الآخر السيجارة الثالثة التي تتنقل من فم لفم كما لو أنها الأمنية الأخيرة لأناس سيتم إعدامهم بعد قليل.

ابتعد أوسانا قليلا عن الشارع، دخلَ الغابة، الغابة التي لا يمكن لأحد أن يراك فيها إذا ما توغّلتَ داخلها ثلاثة أمتار لا أكثر!

بعد قليل عاد، مدَّ يده إلي بثمار عسلية صغيرة كان يأكل بعضها: إنها لذيذة قلتُ له.

- هل تعرف ما هي؟
- لا.
- إنها القهوة.
- قهوة!!

لم يخطر ببالي أن القهوة تؤكل سوى في القصائد!! وإذا بي أكتشفُ أنها تؤكلُ على قارعة الطريق أمام حاجز التفتيش.

حدّقنا في السماء الصافية حيث الصقور تحوم بلا انقطاع

عبرت الفراشة السوداء أمامنا

قلت: ماذا لو كان الصقر مجرد فراشة سوداء في الأصل

قال لي: أوافقك، لأن الكائن الوحيد الذي لن يصبح في أي يوم أكثر من كلب، هو الكلب.. في الظل!

**

تحركا أخيرًا، ولكنهما قبل أن يقطعا الشارع كانا قد أشعلا سيجارة رابعة، وقبل أن يصلا إلينا كانت على وشك الانتهاء. وحين اندسَّتْ الزوجة في المنتصف، كان الزوج يحاول التقاط آخر أنفاس السيجارة وقد أصبح نصفه داخل العربة ونصفه الآخر خارجها.

عبَّ النَّفس الأخير وسحق السيجارة بقدمه، السيجارة التي لم يبق فيها، أصلا، ما يُسحق.

العربي الوحيد

حاملا قصائدك كعصفور

متنقلا بين حاجز عسكري وآخر

ومن بين أشجار الغابات تتابعك بصمت عيون الصيادين

كل هذا ستنساه

لكن الشيء المميت

هو أن تعود قصائدك معك

بعد أن تكون قرأتها للقلوب الأكثر رقة قرب المحيط

اقترب مني مبتسما، حياني بعربية واثقة: أهلًا!!

- أهلًا.

كان الأمر مُربكا، إذ لم أصادف ما يكفي من العرب في مدايين لأكون على ثقة أنهم استطاعوا الوصول إلى هنا!!

في واحدة من الأمسيات جلسَ بجانبي رجلٌ، صافحني بحماس ودعاني لتناول الطعام في مطعمه الصغير. بعد قليل عرفتُ أنه وصل إلى هنا هربًا من أهوال الحرب العراقية الإيرانية.

- الموت كان أكثر من أن يُحْتَمل.

وها أنا للمرة الثانية أمام عربي، لم يكن صعبًا أن أعرف أنه لبناني.

- هل هنالك عرب غيرك في بونافينتورا؟

- إنني الوحيد!

- الوحيد!

- وما الذي أتى بكَ إلى هنا؟

- الحرب الأهلية اللبنانية!!

العثور عليه كان أمرًا جميلًا، ولم يكن هو أقلّ فَرَحًا. نحو فسحة قريبة من ركن الاستقبال في فندق (المحطة الرئيسة) جلسنا متقابلَيْن على مقاعد من الخيزران في انتظار أن يهيئوا الغرف، وأمامي، كانت عدة لوحات على الحائط المقابل، لوحات جميلة بألوان حارة قد لا تستدعي مشهدًا معينًا، ولكنها تستدعي نكهة المكان وحيوية بشره.

خلعتُ الجاكيت الذي ارتديته طوال الرحلة، فقد كان نزولنا من السيارة كافيا لندرك أننا بتنا في قارّة أخرى!! حيث الرطوبة العالية اللزجة وهواء المحيط الساخن الذي يُطْبِقُ على هذا الفندق منذ مئات السنين والغيوم الملبَّدة التي توحي بكثافة قاسية وهي ترسل بين حين وآخر ماءها برشقات سريعة.

- حين وصلتُ هنا. قال لي. ورأيتُ الأطفال يتراكضون تحت المطر عراةً فزعتُ، قلتُ سيموتون من البرد! لكنهم ضحكوا عليّ، وبعد أيام ضحكتُ على نفسي، لقد أدركتُ أن هذا المطر (غير شِكِل) عن مطر لبنان.

- متى وصلتَ إلى هنا؟

- منذ ثلاثين عامًا، ولكنني أريد أن أسألك، هل ما زلتُ أتحدّث العربية بصورة جيدة؟!

- أكيد. مثلي.

- لا تُبالغ. لقد أصبحتُ أُضيّع بعض الكلمات. بل أحيانًا أحسُّ بأنني أضيِّعها كلّها، لأنني لا أتحدّث بها مع أيّ أحد.

- لغتكَ جيدة، ولهجتكَ كما هي.

- طمأنتني. في بعض الليالي أحاور نفسي بالعربية كي لا أنساها. سألتني متى أتيتُ. أم لماذا أتيت؟

- متى أتيت، ولماذا أتيت؟!

- كنتُ ولدًا أتنقّل على خطِّ التّماس القريب من بيتنا، مرّة أجلس مع هذا التنظيم ومرة مع التنظيم الآخر الذي هو ضده، وكان المقاتلون يطلبون خدماتي فأحضر لهم ما يحتاجونه، لكن أُمي التي كانت تراقبني دون أن تقول شيئًا أدركتْ أنني سألتحق في النهاية بأحد هذه التنظيمات، وأفهمتني ذلك، وعندها أدركتُ أن هناك مشكلة فعلا!! فإذا التحقتُ بهذا التنظيم فإن عليَّ أن أُقاتل أصدقائي في التنظيم الثاني، ولم يكن بإمكاني أن أفعل هذا أبدًا؛ لكن أمي حسمت الأمر الذي لم أستطعْ حسمه: "أخوك، إبراهيم في أمريكا. قالتْ لي. وكولومبيا قريبة جدًا منها كما يقولون. وسيجد طريقة (يسحبك) بها إلى أمريكا". وأتيتُ لأن زوج أختي كان قد سبقني معها إلى هذا البلد، ومنذ ثلاثين عاما أنتظر أخي إبراهيم أن يمدَّ يده إليّ ويسحبني إلى أمريكا!

- هل تنتظر ذلك فعلا؟ سألته.

- أعوذ بالله، أبدًا.

- ولماذا؟

- شوف، سأقول لك قصة وأظن أنكَ ستفهمها جيدا لأنكَ كاتب!

هززتُ رأسي أُشجِّعه وقد منحني هذا الشرف: تفضّل.

- حين وصلتُ إلى هذه المدينة ذهبتُ للسباحة هناك (وأشار إلى المكان) ثم قال لي: كنتُ أعتقد أن السّباحة في هذه المنطقة كالسباحة في بحر

بيروت، لم أكن أعرف المحيط، ولا أعرف طبائعه، وصلتُ إلى الصخور الكبيرة وألقيتُ بنفسي، وفجأة وجدتُ الماء يسحبني بعيدًا، تلفتُّ حولي، لم أرَ الصخور، لم أرَ أحدًا وأدركتُ أن لحظة موتي حانتْ، وفكّرتُ: تقطعُ كل هذه المسافة من بيروت لتموت هنا يا نبيل!! وعاهدتُ نفسي إذا ما منحني هذا (المحيط) فرصة النجاة فإنني سأعطيه ما تبقى من حياتي، ولن أتركه أبدًا. وهذا ما كان. الآن زوجتي في (كالي)، ابنتي في إسبانيا وأنا هنا.

ثم هتف فجأة: الستَ جائعًا؟

- أجل.

- إلى المطعم إذن.

بعد قليل لحق بنا وليام أوسانا.

- بماذا تنصحني؟ سألت نبيل.

- أتريد شيئًا لن تنساه أبدًا؟!!

- هذا هو المطلوب.

أشار للنادلة، اقتربتْ، وبعد وقت بدا لي قصيرا رغم طوله، لانشغالنا في أحاديث كثيرة، عادتْ ووضعتْ ذلك الطعام الذي لم أره من قبل أمامي بأناقة استثنائية.

كان شكل الطعام كافيًا لأن يُغريني بإخراج الكاميرا والتقاط صورة له قبل أن أمدّ إليه يدي.

- أعجبك إذن؟

- هل نسيت أن أمهاتنا يقلن (العين بتوكل والفم رمّام).

- لكنكَ ستكتشف أن أمهاتنا لم يكنَّ على حق تمامًا بعد أن تأكل.

- ربما لأنهن لا يعرفن هذه (الأكلة).

حين بدأتُ، أدركتُ أنني أمام تجربة جديدة لم أعرف مثلها. كنتُ أرى التفاصيل، فهناك حبّة جوز الهند التي تم تحويلها إلى صحن بعد أن أُقتطِعَ

ربعُها بما يتيح إدخال الملعقة فيها وإخراجها بيُسر، ولكي تكون ثابتة وضِعَتْ في سلّة محاطة بمنديل أبيض يمنع تأرجحها، وهناك أصناف من المأكولات البحرية من السّمك إلى الجمبري إلى اللوبستر التي طُبِخَتْ بنوع من المرق اكتسب طعم جوز الهند، وربما يكون ماء جوز الهند نفسه جزءا من المرق!

- ما اسمها؟
- كاسْويللا. اسمها كاسويللا.
- وممّ تتكون فعلا؟
- من تسعة أصناف بحرية.

لا أظن أنني استمتعتُ ذات يوم بطعام مثل هذا، وإلى ذلك صحن الأرز الصغير وبعض خبز الموز الذي أحببته كثيرًا.

حين انتهيتُ أخرجتُ الكاميرا وصوّرت جوزة الهند وقد أصبحتْ فارغةً.

- ولماذا تصورِّها الآن؟ سألني نبيل.
- لأتأكد من أنني أكلتها فعلا!

**

لم يكن فندق (المحطة) شيئا عاديًا، إنه قصر أبيض عظيم لا يَخفى مجده، يصل عمره إلى مئات السنوات، أعمدته البيضاء، نوافذه، أقواسه، كلها تنبئ بدور كبير لعبه على مرّ السنين.

بعد الغداء حضرَ موظف الفندق وسلّمني مفتاح غرفتي، وكذلك أوسانا، وكنّا عملنا أن نبقى في المطعم أطولَ مدة ممكنة بسبب وجود المكيّفات التي لا وجود لها في بهو الفندق الذي بدا لي كممرّ يصل الشارع العام من جهة بالمحيط من الجهة الأخرى.

ودّعني نبيل بحرارة، فَرِحًا بأنه سيلقاني ثانية، كما لو أنني لم أصل بعد: استرح قليلا. قال لي. وبعد ساعتين أعود إليك، في الرابعة والنصف. أهذا جيد؟ لترى المدينة!

راقبته وهو يبتعد بقامته القصيرة العريضة المتينة وخطواته المطمئنة. صعدتُ للغرفة. وضعتُ حقيبتي الصغيرة، حملتُ الكاميرا ونزلتُ ثانية.

كنتُ أعرف أن الوقتَ قليل هنا، ساعات، لا غير، ثم تغيبُ الشمس، وفي الصباح التالي سنغادرُ في الثامنة.

دُرْتُ في حديقة الفندق حيث أشجار الجوز العالية، بركة السباحة، المقاعد البلاستيكية البيضاء، وعلى بُعْد مائتي متر لا غير كان هناك ميناء صغير. التقطتُ مجموعة من الصور، لم تكن هناك مَشاهد تفصيلية كالتي تستهويني عادة، لم يكن هناك سوى المشهد العام. وفي الجهة المقابلة، بمحاذاة الشارع، كان رجال الجيش يسيرون جيئة وذهابا على طول سور الفندق.

- فندق كهذا، هو الأهم هنا، ولذلك يوفِّرون له حراسة خاصة. هذا ما أخبرني به نبيل.

كانت اليقظة العالية، إلى حدّ المبالغة، هي سمة الجنود الشباب الذين لم يتوانوا عن تفتيش، أو طلب هوية أيّ شخص يحاذي ذلك السور، يدقّقون في أغراضه، ثم يتركونه بعد أن يشيروا إليه أن يبتعد.

- الخطف شيء عادي هنا من أجل الفدية. اليمين يخطف واليسار يخطف والمجرمون يخطفون. هذا ما سيخبرن به نبيل فيما بعد.

فكَّرتُ بالخروج للتجول، لكنني في النهاية قَبِلْتُ بذلك الشرط الذي لا أحبه، أن تكون محروسًا أفضل من أن تكون عرضة لأسئلة لن تستطيع الإجابة على أي منها.

وتذكرتُ جزءا من كتاب الوصايا: لا تمش وحدك في مكان لا تستطيع فيه الإجابة على أسئلة ذلك الذي يملكُ حقَّ طرْحِها.

لا تمش وحدك كسائح وبيدك كاميرا في مكان غير مناسب.

عدت لغرفتي مطمئنا أنني بعد أقل من ساعة ونصف الساعة سأتسلَّح بنبيل وأتجول في المدينة كأنني واحد من أهلها.

**

خمس دقائق مرَّتْ منذ مغادرتي بوابة الفندق كانت كافية لكي أتحول إلى قطرة ماء ضخمة تسير مترنِّحةً بسبب الحرارة القاسية والرطوبة التي تتجاوز أي حد عرفته من قبل.

في الموعد المحدد فاجأني نبيل بإحضاره عددًا من الأرغفة العربية وبعض الزعتر بالزيت وحبات من (الكُبّة) اللبنانية: هذا من مطعمي. لا بد أنك اشتقتَ لأكلنا! ضعْها الآن في الغرفة، ولكن لا تتأخر في تناولها. قال لي.

- إذن لديك مطعم. ولكن ألا تخشى أن يخطفك أحد هنا؟
- لا، لا أخشى ذلك.
- ولماذا؟
- لأنني جيد معهم، وهم يحبونني.

وصمتَ قليلا ثم فاجأني ثانية: لقد أنشأت لهم مدرسة لتعليم كرة القدم.

- لتعليم اللاتينيين كرة القدم؟!
- نعم. والأوضاع جيدة لأنني واثق من أننا سنحقق شيئًا كبيرًا ذات يوم.
- ما الذي تعنيه بشيء كبير؟
- أن نوصل بعضَ اللاعبين الذين نُدرِّبهم إلى الأندية الكبرى.

سِرْنا

بعد قليل فاجأني بسؤال غير متوقع: هل ما زالت وردة الجزائرية تغني حتى الآن؟!

- نعم.

- إنني أحبها، أظنها آخر مطربة أحببتها كثيرًا. ولكن ما هي أحوال الغناء العربي اليوم؟

كان السؤال مربكا فعلًا، وحين رحتُ أشرح له الوضع وأعدد أسماء المغنيات اللواتي يملأن الدنيا ويشغلن الناس كان يتابع دون أن يستطيع إعادة أي اسم من جديد، فكل الأسماء كانت جديدة بالنسبة إليه.

حاولتُ أن أطمئنه ما استطعتُ على أحوال الغناء العربي على الأقل، هو الذي بدا ممتعضا من كل هذه الحروب التي تُشنُّ علينا والمصائب التي تحلُّ بنا، ولكنني فشلتُ تماما.

- كيف يغنين؟ سألني.

- بعضهن يُحَبُّ ويمكن أن تسمعه، وبعضهن يُرى فقط.

- كيف ذلك؟

- ذات مرة دخلت غرفتي في فندق بمدينة حمص، كان موظف الفندق قد سبقني، أشعل جهاز التلفزيون، لكنه قام بإلغاء صوت المحطة الغنائية تمامًا . بعد قليل اكتشفتُ شيئًا لم أكن قد أدركته من قبل. لقد كنتُ أمام فيلم بورنو مُخفَّف، إذ الحركات والرقص والتأوه الصامت ومعانقة الجدران والالتفاف على أعمدة البيوت والأكواخ والتدحرجُ على رمال الشواطئ أو في الأسرَّة والملابس التي لا تستر شيئا نموذج عربي بارع لأفلام لم يسبق أن أُنتجت هنا منذ فيلم (سيدة الأقمار السبعة)!!

- أإلى هذا الحد؟!!

هززت رأسي مؤكدًا.

وهكذا رأيته فجأة يغير الموضوع: ولكن، كيف الزعماء العرب؟

رحتُ أحدِّثه عمّن بقي حيًا وعمّن ماتَ ولم يزل حيًا وعن الذي جاء بعده حتى لم أترك له شيئا يمكن أن يسأل عنه.

كان يهز رأسه بأسف طوال الوقت، لكنه توقَّف فجأة ونظر إلي مباشرة بأسى ثم قال لي برجاء: هل يمكن أن نعود للحديث عن المطربات العربيات!!

**

سرنا في الشارع المحاذي للمحيط، دخلنا متنزَّها صغيرا فقيرا. ببساطة ودون عناء يمكن أن تحسَّ مباشرة حب البشر هنا للحياة رغم حالة الفقر البادية على كثيرين منهم، ذاك الشاب الأسمر يعانق حبيبته السوداء، تلك الأمُّ تجري وراء طفلها وهما يضحكان، الأغاني تصدح في الأكشاك الصغيرة المتلاصقة المنتشرة بكثافة، أكشاك بيع العصير والكولا والماء والجعة والمجلات الرصينة وغير الرصينة أبدًا والتي يستطيع حتى من لا يعرف اللغة أن يقرأها من صور أغلفتها، لا من عناوينها.

نبيلُ الخبير مضى بنا إلى مقهى يتمتَّع بإطلالة واسعة على المحيط، وعلى ارتفاع أكثر من ثلاثين مترًا جلسنا هناك حيث الغروب الجميل الذي لا يستطيع بجماله أن يدفع الرطوبة عنا بعيدا، الرطوبة التي تسلبنا بهجة الامتداد الذهبي لبقايا المياه المُنحسرة.

يفتنُ المرءَ التطلُّعَ للبعيد؛ ولكن، ماذا عن ذلك الذي تحتَ بصره تماما؟

أشرتُ للأسفل، للأكواخ المرفوعة على دعائم خشبية واهنة تغوص في الطين وقد فضح جزْرُ الماء بؤسها. قال لي: هنا البشر الأفقر.

تطلعتُ أحاول رؤية بعضهم. ما تبقّى كان يسير بتثاقل كما لو أن أقدامه قد أصبحت أسيرة الوحل، فيما بدا وكأن الآخرين اختفوا تماما.

راقبتُ أفواه مجاري بيوت الساحل ومقاهيه تلتمعُ في قنوات صغيرة ضامرة وتجري نحو الوحول، وهناك رأيت الكلاب تتقافز بفرح غريب في ذلك العالم السفلي الكئيب.

وحدها الكلاب تستطيع العيش هنا وأن تبدو بصحة جيدة بين النفايات، أما البشر فمن المستحيل أن يستطيعوا ذلك.

انحسار المياه عن ذلك الخليج الصغير شيء غير عادي؛ كان من القوة إلى درجة أنه يجعل البواخر الراسية بعيدًا تدور على نفسها. لقد رأيتُ ذلك الجزْر ذاتَ يوم في تلك المدينة الأيرلندية الجنّة (كانسيل)، لكن ذلك لم يكن بهذه القوة، وكانت كانسيل نفسها شيئا آخر تماما.

التفتُّ إلى نبيل وسألته: أَلا تحنّ لبيروت؟

- أحن. ولكنني لو عشت فيها أكثر لما كنت أحن.

- ولماذا؟!

- من ذلك الذي يمكن أن يحنّ لزمن الحرب؟!!

ضحكتُ، فقال لي: تضحك!

قلت: نعم. لأنني أعرف جواب سؤالك.

- وما هو الجواب؟

- الأسلحة.

وقرأت له تلك القصيدة القصيرة جدا من ديواني (شرفات الخريف) والمكونة من بيتين لا غير:

وحدها تحنُّ لأزمنة الحرب:

هذه الأسلحة.

- الله أكبر يا أستاذ!! هذا هو الكلام الذي يملأ الرأس.

قبل سنوات وفي أوج استعدادات أمريكا للحرب على العراق سألني أحد الصحفيين ثلاثةَ أسئلة عن الحرب، كانت إجابة الأول هي القصيدة

السابقة أما السؤال الثاني فكان: هل الحرب تُغـذي الإبـداع فعـلا؟ فكانـت إجابتي: الحياة تغذي الإبداع، الحيـاة الحقيقيـة. قـد تكـون الحـرب مناسـبة للقول، لكنها ليست سببًا أصـيلا للكتابـة، يكفـي أن نتأمـل عـدد الأعـمال المكتوبة عن الحرب في العالم مقابل عدد الأعمال المكتوبة في مواضيع كثـيرة، في الحب والجمال والعدالة والحرية، ليتبين لنا أن الكتابة كان يمكن أن تعيش بغير الحروب. وفي النهاية، أنا لا أريد حربًا كي أكتب، أريد مساحة واسعة أستطيع فيها التنفّس دون أن أكون مضطرًّا لاستنشاق رائحة لحم أهلي التـي تملأ الهواء بعد كل حرب، لأن آخر ما يمكن أن تفكر فيه الكتابةُ هو تعذيب الكلمات بالحروب.

أما سؤاله الثالث فكان: أي الفنون أقدر على كتابة الحرب والتعبير عنهـا إبداعيا؟ وكانت إجـابتي: لا يـستطيع أن يعـبر عـن الحـرب فعـلا، سـوى الحرب نفسها، من المحزن أن هناك شيئًا اسمه (فن الحرب)!! وهذا الفـن!! على درجة من الدّهاء والقسوة بحيث لا يسمح لأي فـن إنـساني آخـر بـأن يحتل مكانه وهو يزحف حارقا الأرض ومن عليها.

مَن يستطيع أن يعرف ما الذي تفكـر فيـه فوهـة البندقيـة وهـي تتطلّـع لجسد طفل يلعب في مجال القَنْص، أو قنبلة من اليورانيـوم المنـضب أو غـير المنضب وهي تُحلِّق فوق مدينة طيبـة تـصحو بكامـل بـشرها وهـي تنظـف أحلامها الجميلة من بقايا عتمة الليل؟ و..

**

قلتُ لنبيل: أتمنى أن نعثر عـلى أنفسنا في شيء واحـد، وتـذكَّرتُ تلـك القصيدة التي كتبتها عام 1982 بعنوان (حوارية الصديقين).

يا صديقيَ في الوقت مُتَّسَعٌ

أنت نَمْ

وأنا سأواصلُ هذا الكلام:

بين موتين كنا عبرنا الطفولةَ
لم نكتملْ في الحليب ولم نكتملْ في الأغاني
ولم نكتمل في الحروبِ
ولم نكتمل في السلامْ!!!

**

تلك الليلة كانت واحدة من الليالي الجميلة في كولومبيا، آخر ليالي الشعر بالنسبة لي.

حين وصلنا القاعة، سألني وليام أوسانا: هل تعرف صوت مَنْ ذلك الذي تسمعه الآن؟

- لا.
- إنه صوت بابلو نيرودا.

كانوا قد وضعوا اسطوانة من أشعاره، يبدو أنها سُجِّلَتْ خصيصا في استديو، إذ لم يكن هناك ما يدل على وجود جمهور. ظلَّ نيرودا يقرأ إلى أن حان موعد الأمسية، وحين صعدنا للمنصّة اكتشفنا أن هناك ثلاث شاعرات من المدينة سيقرأن معنا أيضا.

كان الأمر مُفرحا بالنسبة لي، واحدة منهن كانت تتقن القراءة عن ظهر قلب بروح مسرحية قوية، في حين كانت الأخرى تقرأ بصورة جميلة بسيطة، أما الثالثة، وهي الأكثر شبابا، فبمجرد أن نطق عريف الحفل اسمها هبَّتْ القاعة صغارًا وكبارًا، وأعني مسنين فعلا، يصفقون بحرارة.

مال أوسانا إلى أذني وقال لي إنها شاعرة إيروتيكية معروفة تماما هنًا، قرأتْ بدلال وبجرأة وسط صيحات الاستحسان التي لم تتوقَّف، وبعدها جاء دورنا، فقرأنا ثلاثتنا، ولكن المنصة كانت تفقد شاعرًا بعينه بين حين وآخر، كل سبع دقائق على الأكثر، وحين يعود يكون أكثر هدوءا.

ولم نكن بحاجة لذكاء خارق كي نعرف أنه يخرج للتدخين.

نظرتُ إلى (نبيل)، وعرفتُ أنه ذلك الشخص الذي سأقرأ له هذا المساء، في الصف الأول جلس متحفِّزا، كان قد قال لي: تذكَّر أن هذه هي أول أمسية أحضرها في حياتي. وصمتَ قليلا، ثم أضاف، أنا العربي الوحيد الليلة، وغدا صباحا ستمضي، فاتركْ لي ذكرى طيبةً أحدثهم عنها، ارفعْ رأسي بقصائدك وبيّض وجهي!!

أشبه بمباراة نهائية لفريقه المفضل في كرة القدم كانت الأمسية!

قرأتُ بصورة مختلفة تلك الليلة، قرأتُ لشخص واحد أكثر مما قرأتُ لشخص واحد في أي يوم من الأيام، لكن النتيجة كانت رائعة، لأن الواحد في جوهره هو الجميع في النهاية. وثانية تأكد لي كم هو كبير حجم الكُرْه لأمريكا في هذه المنطقة، ولم يكن على المرء أن يكون عبقريا ليدرك ذلك، فهؤلاء الذين يملأون القاعة، في معظمهم، أحفاد أولئك الذين سيقوا عبيدًا من وراء المحيطات، ومن أولئك السكان الأصليين الذين عانوا الكثير بسبب اجتياح الأوروبيين لبلادهم، هؤلاء الذين جاؤوا لحضور الأمسية وكلّ منهم يحمل بيده الكتيب الصغير الذي طُبع هنا ويضمُّ مجموعة من مختاراتنا الشعرية بالاسبانية.

لن أنسى تلك المرأة السوداء القوية الفارعة التي تجاوزت الستين، المرأة التي هبَّتْ لاحتضاني بعد الأمسية كما لم تحتضني امرأة في أيّ يوم من الأيام. المرأة التي كلما احتضنتني أبعدتني قليلا ونظرتْ إلي، كما لو أنني شخص عزيز غابَ طويلا وتخشى أن يكون قد تغيّر، ثم تعود لتحتضنني وهي تتمتم بكلمات ترجمها لي أوسانا: إنها تحب قصيدتك عن (النَّمر):

كلما قرأتُ عن نَمِرٍ
افترس مُدرِّبَه في السّيرك
أو حارسَهُ في حديقة الحيوان
طرتُ فَرَحًا داخل قفصي

وكنت فهمتُ لفرط ما رددتْ: أمريكا أمريكا، أنها أحبتْ تلك القصيدة أيضًا.

في ذلك الجوِّ الحميم اندفعتْ الشاعرة الإيروتيكية نحوي راكضة وعانقتني بقوة تتناسب مع حجم جسدها النحيل، ثم طوَّقت خصري بيدها، كما لو أننا صديقان منذ الأزل. سأراها ثانية في مطار (كالي) في الصباح التالي، راكضةً باتجاهي مشتتة جموع المسافرين غير عابئة بالفوضى التي تثيرها!! وقبل أن تقترب ستطير في الهواء وتتعلق بي ملقية رأسها على كتفي كطفلة صغيرة وستمكثُ دون حراك حينا قبلَ أن تنزلق بهدوء نحو الأرض.

**

ودَّعْتُ نبيل بعد الأمسية: لو أنكَ تبقى أياما أخرى هنا. قال لي.

- سأحاولُ أن أبقى دائما!

أخرجتُ النسخة الوحيدة التي حملتها معي من ديواني (حطب أخضر) وقلت له: ديواني هنا، هذا يعني أنني سأكون هنا دائمًا!!

- بالتأكيد. قال لي. وصمتَ قليلا ثم قال: ها قد أصبحنا اثنين. عربي وحيد في هذه المدينة وديوان شعر وحيد في هذه المدينة أيضًا، إنه أجمل هدية أتلقاها منذ ثلاثين سنة، شكرًا لك.

**

صباحا صحوت قبل موعد عودتنا لـ (كالي) بساعتين، قلتُ سأرى المحيط في هذا الوقت وأودِّعه.

سرتُ فوق الميناء الخشبي حتى وصلتُ إلى تلك النقطة التي لم أعد أرى بعدها إلا الماء، الماء الذي يزنّر الكرة الأرضية كلّها.

وتساءلت: من كان يصدق أنني سأصل إلى هذه الأرض القصيّة في أي يوم من الأيام.

واستعدتُ تلك الأحلام الصغيرة التي داعبتنا ذات يوم بالوصول إلى أي مكان، أي مدينة، خارج حدود ذلك المخيم المزنّر ببحيرات الطين الأحمر الثقيل.

من كان يصدق أنني سأصل إلى أي مكان بعد أن تخلَّت الحافلاتُ عن أحلامي الصغيرة ولم تحملني الطائرة الأولى إلّا إلى الصحراء.

وماذا عن أستاذ اللغة العربية الذي لم يُصَدِّق أبدًا أنني كتبتُ تلك القصيدة؟!

ما الذي سيحدث لو قابلته وقلتُ له: إن للقصائد أجنحة؟

وأنها طارت بي إلى هنا؟!

أمام محيط واسع كهذا، استطعت الوقوف على ضفتيه اللتين تطوقان العالم، لم يكن الأمر سوى معجزة إذا ما قيس بالمقدمات.

(نبيل) قرر البقاء لأن المحيط سمع نداءه.

وها هما يتبادلان الحياة وقد أبعدا فكرةَ الموت.

كنتُ أريد أن أقول لنبيل، لكن تلك الساعات القليلة التي أمضيتها هناك لم تكن كافية: هناك أسطورة فلسطينية تقول: لقد خلَقَ الله الإنسان من ترابين؛ تراب المكان الذي وِلِدَ فيه، وتراب المكان الذي سيموت فيه.

لقد كانت هذه الأسطورة جزءًا أساسًا من روايتي (أعراس آمنة) ولكنني اكتشف فيها اليوم شيئًا جديدًا، أكتشف أنها تحمل في جوهرها قيمًا عالية ضد التعصُّب لأي مكان، وأولها ذاك المكان الذي وِلِدَ فيه لأنها تقول له: هناك مكان آخر تنتمي إليه هو المكان الذي يُشكِّلُ النصفَ الآخر من (تراب) جسدك. تقول له: إنك تنتمي لعالمين، ولأنك لا تعرف عالمك الثاني فإنك تنتمي بالضرورة لكل عالم خارج عالمك.

وفجأة وجدتني أتساءل: وأيّ ماء صبّه الله على تراب أجسادنا كي يكون الطين؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الماء أيضًا من كل مياه شرب الإنسان

منها أو خاضها أو رآها، أكانت مياه ينابيع أو مياه أنهار أو بحيرات أو بحار أو محيطات أو مياه أمطار.

لقد وجد نبيل ذلك المكان الذي يحبُّ أن يموت فيه، لأنه وجد المكان الذي يحبُّ أن يعيش فيه.

أستعيدُ الأماكن كلَّها

أمدُّ ذراعيّ على وسعهما

أطوِّق بهما هذا الكوكب الصغير

وأحتضنه بحرارة..

ولكن..

ثمة هناك،

أكثر من جرح في القلب!!

فصـــول السـيرة

إبـراهيم نصر الله

مواليد عمّان من أبوين فلسطينيين اقتُلِعا من أرضهما عام 1948

* صــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989 .حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993. الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994. شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والإبـن، 1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2008. عودة الياسمين إلى أهله سالما، مختارات، 2011. أحوال الجنرال، مختارات، 2011.

* الروايـات: (الطبعات الأولى):

براري الحُمّى، 1985 . الأمواج البرية، 1988 .عَــوْ، 1990 . مجرد 2 فقط، 1992.

حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلسـطينية (الطبعات الأولى): (كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى)

طيور الحذر، 1996، طفل الممحاة، 2000، زيتون الشوارع، 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004،

زمن الخيول البيضاء، 2007- اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009.

قناديل ملك الجليل، 2012،

الشـرفات: (الطبعات الأولى): (كل رواية مستقلة عن الأخرى)

شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010

* كـتب أُخرى (الطبعات الأولى):

هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000

ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002

السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006

صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008

* ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية..

* أقام 4 معارض فوتوغرافية وشارك في معرض المشترك (كتّاب يرسمون) لثلاثة كتّاب- عمان، 1993

* نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر، 1991 .جائزة تيسير سبول للرواية، 1994

جائزة سلطان العويس للشعر العربي، 1997

بجناحيه
يستطيع النسر أن يُحلّق بعيدًا
والفراشة أيضاً



من منظور معين، «السيرة الطائرة» هو رواية تشكل في كليتها مناخًا قادرًا على حمل سمات العمل الروائي في صيغته الحديثة. وهو مجموعة من القصص القصيرة بحيث يمكن لقارئه أن يستل أي فصل فيه فيقرأه كما لو كان يقرأ قصة قصيرة أخاذة. وهو نص إبداعي ينصهر فيه الأنا بالآخر، ويحضر فيه الإبداع الفني حضوراً مميزاً، وتتبلور فيه الرؤى والأفكار ويُعاد بناؤها من جديد وفق منظور إنساني واسع، وفلسفة كونية لا ترى حدوداً بين البشر.

عمل متميز، ولعله من أجمل الأعمال التي أبدعها نصر الله.

د. محمد عبد القادر

THE FLYING AUTOBIOGRAPHY
Less than an Enemy. More than a Friend
IBRAHIM NASRALLAH

ketab.me

السِّيرَةُ الطَّائِرَةُ

إنها حكاية كاتب، حكاية طفل، تبدأ في مخيم للاجئين الفلسطينيين، تحت أقسى الظروف، لينطلق بعد ذلك نحو قارات العالم، معيداً، بالكتابة والسفر، صياغة أحلامه وهو يحمل إلى كل مكان يمضي إليه أحلامَ شعبه.

تشكل (السيرة الطائرة) رحلة استثنائية تضيء جزءاً أساساً من سيرة الكاتب الإبداعية والإنسانية والأثر الذي تركه السفر في كتابته الشعرية والروائية، كما تضيء جوهر تلك الحوارات التي خاضها حول القضايا العربية الساخنة والقضية الفلسطينية والصورة الإنسانية العميقة للحضارة العربية مع المثقفين والجمهور في العالم على مدى عشرين عاماً، عابراً بكتابه هذا أيضاً أهم مفاصل التاريخ العربي المعاصر منذ عام النكبة الفلسطينية حتى اليوم.

وبعيداً عن البناء السردي الأفقي للسِّير الذاتية يقدم نصرالله اقتراحاً فنياً جديداً بكتابته لسيرة غير تقليدية، مستفيداً من خبرته الروائية، سواء من خلال تعامله مع الزمان والمكان أو من خلال سرده غير التقليدي لهذه الأحداث لغة وتأملاً؛ كما انعكست خبرته كشاعر بصورة واضحة في هذا الكتاب الذي ضم عدداً كبيراً من النصوص الشعرية التي شكّلت جزءاً أصيلاً من بنية هذا العمل الذي يضيء جوانب كثيرة غير معروفة من حياة إبراهيم نصرالله ورؤاه الأدبية.

الناشر

ISBN 978-614-01-0125-8
9 786140 101258

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com